التربية فى العصر القبطى

والشخصية القومية المصرية

تأليف

دكتور سليمان نسيم

أستاذ أصول التربية بجامعتى حلوان والقاهرة (سابقاً)

رئيس قسم الاجتماع والتربية

معهد الدراسات القبطية

دار الثقافة

طبعة أولى

صدر عن دار الثقافة ص.ب ١٢٩٨ ــ القاهرة

٤٤٦/١٠ ط١ (أ)/ ٥ ــ ٨٩/٥
رقم الإيداع بدار الكتب ٨٩/٨٧٠٨
٧ ــ ١١٦ ــ ١٦٦/ ٩٧٧
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة
جمع في سيوبرس

التربية فى العصر القبطى
والشخصية القومية المصرية
هذا الكتاب ..... لماذا ؟

مقدمة :

يكشف لنا تاريخ التربية ، بوجه عام ، عن أصول المشكلات التربوية ، كما يكشف عن الحاجات الاجتماعية والثقافية للأمة مما يمكّن الباحثين من تقويمها جميعاً ، والتخطيط لمواجهتها فى الحاضر والمستقبل ، رفعاً لمستوى حياة الانسان وارتقاء بأحوال المجتمع .

وتاريخ التربية فى مصر هو رحلة طويلة مع الانسان المصرى ، التقى خلالها بالعديد من الشعوب والثقافات والأديان ، وتبادل معها التأثير والتأثر مما أنتج ثقافة مصرية متميزة . من ناحية أخرى فان هذه الرحلة الثقافية تلقى الضوء على خصائص مجتمعنا المصرى فى العصور التاريخية المتعاقبة وتجعلنا نلحظ ، فى يسر وسهولة ، أن ثمة خاصية ثقافية هامة تميز بها شعبنا المصرى على امتداد هذه العصور تلك هى قدرته على استيعاب الثقافات الواردة عليه ، وهضمها ، ثم تمثيلها فى شكل مصرى جديد . وأن هذه الميزة لتصل الى قمتها بتفاعلها مع الأديان التى جاءت الى مصر : المسيحية فى القرن الأول ، ثم الاسلام فى القرن السابع واذا بالعقلية المصرية تلتقى بهما لقاء المستشهد فى حماس وقوة وتجعل من كل منهما شكلاً مصرياً ، لا يمس جوهر الدين ومعتقده الأساسى ؛ لكنه يأخذ شكله وطقسه ليحولهما الى صياغة مصرية خالصة لا تلبث أن تدخل مع سياق الحياة المصرية تأخذ من ماضيها وتسعى بها ومعها الى مستقبلها .

وموضوع هذا الكتاب يحاول أن يعالج صفحة من تاريخ التربية المصرية فى علاقتها وتفاعلها مع الشخصية المصرية اذ هو يدرس خصائص التربية ، وتأثيرها فى حركة الشخصية القومية خلال حقبة هامة من حقب تاريخنا القومى العام هى حقبة العصر القبطى الممتد من القرن الثانى الميلادى إلى القرن الثامن ممتدا الى العاشر . أما القرن الثانى فقد اخترناه على أساس ان أواخره شهدت توصل العلماء المصريين ، وعلى رأسهم العلامة بنتينوس ، الى وضع الأبجدية القبطية وترجمة كتب الصلوات المكتوبة باليونانية الى القبطية ، وكذا

سير البطاركة والشهداء والمعلمين ، فضلا عن شروح الكتاب المقدس وظقوس الكنيسة وقوانينها : كل هذه أصبحت ، بعد كشف الأبجدية الجديدة ، تكتب باللغة القبطية مما آذن بتحول ثقافى واضح أكد للمصريين شخصيتهم القومية المتميزة ، وثقافتهم المصرية الخالصة ، ولعل قمة هذا التحول تتبين فى كتابات الانبا شنوده ، احد زعماء الرهبنة القبطية التوحدية فى القرن الخامس ، وهى كتابات قومية أكدت على أهمية تنقية صلوات الكنيسة المصرية من كل ما هو يونانى ، كما أنها اشتملت على الكثير من العظات الروحية . اما القرن الثامن فقد اخترناه لان اوائله شهدت تحولا ثقافيا آخر لكنه هذه المرة كان الى اللغة العربية . ولأن التحولات الثقافية تستغرق عادة حقبة زمنية طويلة ، فان هذا التحول الجديد لم يرسخ وجوده الا على القرن العاشر اى بعد نحو قرنين من جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدواوين ، وذلك فيما ظهر من ترجمات لقداس الكنيسة وصلواتها الى اللغة العربية ، ثم فى كتابات بعض أساقفة الكنيسة كالأسقف الأنبا ساويرس بن المقفع فى كتابه المشهور : « تاريخ البطاركة » الذى جمع مادته — كما يقول فى مستهل الكتاب — مما عثر عليه من سير هؤلاء الآباء باللغتين اليونانية والقبطية . وكان صدور هذا الكتاب فى الربع الاخير من القرن العاشر بين ٩٧٥ ، ٩٧٩م .

على أن خصائص هذا العصر لم تقف عند حد العامل اللغوى والتعليمى وانما جمعت الى جانب ذلك وضوح الشخصية المعنوية المصرية فى تلك السلسلة المتتابعة الحلقات من البابوات المصريين الذين تبلورت فى مواقفهم الوطنية حركة الكفاح الوطنى ضد بيزنطه ، وكانت المجامع المسكونية ، فيما بين أول مجمع عقد فى نيقيه سنة ٣٢٥ ، وآخر مجمع حضره بابا الكنيسة المصرية سنة ٤٥١م فى خلقيدونية ، ميدانا ضخما للصراع القومى الذى اتخذ شكلا دينيا بين هؤلاء البابوات وبين الثيؤقراطية البيزنطية . وفى هذه المجامع استطاعت الكنيسة المصرية أن تقدم للعالم المسيحى فلسفة مسيحية قائمة على مذهب الطبيعة الواحدة ، كما قدمت نقطة البدء للايمان المسيحى فى قانون الايمان الذى وضعه القديس أثناسيوس فى نيقيه سنة ٣٢٥م مما حدا بالمؤرخين الى اعتبار نصر الارثوذكسية فى ذلك الوقت نصرا للاسكندرية . كذلك من سمات هذا العصر البارزة فى تاريخ مصر القومى ظهور الرهبنة التى وان كانت تنبع فى صميمها من تعاليم المسيحية ذاتها الا أنها تبلورت واتضحت فى صحارى مصر

حيث وضعت قوانينها الأولى ، ومن مصر انتقلت الرهبانية الى العالم المسيحى ، وظلت الأديرة طوال العصور الوسطى مراكز حفظت لنا معالم الثقافة الانسانية .

بهذه الخصائص والسمات التاريخية تميزت الفترة بين أواخر القرن الثانى الميلادى حتى اوائل القرن الثامن فى التاريخ المصرى ، وهى سمات وخصائص دينية وثقافية ووطنية واجتماعية تختلف اختلافا واضحا ومتميزا عن خصائص العصرين السابق واللاحق لها وهذا ما يجعلنا ننظر إليها كمرحلة تاريخية قائمة بذاتها نسميها العصر القبطى المسيحى .

لكن ماذا عن تاريخ التربية فى هذا العصر ؟ اننا نعرف أن تاريخ التربية المصرية قد حظى باهتمام المصريين والأجانب على السواء حتى غطت دراساتهم فى هذا الفرع ، على ما نعلم ، أغلب عصور التاريخ المصرى ، ففى تاريخ التربية فى الأزمنة القديمة وضع الأستاذ الدكتور عبد العزيز صالح رسالته فى « الآثار والحضارة المصرية القديمة » عن « التربية والتعليم فى مصر القديمة » فى يوليه سنة ١٩٥٦ (١) .

وفى الموضوع ذاته كان الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبوبكر قد ألقى محاضرة نشرتها اللجنة الاجتماعية لأسبوع شباب الجامعات سنة ١٩٥٥ بعنوان « التعليم وأهدافه عند المصريين القدماء » وكانت هذه على ما أعلم أول دراسة باللغة العربية تعالج هذا الموضوع بطريقة مباشرة .

وعن التربية الاسلامية بوجه عام قدم الأستاذ الدكتور أحمد شلبى مؤلفه فى « تاريخ التربية الاسلامية » سنة ١٩٥٢ وهو ترجمة لرسالته التى قدمها بالانجليزية الى جامعة كامبردج وطبعتها جامعة القاهرة مرتين سنة ١٩٥٣ وسنة ١٩٦٠ وقد خصت هذه الرسالة التربية فى مصر بعناية واضحة فدرست التعليم فى الأزهر واعتبرته معهدا أكثر منه مسجدا .

على أن التعليم فى الأزهر ، وفى العصر الفاطمى بوجه عام ، قد حظى بدراسة خاصة قام بها الأستاذ « خطاب عطية على » فى رسالته التى قدمها سنة

---

(١) لم تطبع هذه الرسالة ، وإن كان مؤلفها قد اشترك فى كتابة الجزء الخاص بالتربية فى سلسلة تاريخ الحضارة المصرية (راجع المجلد الأول ج ٣) الذى نشرته مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٦٢ .

١٩٧٤ عن « التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول » وقد حدده بالقرنين العاشر والحادى عشر(بين سنة ٩٦٨م و ١٠٧٢ م) ؛ وبه مقدمة شاملة يؤرخ فيها الباحث للتعليم فى مصر منذ دخول الاسلام فى القرن السابع حتى عهد الدولة الاخشيدية فى القرن العاشر ، ورغم أن موضوع الرسالة عن « التعليم فى العصر الفاطمى » الا أن المؤلف لم يذكر شيئا عن التعليم عند القبط رغم أن العصر الفاطمى يعتبر فى عمومه بالنسبة للقبط عصر ازدهار نسبى لأدبهم ومدارسهم .

أما عن العصرين الأيوبى والمملوكى ـــ وهما العصران اللذان يليان العصر الفاطمى ـــ فلم يظهر فى دراسة التربية فيهما ، على ما أعلم ، سوى كتاب الدكتور عبد اللطيف حمزه « الحركة الفكرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى » الذى صدر فى فبراير سنة ١٩٥٧ وفيه يذكر المؤلف عبارة تسترعى الملاحظة فى ص ٢١٩ ، ٢٢٠ قال : « إن مصر تمتعت باستقلالها نحو سبعة قرون من سنة ٢٥٤ حتى سنة ٩٣٣ هـ ، أى من أواخر القرن التاسع حتى القرن السادس عشر الميلادى ، أو من العهد الطولونى حتى العهد العثمانى ، وهى مسافة كبيرة من الزمن ، ولاشك أنها تدع الفرصة كافية لمصر كى تؤدى دوراً هاماً على مسرح الحياة الاسلامية الجديدة ، وتثبت للعالم الإسلامى أيضاً أنها ذات شخصية عظيمة لا تقل فى عظمتها عن شخصية مصر الفرعونية القديمة . وهنا نلحظ أن المؤلف يذكر مصر الفرعونية ومصر الإسلامية وينسى مصر القبطية رغم أن تأثيرات مصر القبطية ـــ كما سنرى ـــ فى إقامة النظام الديرى ، واشتراكها فى حركة المجامع المسكونية ، بل ومقاومتها السلمية للسلطة البيزنطية عن طريق تخليص الصلوات والألحان الكنسية المصرية من التأثيرات اليونانية لجعلها ذات شخصية قبطية أى مصرية متميزة ؛ هذا إلى جانب حركة مدرسة الاسكندرية فى الدفاع عن نظرية الكنيسة القبطية فى اللاهوت المسيحى ؛ ووضعها قانون الايمان الذى يعتبر نقطة البدء فى الايمان المسيحى ، نقول إذا اعتبرنا هذا كله ، وجدنا أن دور مصر القبطية فى الحضارة والاستقلال لم يقل بحال عن دور مصر الفرعونية أو مصر الإسلامية .

أما تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ، أى منذ القرن ١٩ ، فقد تكفل بكتابته الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم فى مؤلفيه الكبيرين « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » و « تاريخ التعليم منذ نهاية عصر محمد على حتى أوائل عهد

توفيق » ، وفى هذا الجزء الأخير يذكر الأستاذ المؤرخ عن التعليم عند القبط فى ص ٨٣٣ « أنه كانت لهم كتاتيبهم وتشبه فى الغرض الذى من أجله أنشئت كتاتيب المسلمين كما تشبهها درجة ثقافة القائمين عليها » ثم يتحدث عن حركة التنوير واليقظة الكبرى التى قام بها البابا كيرلس الرابع أبو الاصلاح فى أواسط القرن ١٩ ليس للقبط فقط بل وللأمة كلها فيقول : « وكان كيرلس الرابع يقبل بمدرسته — يقصد مدرسة الأقباط الكبرى بالأزبكية — التلاميذ على اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم ويصرف لهم الكتب والأوراق مجانا » ص ٨٣٤ ، بل ان الأستاذ المؤرخ يرى أن هذه المدرسة كانت « مركزا لحفظ القومية المصرية — قومية أهل البلاد — فى أواسط القرن ١٩ ازاء الكلية البروتستانتية التى أنشأها الأميريكان بأسيوط » ص ٨٣٩ .

والمتأمل فى هذه الحركة يجد أنه من الصعب أن تكون قد نبتت فجأة فى القرن ١٨ أو ١٩ ، ولكنها تمتد الى العصر القبطى فى فجر المسيحية حين كانت هذه الكتاتيب ملحقة بالكنائس وبالأديرة ، وما حركة كيرلس الرابع فى القرن ١٩ لحفظ القومية المصرية إلا صورة مكررة لحركة شنودة مؤسس نظام المتوحدين فى القرن الخامس ، وهى الحركة التى استهدفت المحافظة على شخصية مصر وتخليصها من التأثيرات الثقافية واللغوية البيزنطية مما يمكن اعتباره حركة استقلالية تحررية فى ذلك الوقت المبكر . وهذا يؤكد رأينا فى أن التراث التربوى المصرى استمر خلال العصر القبطى ثم تطور وأضاف الى التراث الذى تسلمه عن مصر الفرعونية .

وتكمل دراسة الدكتور عزت عبد الكريم ، الرسالة التى قدمتها الأستاذة زينب محمد فريد فى فبراير سنة ١٩٦٢ بقسم أصول التربية بجامعة عين شمس وموضوعها « تطور تعليم البنت فى مصر فى العصر الحديث » باشراف الأستاذ الدكتور أبو الفتوح رضوان . وقد أشارت الباحثة الى مدارس البنات التى كان للبابا القديس كيرلس الرابع أبى الاصلاح فضل السبق فى انشائها فى عصر سعيد حوالى سنة ١٨٥٨ م ومساهمته بذلك فى انارة الأمة كلها وسلخها عن الظلام الذى كانت تعيش فيه .

على أن فترة العصر القبطى كجزء من تاريخنا رغم أنها أهملت فى الكثير

من المؤلفات والدراسات كما رأينا[1] فإنها لم تعدم أن تجد من يهتم بها أحياناً .

ولعل أول ما لفت الأنظار فى مصر إلى أهمية هذه الفترة تأسيس المتحف القبطى سنة ١٩١٠ بفضل جهود المرحومين مرقس سميكة ، ونخلة الباراتى ، ويسى عبد المسيح ؛ ليضم الآثار القبطية التى تبرز ملامح العصر القبطى وخصائصه من ناحية ، ومدى ارتباطه بالعصر الفرعونى ، والعصر الإسلامى من ناحية أخرى . وقد أصبح المتحف الآن مركزاً علمياً مرموقاً يضم مكتبة نادرة ، ويساهم مع الكثير من الهيئات العلمية فى الخارج فى نشر التراث القبطى ودراسته .

ثم جاء إنشاء جمعية الآثار القبطية سنة ١٩٣٥ وإصدارها لمواد مجلتها باللغات الأربع : العربية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية مما أتاح لها نشر الكثير من الأبحاث الأصلية لعلماء مختصين ، مصريين ، وأجانب ، فى كل ما يتعلق بالعصر القبطى والمؤثرات التى أثرت فيه ، والتأثيرات التى انتقلت منه ، فضلا عن سلسلة تاريخ البطاركة التى أصدرتها بمعاونة الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية والأستاذ يسى عبد المسيح والأستاذ برومستر .

وفى سنة ١٩٤٠ أسست جماعة مارمينا بالإسكندرية لخدمة التاريخ القبطى عن طريق نشر الأبحاث المتصلة به فى سلسلة كتب ، وقد نجحت إلى حد كبير — فى حدود إمكانياتها — فى نشر عدد من الكتب الهامة منها ما يتعلق بمعالم العصر ككتاب الرهبنة القبطية ، واللغة القبطية ، وأديرة وادى النطرون ، وصفحة من تاريخ القبط ؛ وهذا الكتاب الأخير اشتمل على ترجمة عربية لكتاب « موجز تاريخ القبط [2] » للأستاذ وليام ورل بجامعة ميتشجن ؛ ومنها ما يتعلق ببعض أعلام العصر ككتاب مارمرقس الإنجيلى ، وصور من تاريخ القبط .

---

(١) يقول الأستاذ الدكتور حسين فوزى فى كتاب .. سندباد مصرى : « إن تاريخ مصر — فى طريقة كتابته — ما زال شذريا مقطعا لا نرى فى فصوله أكثر من التتابع التاريخى ، فهى فصول لا تكاد تجمعها صلة أشبه بمجموعة قصص لأكثر من مؤلف » . ثم يقول : « والقارىء العام لا يجد بين يديه تاريخا للحقبة المسيحية ، يبسط له أمور العقيدة ، لأن المؤرخ المسلم يتحرج من الدخول فى بعض التفاصيل ، كما يتحرج المؤرخ القبطى من التبسط فيها إذا كان يكتب لمواطنيه جميعا وغالبيتهم من المسلمين ، وبذلك ظلت الحقبة المسيحية فى شبه ظلام تاريخى (راجع ص ١١٦ إلى ص ١١٨)

(٢) William Worrell, Short Account of the Copts, Michigan,1945.

وفى سنة ١٩٥٥ أنشأ المجلس الملى العام بتوجيه واقتراح الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعات لندن وليفربول وبون ، ورئيس قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية سابقاً ، معهد الدراسات القبطية ، وهدفه تجميع الجهود المتناثرة فى دراسة العصر القبطى سواء كان القائمون بها فى مصر أم فى الخارج من مختلف الجنسيات والقوميات والأديان على اعتبار أن هذه الفترة هى إحدى مراحل تاريخنا القومى العام ظهرت خلالها مؤثرات معينة انتقلت إلى بناء الحضارة الإنسانية ذاتها .

أما الجهود الفردية فقد ظهرت فيما أصدره بعض الكتاب من مؤلفات فى التاريخ القبطى . ويمكن تقسيم هذه المؤلفات إلى ثلاث مجموعات : الأولى تشمل المؤلفات التى كتبت فى تاريخ الأقباط فى العصر القبطى ، وبالتحديد فى الستة قرون الأولى ككتاب « تاريخ الكنيسة القبطية فى عصرى الوثنية والمسيحية » للأستاذ سليم سليمان الفيومى ، وقد صدر سنة ١٩١٤ واشترك معه الأستاذ الأرشيدياكون فرنسيس العتر فى كتابه الردود العقائدية على كل ما ورد بالكتاب عن البدع والهرطقات التى ثارت ضد الأرثوذكسية ، ومثله كتاب الأب الراهب القمص يسطس الدويرى الذى صدر سنة ١٩٥٢ تحت عنوان « موجز تاريخ المسيحية » ، ثم مؤلف الأستاذة ايريس حبيب المصرى الذى صدر سنة ١٩٦٢ بعنوان « قصة الكنيسة القبطية » وهو يقف عند نهاية عهد البابا كيرلس الرابع والعشرين سنة ٤٣٥ م . كذلك أصدرت « دار الكرنك » للقمص مرقس داود سنة ١٩٦٠ كتاب تاريخ الكنيسة الذى ترجمه عن يوسابيوس القيصرى ، وهناك أيضاً كتاب « تاريخ الأقباط » للأستاذ زكى شنوده الذى أصدره بمعاونة جمعية التوفيق سنة ١٩٦٢ .

أما المجموعة الثانية فتشمل المؤلفات التى بحثت فى تاريخ الأقباط منذ نشأتهم حتى نهاية القرن التاسع عشر ككتاب الأسقف ايسيذورس « الخريدة النفيسة » الذى صدر سنة ١٨٨٣ ، وكتاب الأستاذ يعقوب نخلة روفيلة « تاريخ الأمة القبطية » الذى صدر سنة ١٨٩٨ وكتاب القس منسى يوحنا « تاريخ الكنيسة القبطية » وقد صدر سنة ١٩٢٤ . أما جهود لجنة التاريخ القبطى سنة

١٩٣٢ (١) فهى جديرة حقا بالتسجيل ، فقد أصدرت حلقتين فى مؤلف بعنوان « تاريخ الأمة القبطية » وهى وإن جاءت مدرسية المظهر إلا أنها قدمت فى تبويبها لمراحل التاريخ القبطى ، والترجمة لشخصياته ، والتسجيل لأبرز حوادثه ، بالإضافة إلى تصوير مواقف الشعب وما قام به من جهود وتضحيات ، صورة صادقة لمصر المسيحية ونموها الشعبى حتى عصر البابا كيرلس الخامس (البابا ١١٢) . ومن أهم مؤلفات هذه اللجنة المؤلف الذى وضعه الأستاذ كامل صالح نخلة سنة ١٩٤٣ فى « تاريخ وجداول بطاركة الاسكندرية القبط وجدول عام جامع يبين أقوال المتقدمين » وفيه دراسة مستفيضة عن كتاب سير البطاركة اشتملت على ترجمات وافية لهؤلاء الكتاب . وإذا ذكرنا الأستاذ كامل صالح نخلة وجهوده فى جمع الكثير من مادة التاريخ القبطى ، وتنظيمها فإننا نذكر مجموعته فى سلسلة تاريخ البطاركة التى أصدرها بالاشتراك مع دير السريان ، وترجمته لحياة مارمرقس الأنجيلى ، ثم جهده الكبير فى تحقيق السنكسار .

كذلك قام الأستاذ اسكندر تادرس سنة ١٩٠٠ بترجمة كتاب « تاريخ الأمة القبطية » لمسز بوتشر الإنجليزية فى أربعة أجزاء .

أما المجموعة الثالثة فتشمل الكتب التى وضعت فى دراسة أحوال القبط فى القرنين ١٩ و ٢٠ بصفة خاصة . وفى مقدمة هذه الكتب الكتاب الذى أصدرته لجنة التاريخ القبطى عن الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر فى أوائل القرن العشرين ، وكتاب « القبط » للأستاذ جرجس فيلوثاؤس عوض ، ثم مؤلف الأستاذ توفيق اسكاروس عن نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن ١٩ ، وكتاب الأستاذ يوسف منقريوس عن تاريخ الأمة القبطية بين ١٨٩٣ ، ١٩١٢ .

وإلى هذه المجموعات الثلاث يمكن إضافة مجموعة المجلات الخاصة بدراسة هذا العصر كمجلة عين شمس التى أصدرها فى أواخر القرن السابق المرحوم أقلاديوس « بك » لبيب صاحب الفضل فى وضع القاموس القبطى ، وقد

---

(١) لعلها فرصة مناسبة أن نذكر بالفضل أعضاء هذه اللجنة وهم السادة : إبراهيم تكلا ، توفيق أسكاروس ، حبيب جرجس ، عزيز سوريال عطية ، فريد كامل ، كامل صالح نخلة ، يوسف نجيب . الترتيب وفقا للحروف الأبجدية .

حققت مواد مجلته ربطاً واضحاً بين الحضارتين المصرية القديمة والقبطية ، وكان لها تأثير كبير فى الحركة الفكرية فى المحيط القبطى .

وفى سنة ١٩٠٧ أصدر المرحوم الأستاذ جرجس فيلوثاؤس عوض « المجلة القبطية » فجاءت بحق موسوعة علمية حوت كل ما يتصل بالعصر القبطى : جغرافيته ، وتاريخية ، لغته ، وآدابه ؛ وهى وإن لم تكن قد صدرت أكثر من ثلاث سنوات إلا أنها كشفت فى أصالة وعمق كزميلتها عين شمس عن الكثير من خصائص العصر القبطى .

هذا عن جهود المصريين ، أما عن جهود الأجانب فإننا نشير إلى مؤلف الأستاذ ورل بجامعة ميتشجن ، ونضيف إليه أن عددا كبيرا من علماء الألمان ، والإنجليز والأميريكان قد اهتموا ، خاصة فى أخريات السنين ، بدراسة أكداس المخطوطات والوثائق والبرديات القبطية التى وصلت إليهم إبان نهضتهم وخرجت من أديرتنا وكنائسنا فى غفلة منا حينا ، أو لجهلنا فى أغلب الأحيان ، ففى مانشستر مثلا يدرسون الفلسفة القبطية ونصوص الفلسفة الفنوسية ، وفى أكسفورد لا زالت دراسات العلامة كرم Crum وتقاليده السامية التى اختطها موضع رعاية خلفائه وتلاميذه . أما فى أميركا ففى ميتشجن تبذل عناية خاصة بدراسة الأقمشة القبطية والبرديات القبطية . أما الأدب والتاريخ القبطى فيدرسان فى بنسلفانيا ؛ هذا إلى جانب جهود الأستاذ Lefort فى بلجيكا ، فضلا عن الكثرة العديدة من الأبحاث التى سجلتها المجلات العلمية بوجه عام ، والتاريخية بوجه خاص .

أما مجموعة Ante and Post Nicene Fathers التى ظهرت بين سنة ١٩٥٣ ، وسنة ١٩٥٧ فى ميتشجن فقد بلغ عددها نحو الثلاثين مجلدا وتبحث فى تاريخ المسيحية العام ، ولكنها تولى آباء الكنيسة ، وأعمالهم الدينية والفكرية أعظم الاهتمام ، وفى مقدمة هؤلاء الآباء ، آباء الاسكندرية الذين كان لهم القدح المعلى فى الدفاع عن المسيحية من ناحية ، وفى إبراز معالم الحضارة القبطية من ناحية أخرى .

وتضاف إلى هذه الجهود الجماعية الجهود الفردية لكثير من الباحثين ، مثل Butler , Hardy , Fowler , Bell , Budge , Neale وغيرهم ممن بحثوا فى تاريخ العصر القبطى بقدر ما وسعتهم المصادر التى أمكنهم الوصول إليها .

هذا كله عن تاريخ العصر القبطى بوجه عام .

أما بالنسبة لتاريخ التربية فى العصر القبطى بوجه خاص فعلى ما أعلم لم يكتب عنه شيء بالتحديد إلا مقال واحد بالانجليزية نشرته مجلة جمعية الآثار القبطية بالعدد التاسع الصادر فى مايو سنة ١٩٤٣ ، بقلم الدكتور جورجى صبحى عنوانه : « التعليم فى مصر فى العصر المسيحى » (١) . وفى سنة ١٩٥٥ وضع الأب القمص مكارى السريانى رسالته التى قدمها إلى جامعة برنستون بالولايات المتحدة وعنوانها « التعليم فى الكنيسة القبطية فى الأزمنة القديمة والمعاصرة » (٢) وواضح من هذا العنوان أنها ليست دراسة لتاريخ التربية القبطية بالمعنى الدقيق بقدر ما هى دراسة لطبيعة هذه التربية والأسس الروحية والعقائدية التى تستند إليها ، فضلا عن أنها تغطى مرحلة التاريخ المصرى كله منذ القرن الأول حتى الوقت الحاضر مما يسمها بالعمومية دون التخصص .

وأما ما كتبه المؤرخون الأجانب فنذكر مؤلف الأستاذ هيورث دن « مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر » (٣) وهو الكتاب الذى نشر بلندن سنة ١٩٣٨ وفيه الكثير عن نظام التعليم عند القبط فى الأزمنة الحديثة ومدارسهم منذ عهد كيرلس الرابع .

والحقيقة ان دراسة تاريخ التربية القبطية يواجه مشكلتين كبيرتين : الأولى قلة المصادر والمراجع فى هذا الموضوع ، والثانية ندرة ماجاء بما عثرنا عليه من مصادر عن التعليم فضلا عن انعدام وجود أى آثار للتعليم من العصر القبطى على عكس العصرين الفرعونى والإسلامى اللذين عثر الأثريون على الكثير من مخلفاتهما التعليمية ، ولعل تفسير ذلك يرتبط بمحنة الاضطهاد التى نزلت بالقبط فى ذلك العصر وجعلتهم حريصين على إخفاء الكثير من مخلفاتهم التعليمية إذ كانوا حريصين جداً على إخفاء أى أثر مكتوب ينم عنهم أو يستخدم ضدهم (٤) ففقدت . ولهذا لم يكن أمامى سوى أن أعتمد على ما خلفه هذا العصر من مؤلفات ومخطوطات وسير وتراجم ثم ما كتب عنه فى عصور

---

(1) Ed. in Egypt during the Christian period and amongst the Copts

(2) Ancient and Contemporary Christian Ed. in the Coptic Church

(3) Heyworth Dunn An Introduction to the Hist . of Ed . in Modern Egypt

(4) C . H . Roberts : Legacy of Ed . Greek Popyri P . 263 , 1 . Bell : Egypt from Alex . p . 40

متأخرة لأستنتج منها خطة التربية . ففى كتاب « تاريخ الايغومانس فيلوثاؤس »[1] يذكر المؤلف فى ص ١٨ ما يلى : تربى القمص فيلوثاؤس إبراهيم كما كان يتربى بنو الأقباط فى ذلك العهد فى المكاتب الاهلية عند معلم كفيف البصر ، فقد كان يناط تعليم أبناء الامة — قبل افتتاح المدارس — بكفيفى البصر الذين كانوا ينقطعون لتعليمهم مبادىء القراءة العربية وحفظ الموضوعات البسيطة والألحان الكنائسية ليتمكنوا من أن يقوموا بخدمة الكنيسة بوظيفة شماس وقارىء ومرتل ، هذا إلى جانب تعليمهم بعض مبادىء الحساب : القواعد الأصلية مع العلامات المعروفة للآن للدلالة على كسور الفدان لإمكان الاشتغال بها فى المحال التجارية أو فى مصالح الحكومة » .

وهذا ما لاحظه الرحالة Robert Curzon ، فقد ذكر فى كتابه : Visits to Monasteries in the Levant الذى صدر فى لندن سنة ١٩٥٥ ص ٩٩ — مع ملاحظة أن رحلته كانت فى فاتحة القرن ١٩ : « أن القبط كانوا يشتغلون بأعمال الصيرفة والحساب والكتابة لبراعتهم فى الحساب ؛ ففى عهد محمد على كان كبيرهم باسيليوس بك هو الوزير المالى لمحمد على » . وهذا ما يكرره E . William Lane فى كتابه Customs and Manners of Modern Egyptians وكذلك Leeder فى كتابه Modern Sons of the Pharoahs الذى صدر سنة ١٩٥١ ؛ وإذن فترجمات القبط فى القرن التاسع عشر تمدنا بالكثير من المعلومات عن خطة التربية القبطية ، وحتى أيامنا هذه لازالت آثار هذه التربية موجودة فى الكتاتيب القبطية الملحقة بالكنائس فى القرى النائية . وقد رأينا أنه فى الوقت الذى كتب فيه الكثير من المؤلفات عن جوانب الحياة الاسلامية الثقافية والتربوية ندر — إلى حد العدم تقريبا — وجود أى تاريخ للتربية القبطية رغم أن الاثنتين معا هما اللتان شكلتا حياة مجتمعنا الحديث فى أوائل القرن العشرين ، وإذا كانت التربية القبطية بمعناها الأصلى قد انكمشت وزال عنها كثير من الشكل الذى عرفت به طوال عصرها بحكم تطور التعليم وإعادة تنظيم مراحله ، فإن الكثير من محتوى هذه التربية لا يزال موجودا ومؤثرا فى حياتنا حتى الان بحكم وجود التراث المسيحى ، وصيغ التقاليد القبطية . ويكفى أن الآلاف من كلمات هذا التراث لاتزال

---

(١) طبع بمطبعة التوفيق سنة ١٩٠٥ .

موضع استخدامنا فى الحياة اليومية . وليس هذا بالامر الغريب فلقد بان للباحثين فى تاريخ التربية القبطية أن انتاج علماء العصر القبطى وفلاسفته لم يقتصر على الدراسات اللاهوتية والعقلية فقط وانما اتجه أيضا الى التربية ومن أصدق الأمثلة على ذلك كتاب « المربى » لاكليمنضس الاسكندرى على أواخر القرن الثانى الميلادى وفيه شرح للنظرية التربوية المسيحية وسنرى أنها نظرية جديدة تميزت بخصائص واتجاهات وأساليب جديدة جدة المسيحية ذاتها .

وعلى ضوء هذه الاتجاهات التى عرضناها أمكن تبويب هذا الكتاب على النحو الأتى :

الفصل الأول : منهج البحث

الفصل الثانى : ويبحث فى تاريخ التربية فى مصر القديمة وليس الغرض منه الاستغراق فى بحث التربية المصرية القديمة وانما تتبع الخطوط العريضة لهذا التراث حتى يمكن رد بعض عناصر التربية القبطية اليه .

الفصل الثالث : فيبحث فى التربية فى العصر اليونانى حين كان التعليم مزدوجا : تعليم أجنبى ، وتعليم للوطنيين . وفى هذا العصر ظهرت المسيحية ووصلت مصر نحو سنة ٥٨ م وانشأت بدورها نوعا جديدا من التعليم هو امتداد للتعليم فى مصر القديمة وانما فى قالب مسيحى .

الفصل الرابع : وياتى بعد ذلك الفصل الرابع فيدرس حدود العصر القبطى وأهم السمات والمميزات التى تميز بها كما يدرس خصائص المجتمع المصرى فى العصر القبطى من النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية وقد قادتنا هذه الدراسة الى الكشف عن اتجاه هام اتبعه القبط فى محاولة تكوين مجتمع خاص بهم متميز عن المجتمع الرومانى الوثنى بما ساد بينهم من مثل وقيم مسيحية تختلف فى جوهرها عن تلك التى سادت المجتمع الرومانى وان لم يحل هذا دون قيامهم بواجباتهم المدنية .

الفصل الخامس : عن عوامل التربية القبطية وهى :
المنزل والكنيسة والمدرسة الاولية كما درسنا التعليم الخاص فى

المدرسة اللاهوتية ، وقد اتضح بوجه عام أن التربية استهدفت فى ذلك العصر إعداد الطفل القبطى لمواجهة الاضطهاد فكانت توجيهات المنزل ومناهج « المدرسة » ، والمثل التى تعلمها الكنيسة تدور كلها حول تحقيق هذا الهدف . وتضمّن هذان الفصلان دراسة لمدى ما حظيت به الفتاة فى العصر القبطى من اهتمام بتعليمها ، واختتمنا الفصل بدراسة لخطة إعداد المعلم فى العصرالقبطى .

الفصل السادس : أما الفصل السادس فقد خصص لدراسة الجانب التربوى فى الحركة الديرية ، وفيه تتبعنا تطور النظم الرهبانية ومدى الاهتمام بالتعليم فيها .

وقد عثرنا على منهج للتعليم فى أديرة الشركة التى أسسها القديس باخوم ، والتى انتقلت الى أديرة أوروبا بواسطة يوحنا كاسيان وجيروم وبلاديوس ، وبنديكت .

بهذا نرجو أن نكون قد عالجنا العناصر الهامة التى يجب أن يشملها هذا الكتاب . كما نرجو أن نكون قد وصلنا الى ربطه ربطا علميا صحيحا بالعصور السابقة واللاحقة له حتى يتحقق بذلك الكشف عن الخط التاريخى الذى ارتبطت به الفكرة التربوية فى مصر على مدى تاريخنا الطويل والتى أدت الى ظهور الشخصية القومية المصرية فى عصر من أدق عصور التاريخ المصرى وأكثرها تأثيراً على العصور التى تلته .

هذا وأنه لمن الضرورى أن نكرر أن معلوماتنا عن هذا العصر لازالت ناقصة وقد حاولنا الرجوع الى مصادر البحث الأولية والثانوية فتبين لنا أنها قليلة وخاصة فى موضوع تاريخ التربية بالذات والمأمول بزيادة الكشوف التاريخية والابحاث التى توضع عن هذا العصر أن تزداد مادته وتنمو ، وتزداد بالتالى معرفتنا به ، والاحاطة بنواحيه كحقبة هامة فى تاريخنا العام تتصل من جانب بمصر القديمة ومن الجانب الاخر بمصر العصور الوسطى .

الفصل الأول

منهج للبحث فى التربية القبطية

منهج للبحث فى التربية القبطية

بداية يلزم توضيح معانى المصطلحات التى سيستخدمها الكاتب .

١ــ **كلمة قبطى** : معربة عن ايجيبتوس Egyptos اليونانية ومعناها مصرى وقد اطلقت على المصريين عامة ثم اقتصر معناها منذ العصور الوسطى وحتى الآن على نصارى مصر اى مسيحيها فأصبحت كلمة قبطى تعنى المصرى المسيحى .

٢ــ **العصر القبطى** : اعتاد بعض المؤرخين أن يدمج الحديث عن العصر القبطى ضمن العصر اليونانى ــ الرومانى من سنة ٦٠م (سنة دخول المسيحية مصر بواسطة القديس مرقس) حتى سنة ٦٤١ م وهى سنة الفتح العربى لمصر وهذه التسمية ــ على اطلاقها ــ خطأ ــ ذلك أنه منذ أواخر القرن الثانى : اكتشف الأقباط الأبجدية القبطية التى أصبحت أداة الكتابة باللغة القبطية ويعتبرها علماء اللغات الصورة الأخيرة لتطور اللغة المصرية القديمة وإلى هذه اللغة ترجم الكتاب المقدس ، كما ترجمت كتابات الآباء المصريين ، وسير القديسين والبطاركة وغيرها مما أصبح ــ مع الوقت ــ تراثا روحيا حضاريا كبيرا . ومن هنا فالباحث يعتبر ان العصر القبطى يبدأ منذ اكتشاف هذه اللغة . وكان هذا الحدث بداية الاستقلال الثقافى عن اللغة اليونانية والثقافة اليونانية الى اللغة والثقافة القومية . وقد ظلت هذه الثقافة القبطية مسيطرة على الحياة المصرية حتى سادت اللغة العربية وأخذت فى الانتشار على أواخر القرن الثامن ممتداً إلى العاشر اذ لا يمكن تحديد تاريخ بعينه لمراحل التحور الثقافى .

٣ ــ **الكنيسة القبطية** : وهذه الكلمة وان قُصد بها فى بعض عناصرها الشعب القبطى ، على أساس أن كلمة كنيسة كلمة ترجع فى أصلها اللغوى الى Ecclessia ومعناها جماعة ، إلا اننا ، باستخدامنا لها فى هذا البحث ، نعنى الآباء البطاركة والأساقفة والكهنة والشمامسة ، اى جماعة الرعاة الذين أوكلت اليهم مسئولية خدمة الشعب وتعليمه ورعايته وحل مشكلاته ثم الدفاع عنه ازاء المضطهدين وافتدائه من الموت احيانا .

مسلمات البحث ومنهجه : ان التصدى لدراسة منهج بحث فى التربية القبطية يتطلب مسبقا :

(أ) التعرف الى القيم والمثل ، اى الفكر الذى استمدت منه هذه التربية أصولها الفلسفية والاجتماعية .

وهو ما يجعلنا نستخدم منهج التحليل المضمون سواء فيما جاء فى الكتاب المقدس ، أو فى قانون الايمان أو فى كتابات آباء الكنيسة ، خاصة الذين كتبوا فى التربية مثل اكليمنضس الاسكندرى (٢٢٠ م) الذى وضع كتاب « المربى » فى ثلاثة أجزاء ، كما عالج موضوع « الزواج فى المسيحية » مشيرا الى أسس بناء الحياة الأسرية ؛ أما دراسته لموضوع « الحث على الاستشهاد » فقد اشتمل على طرق اعداد الكنيسة لأولادها لمواجهة هذه المحنة خلال الاضطهاد الذى شنه الرومان الوثنيون ثم البيزنطيون الملكانيون (نسبة للملك) على الأقباط المؤمنين قرابة ستة قرون .

(ب) الالمام بأحوال مصر خلال هذا العصر ، خاصة من النواحى السياسية والاجتماعية ، والدور القومى والدينى الذى قام به بطاركة الكنيسة المصرية الوطنية ، وفيهم تمثلت شخصية مصر المعنوية . ويلاحظ الباحث أن الكنيسة واجهت اضطهادا مستمرا ، حتى بعد إعلان المسيحية دينا رسميا للدولة الرومانية التى كانت تحتل مصر . ذلك أن المصريين دافعوا عن الايمان المسيحى الأرثوذكسى الذى لم يهضمه اللاهوت الغربى سواء فى روما أو فى بيزنطة بعد انقسام الدولة الرومانية الى غربية وشرقية فكان أن واصلت الدولة البيزنطية اضطهادها للمصريين . وهكذا وان توقف الاضطهاد الوثنى فى أواخر القرن الرابع ، الا أن الاضطهاد المذهبى ظل مستمرا حتى جاء العرب فوجدوا أقباط مصر وقد أنهكت قواهم وانما على شرف الحفاظ ، حتى الموت ، على ديانتهم وقوميتهم وشخصيتهم الوطنية الأصيلة .

وهذا الجانب من البحث يخضع ولا شك للمنهج التاريخى . على ان ثمة منهج ثالث يجب ان يلجأ اليه الباحث فى هذا الموضوع ذلك هو المنهج الوصفى فالعصر القبطى ، باعتباره أحد عصور تاريخنا القومى العام ، ترك طابعه المتميز على الشخصية المصرية ، والحياة المصرية ، خلال مالا يقل عن الألف عام ، ومن هنا يجد الباحث نفسه ملزما ، وهو يدرس التربية المصرية خلال هذا العصر ، والتى بانتسابها اليه تعرف بالتربية القبطية ، أن يتتبع سمات وخصائص الشخصية المصرية ، منذ العصور الفرعونية القديمة حتى انتشار وسيادة الثقافة العربية ، والدين الاسلامى ، فى القرن الثامن ممتدا الى العاشر ، مرورا بالعصر

القبطى المسيحى الذى وإن حددناه ثقافيا ؛ بالقرن الثانى ، فاننا نحدده تاريخيا بدخول المسيحية مصر سنة ٦٠ م .

مناهج البحث فى التربية القبطية :

فى بحثنا اذن للتربية القبطية يمكن أن نستعين بمناهج ثلاث : تحليل المضمون ، والمنهج التاريخى ثم المنهج الوصفى .

أولا : منهج تحليل المضمون : لقد استمدت التربية القبطية عناصرها من الكتاب المقدس ، والتراث المسيحى متمثلا فى قانون الايمان ، والتقاليد والعادات المسيحية ، التى صاغتها الحياة المصرية ، فكرا وطبيعة لتعطيها طابعها المتميز ، ثم من الاتجاهات اللاهوتية والروحية والاجتماعية التى شرحها المفكر المصرى فى عمق . وعندى ان أهم هذه الاتجاهات ، التى تركت طابعها على خطة التربية القبطية ، جمعت بين تعاليم الانجيل ، وتفاسير الآباء ، ظهرت فى ثلاثة موضوعات كبيرة :

الأول : المسيحية وأصل الوجود وهو الذى ترجعه المسيحية الى الله الواحد . فالله فى المسيحية فوق الحقيقة والحكمة والنور ، بل وفوق خلود الحياة ذاتها والوجود فى نظرها صادر عن ارادة الله اذ لا شىء يمكن ان يوجد خارج الله . ويزدحم الكتاب المقدس بالآيات التى تؤكد وحدانية الله « الذى به نحيا ونتحرك ونوجد » ، « وبدونه لا نقدر أن نفعل شيئا » . اما كتابات الآباء فتأتى فى مقدمتها كتابات وأقوال القديس أثناسيوس (٢٠) ـــ البطريرك المصرى العشرون فى تعداد البابوات ـــ « اذا تأملنا فى نظام الكون يجب أن ندرك ان الله صانعه وبارئه حتى وان كان لا يرى بالعين الجسدية ». وهذا ما أجمع عليه رأى آباء الكنيسة المصرية ـــ وهو الرأى الذى يهمنا بالذات ونحن نبحث التربية القبطية « ان انتهاء كل الأشياء الى الله مصدرها الحقيقى » . أما اوريجين ـــ الفيلسوف المصرى ، والذى يعتبر أحد واضعى اسس الفكر المسيحى الاسكندرى ـــ فقد أكد الفكرة المسيحية عن الله بقوله « ان الله ليس محدودا بمكان ، انه قادر على كل شىء ، وهو روح بسيط يملأ الكون ، أزلى ، أبدى » . وعلى ضوء هذا التعليم فان نقطة البدء فى التربية الروحية ـــ فى نظر المربى القبطى ـــ تعريف المؤمن بأبوة الله ، ومحبته ، وعنايته بخليقته ، ثم حثه على أن يبادله هذه المحبة تطبيقاً للوصية القائلة « تحب الرب الهك من كل

قلبك ، ومن كل نفسك ، ومن كل قدرتك ، ومن كل فكرك ؛ وقريبك مثل نفسك » ويتجلى شعور المؤمن بأبوة الله له حين يخاطبه ، كتعليم السيد المسيح عن الصلاة قائلا : « أبانا الذى فى السموات » وكذلك تعليمه عن حالة الارتقاء التى وصل اليها المسيحيون فى قوله « لا أعود اسميكم عبيدا بل أصدقاء » . ولقد فهم المسيحيون — عن طريق التربية فى الكنيسة — محبة الله لهم ، فتعمقوا فى العلاقة معه ، وعرفوا أنه الخير المطلق ، والحكمة المطلقة ، والكمال المطلق ، والعدل المطلق ، فسعوا الى الاستزادة من محبته حتى أصبحت المحبة أساسا ، ليس فقط لعلاقتهم معه ، وانما لعلاقتهم مع المجتمع أيضا ، من أصدقاء وأعداء ، يحبونهم فى الله ، لأن الله محبة . وقد حدد هذا المبدأ سلوك المسيحيين فى مجتمع يضطهدهم وكان أحد أسباب ثباتهم على ايمانهم وبالتالى أحد أهداف تربيتهم لأبنائهم ليكونوا مستعدين لمواجهة محنة الاضطهاد .

الموضوع الثانى : مفهوم الانسان فى نظر المسيحية : ان الانسان فى نظر المسيحية هو قمة الوجود ، وقد خلق على صورة الله ومثاله « فهو اذن العالم الصغير الذى توحدت فيه مظاهر الخليقة الروحية والمادية » خلق حرا قادرا على ادراك الحقيقة ، وقادرا على ادراك خلوده أيضا ، ذلك أنه لم يخلق جسدا فقط وانما وهب نفسا خالدة ترى الله وتستنير به فالنفس جوهر روحى خلودها ثابت ، وسر خلودها أنها نسمة من الله . كذلك تؤمن المسيحية بحرية الانسان : فهو الكائن الحر العاقل المريد ؛ والحرية فى نظر المفكر المسيحى « منحة جزيلة ، شرف الله الانسان بها » . غير ان الانسان أساء استخدام هذه الحرية ، وبالتالى أساء توجيه إرادته فحصر فكره فى الحس ، وابتعد بنفسه عن الصورة الالهية التى جبل عليها وذلك حين ارتكب الخطيئة بمخالفته وصية الله فى الجنة . فكان أن لوث الصورة التى جبل عليها ، وانفصل عن محبة الله . وكان أن دخل فى دور الفناء والهلاك وما كان من الممكن ان يخلصه منهما سوى عمل الهى يفوق الطبيعة ، ذلك ان الطبيعة الانسانية ، بعد انحرافها وسقوطها فى الشر ، أصبحت فى حاجة الى تجديد . ان المسيحية تعتبر أن الخطيئة هى فعل التعدى . انها تأمل الانسان ما لذاته ، ونزعته الى الابتعاد عن التأمل فيما لله . والنتيجة الطبيعية لذلك هى الموت : الروحى والأدبى والمادى ايضا .

وهنا يتساءل القديس أثناسيوس « هل يحتمل الاله الخالق ان يرى الفساد

والشر يسودان البشر ؟ وما الفائدة من خلقهم ؟ . من هنا كان عمل الله فى تجديد الانسان وانقاذه من الموت الأبدى فكان التجسد الالهى فى شكل الانسان ، وكانت عقيدة التجسد فى المسيحية وتستهدف خلاص الانسان من خطيئته ومن سائر أنواع الموت . وقد انفردت المسيحية بعقيدة التجسد وبالمذهب المتفرع منها وهو مذهب خلاص النفس وكان من الطبيعى أن تنعكس هذه العقيدة على التربية فتؤكد للناشئة معنى محبة الله للانسان ، وبالتالى يجب أن يبادله الانسان ، فى مختلف ادوار حياته ، هذه المحبة فيتدرب منذ طفولته على الفضائل المسيحية ليصبح على صورة الله فى البر وقداسة الحق .

الموضوع الثالث : المسيحية والغاية من الحياة : ان الغاية من المسيحية . كما حددها الكتاب المقدس ، تهيئة الانسان للحياة الأبدية . وقد أكد هذا التعليم النموذج والسيرة التى سلكها السيد المسيح كما شهدت بذلك الأناجيل الأربعة ، ثم السير والنماذج التى تركها رسله وتلاميذه والآباء والقديسون من بعده . وفى نظر بعض هؤلاء الآباء ، أن الروح حين تقهر أهواء الجسد ، يمكنها أن ترقى من الايمان الى المعرفة ، معرفة الفضيلة ، وبأعمال المحبة يمكنها ان تصل الى الاتحاد بالله وهذا يتطلب بطبيعة الحال التحرر من معطلات الحس ومغريات المادة . وقد اكد اوريجين ، أحد كبار الفلاسفة المسيحيين ، خلال القرن الثانى ، هذه المعانى فى موضوعه عن الصلاة بقوله « ان الأمور السماوية هى الجديرة باهتمامنا ، انها الأشياء الكبيرة الخالدة التى تصغر دونها الأشياء الأرضية أما هذه الأشياء الأرضية فهى فى الحقيقة ظلال العطايا الروحية ، والصلاة تنير فينا عيون المعرفة التى يمكننا ان نسمو بها عن الانشغال بالأرضيات المحسوسة فنرقى الى المعقولات » . وكان طبيعيا ان يصبح هذا التوجيه أحد أصول التربية القبطية فيما أخذ به السلوك المسيحى بعدا عن زخارف الدنيا ، والعزوف عن ملذاتها مما أكد الشعور بعدم الاكتراث بالموت .

هذه هى الموضوعات الثلاث التى يمكن أن نعتبرها الأصول الفلسفية والروحية والاجتماعية للتربية القبطية . أما المصادر الرئيسية التى يمكننا أن نتتبع فيها هذه الأصول فهى :

١ ـــ الكتاب المقدس بعهديه وخاصة ما جاء بهما متعلقا بسيرة السيد المسيح وتعاليمه .

٢ ــ قانون الايمان المسيحى . الذى تم وضعه مع مقدمته فى ثلاثة مجامع مسكونية ، وبتحليل مضمونه ، وكل عباراته مأخوذة من الكتاب المقدس ، يمكن التعرف الى أسس الايمان المسيحى .

٣ ــ قوانين المجامع المسكونية : وكثيرا ما تكون القوانين فى ذاتها تربية للشعوب اذ تحمل بين موادها اتجاهات السلوك والعلاقات بين أفراد المجتمع .

٤ ــ كتابات آباء الكنيسة من بطاركة ومعلمين وخاصة فى المدرسة الاهوتية التى أنشائها القديس مرقس بالاسكندرية سنة ٦١ م لتكون مركزا لنشر المسيحية وتعليمها . وبدراسة تاريخ هذه المدرسة ، ومناهجها ، وتعاليم عمدائها وأساتذتها ، وطرق التعليم التى اتبعت مع تلاميذها : كبارا وصغارا ؛ يمكننا التعرف الى الكثير من أبعاد الايمان المسيحى كما حددته الكنيسة المصرية وما ارتبط بهذا الايمان من نظريات تربوية .

المسيحية واحترام العقل : بالرغم من الأسس الروحية التى تنادى بها التعاليم المسيحية ، والدعوة الى التهيئة للحياة فيما بعد الموت ، الأنها لم تغفل شأن العقل . ففى المفهوم المسيحى « مخافة الرب رأس المعرفة » . و « كونوا حكماء كالحيات بسطاء كالحمام » . وفى تعليم السيد المسيح « لا تجرب الرب الهك » . أى لا تتجاهل عقلك . بل انه حين شبه ، فى أحد أمثاله ، القلوب بالتربة الزراعية وكلمة الله والوصية بالبذار التى تلقى عليها ، تحدث عن الذين يسمعون هذه الكلمة فتثمر فيهم قائلا « أما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذى يسمع الكلمة ويفهم » . وكان حين يعلم الجموع يقول لهم « اسمعوا منى كلكم وافهموا » . وذلك ليوجههم الى ضرورة التمييز بين المظهر والجوهر . ولقد احترم المفكر القبطى ، والمربى القبطى ، هذا الاتجاه ولا شك أن لاتصال المسيحية بالفلسفات السابقة عليها أثره فى تأكيد هذا الاتجاه للرد على الاعتراضات التى أثارها أصحاب هذه الفلسفات خاصة الأبيقورية والرواقية والغنوصية . ومن أقوال القديس أوغسطينوس ، أن فلاسفة المسيحية فى القرن الخامس « ان العقل يسبق الايمان ، والايمان يسبق العقل وانى اؤمن لكى أتعقل » ، ويقول أيضا « من القضايا ما هو طبيعى قابل للبرهان ، ومنها ما هو فائق للطبيعة يقتصر عمل العقل بصدده على تفسير يحيل الموضوع الى شبه معقول » وهذان النوعان من الموضوعات يكونان فى رأيه الفلسفة المسيحية . وقد أكدت أقوال الكثير من الآباء هذا الاتجاه فالخضوع لما يعلمه

الايمان المسيحى ليس حائلاً دون التماس علة هذا الايمان لأننا « لولا العقل لما استطعنا أن نؤمن » . وكان طبيعيا أن تكون لهذه الفلسفة انطباعاتها على التربية القبطية .

ثانيا : هذا عن منهج تحليل الموضوع ونأتى الى المنهج الثانى فى دراستنا للتربية القبطية وهو :

المنهج التاريخى : من المفيد ونحن بصدد الحديث عن العصر القبطى ، باعتباره احد عصور تاريخنا القومى العام ، أن نستشهد بكلمة للأستاذ حسين فوزى فى كتابه « سندباد مصرى » . عن تقسيم عصور هذا التاريخ « ان تاريخ مصر — فى طريقة كتابته — ما زال شذريا مقطعا لا نرى فى فصوله أكثر من التتابع التاريخى فهى فصول لا تكاد تجمعها صلة . فهى أشبه بمجموعة قصص لأكثر من مؤلف . فالقارىء العام لا يجد بين يديه تاريخا للحقبة المسيحية ، يبسط له أمور العقيدة ، لأن المؤرخ المسلم يتحرج من الدخول فى بعض التفاصيل ، كما يتحرج المؤرخ القبطى من التبسيط فيها اذا كان يكتب لمواطنيه جميعا وغالبيتهم من المسلمين ، وبذلك ظلت الحقبة المسيحية فى شبه ظلام تاريخى » .
ولقد اعتاد بعض المؤرخين ان يدمج الحديث عن العصر القبطى ضمن العصر اليونانى — الرومانى . وغريب أن ينسى هؤلاء أن هذا العصر بالذات كان من أهم خصائصه ظهور الشعب على صفحة التاريخ منذ أن انقضى عصر الحكام الوطنيين . بمعنى أن ظهور البابوات المصريين كان هو البديل لاختفاء هؤلاء الحكام ومن ثم فقد كان تصدى هؤلاء البابوات لقيادة مصر ممثلة فى كنيستها الوطنية بمثابة إحياء لشخصيتها المعنوية وإبرازا لدورها فى التاريخ الحضارى مما كان بحق امتدادا متواصلا لتاريخها القديم . وأرى أن الوقت قد آن لكى نعيد النظر فى تقسيم عصور التاريخ المصرى وبدلا من أن ننسبها للحكام ، فنقول العصر الرومانى ، والعصر اليونانى ننسبها لثقافتنا القومية ، فنقول مصر القبطية وذلك استنادا الى الأسس التاريخية التالية :

١ — اكتشاف الأقباط للأبجدية التى جعلتهم يكتبون أناجيلهم ومؤلفاتهم باللغة القبطية مما أذن بالتحرر من الثقافة اليونانية وغلبة ثقافة شعبية جديدة هى الثقافة المسيحية المصرية التى نسميها الثقافة القبطية نسبة الى اللغة .

٢ — تمسك الشعب المصرى خلال هذا العصر بتقاليده العريقة متمثلة فى العبادة والفن وأساليب الحياة وانما داخل الاطار المسيحى وهو الاطار الذى

تمسك به الشعب دون الحاكم فكان ذلك إيذانا بقيام صراع عنيف بين هذا الحاكم الأجنبى المتسلط بجيوشه وقواته وبين الشعب صاحب البلاد الأصلى وهو أعزل إلا من تراثه الحضارى العريق وديانته الجديدة التى رفعت معنوياته ديد .

٣ ــ ظهور مدرسة الاسكندرية المسيحية التى كانت مركزا لتعليم المسيحية ، ومنطلقا لنشرها والكرازة بها ، بل واعداد باباوات ورعاة الكنيسة ممن توفر فيهم العلم والتقوى معا ، فكان أن أهّلهم ذلك لرئاسة المجامع المسكونية على امتداد قرن ونصف : من سنة ٣٢٥ الى سنة ٤٥١ حين رفضت الكنيسة المصرية ربط السلطة الزمنية بالدين . وبقيت تابعة لبطاركتها متمسكة بالقوانين والمبادىء التى يعلنونها .

٤ ــ وكان ظهور الرهبنة وتطورها الى الديرية خلال هذا العصر سمة أخرى ميزت العصر القبطى عما قبله من العصور وما بعده . ومع الوقت ، منذ أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث فترة بزوغ الرهبنة على يد القديس أنطونيوس ، والدير هو أحد مراكز حفظ التراث الحضارى المصرى بوجه عام ، والتراث المسيحى بوجه خاص . وكان للنظام الديرى الذى وضعه القديس باخوميوس فى القرن الخامس ، أساسه التربوى الذى كان له أكبر التأثير فى تشكيل حياة الرهبان ، الديريين وسلوكهم الروحى والاجتماعى داخل الدير .

ومن واقع الدراسة التاريخية التفصيلية لهذه السمات جميعا ، أمكن الوصول إلى تقسيم علمى للحقب التى يتكون منها العصر القبطى ، وفى كل حقبة كان للدور الكبير الذى قامت به التربية القبطية سواء من خلال المؤسسات الروحية كالدير ، أو التعليمية كمدرسة الاسكندرية وأشباهها من المدارس فى الايبارشيات (أى أقاليم مصر وانما بالاسم الكنسى) ، وأثره فى وحدة الشعب المصرى والتفافه حول بطاركته ، وخروجه من محنة الاضطهاد منتصرا اذ أجبر الرومان على اعتناق المسيحية ، وهو أعزل من أى سلاح مادى .

ونعرض فى عجالة حقب العصر القبطى وهى :

الحقبة الأولى : حقبة اضطهاد الوثنية للمسيحية وتمتد من بداية دخول المسيحية إلى مصر إلى عام ٣١١ م أى عام صدور مرسوم التسامح الدينى وقد تضمن السماح للمسيحية بأن تكون ديانة معترفا بها . ونلاحظ أن الثقافة اليونانية سادت خلال هذه الحقبة .

الحقبة الثانية : مرحلة استقرار المسيحية وسيادة الثقافة القبطية وهى الفترة التى تبلورت خلالها كل السمات السابقة وهى تمتد الى الفتح العربى سنة ٦٤١ م .

أما الحقبة الثالثة : فنحن تضيفها اصطلاحا فقط اذ فيها سادت اللغة العربية لكن آثار العصر القبطى ممثلا فى الحقبتين السابقتين ظلت باقية ، ذلك أنه من المعروف ــ علميا وتاريخيا ــ أن المجتمع لكى يتغير من لغة الى لغة ، وبالتالى من ثقافة الى ثقافة ، يحتاج الى عدة قرون ونحن لذلك نضع هذه الحقبة بين القرن السابع (سنة ٦٤١) حتى نهاية القرن الثامن ممتدا الى العاشر حين بدأ الأقباط انفسهم يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية ومن هذه المؤلفات : تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع ، والقوانين لابن العسال .

ولقد استمر الأقباط ، منذ هذا العصر ، وحتى الآن ، يحفظون قوميتهم المصرية فلم تهمهم حملات الصليبيين خلال العصور الوسطى ، ولا الاحتلال الفرنسى أو الانجليزى ، وكل هذه تمت على أيدى أوربيين مسيحيين مثلهم ، لكنهم لم يروا فيهم الا صورة جديدة للارتباط بين السياسة والدين والاستعمار . فقاوموهم مع مواطنيهم المسلمين وظلت الكنيسة القبطية ، والشعب القبطى على ذات الخط الوطنى الأصيل الذى وقفوه خلال القرون الخمسة الأولى .

وكان طبيعيا أن يصبح هذا الطابع هو مضمون تربيتهم القومية ، سواء لأولادهم ، أو لأولاد الوطن عامة ، خاصة اذا علمنا أن المدرسة القبطية ، منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وبالتحديد منذ عهد البابا كيرلس الرابع . كانت وعاء للنضال الوطنى ضد الارساليات الأجنبية من ناحية ، ثم ضد الاحتلال الانجليزى من ناحية أخرى ، لذلك كانت تقبل أبناء الشعب بلا أية تفرقة بسبب الدين أو العقيدة ، بل وكانت تسخو فى منح المجانية ، وتوزيع الكتب والأدوات المدرسية بلا مقابل تشجيعا للمصريين على التعليم .

ثالثا : يبقى المنهج الثالث فى هذه الدراسة وهو :

المنهج الوصفى : واستخدام هذا المهج يؤكد قيمة تسمية العصر اليونانى الرومانى ، أو العصر البيزنطى ، فى التاريخ المصرى العام ، بالعصر القبطى . ذلك أن هذا المنهج ، فى رأيى ، يقوم على أساس أن الشخصية المصرية ، هى

شخصية واحدة ، وإن بدا أن سماتها قد تغيرت بتباين العصور . والحقيقة أنها لم تتغير واذن فالانتساب الى حاكم أجنبى هو الأمر الخطأ . فما هى هذه السمات المميزة للشخصية المصرية والتى رافقها خلال عصور التاريخ المصرى ؟ لقد تميزت هذه الشخصية بخاصيتين واضحتين لم تتضحا فى الكثير من الشعوب القديمة وتعنى بهما القدرة على الضبط والتحديد ، ثم النزوع الى التكميل .

خصائص الشخصية المصرية :

أما خاصية الضبط والتحديد : فقد ظهرت فى كشف مفاتيح التعبير عن الحياة والفكر بل والمصير أيضا : فالمصريون كانوا أول شعب اكتشف الكتابة ، كما كانوا أول شعب وضع تقويما مضبوطا قائما على أسس فلكية ثابتة . والمتأمل فى هذين الاكتشافين يجد أن الكتابة وما يستتبعها من وضع الأبجدية هى فى حقيقتها عملية ضبط وتنظيم للتفكير والتعبير فى المجتمع الانسانى . أما التقويم فهو عملية ضبط أخرى للحياة على مدى العام كله . وقد انتقل أثره الى ترتيب الفصول وتنظيم كل العمليات المتصلة بالزراعة ، وأدى بالتالى الى تحديد أعياد الكثير من الآلهة التى جعل منها المصريون وسائط ربط محكم بين حياتهم الأرضية ومصيرهم الأبدى .

هذه الشخصية نفسها استمر عطاؤها — على النهج نفسه — فى العصر القبطى ففى أواخر القرن الثانى الميلادى — وعلى عهد البابا ديمتريوس الثانى عشر فى تعداد البابوات — وكانت العقلية المصرية قد هضمت الفكر المسيحى ، وصل المفكر القبطى — أو المسيحى المصرى — الى وضع الأبجدية القبطية وهى عملية ضبط أخرى للغة المصرية القديمة وقد تميزت بالتبسيط .

كذلك فيما يتعلق بالتقويم فكما قدم المفكر المصرى القديم تقويما شاملاً وتقسيماً واضحاً للفصول ، قدم المفكر المصرى فى العصر المسيحى ، حسابا للأعياد المسيحية وخاصة عيد القيامة ، وما يرتبط به من الأعوام ، سابقة ولاحقة ، عرف « بحساب الأبقطى » وزاد على ذلك أن وضع نظاما فريدا للقراءات الانجيلية فى العبادة الكنسية مؤسسا عليها العظات والتعاليم التى تقدمها الكنيسة لشعبها على امتداد العام . لكن ما هو أعظم من هذا كله ما انتهى اليه الفكر المصرى فى شخص القديس أثناسيوس الذى أمكنه صياغة « قانون الايمان » عما أكد أن الاسكندرية هى بالفعل مركز الفكر المسيحى خاصة

اذا أضفنا الى ذلك أنها كانت سباقة فى وضع النظام الرعوى من البطريرك كأعلى رتبة كهنوتية الى الشماس وهى أصغر رتبة ، مما ضمن للكنيسة نظامها الادارى وهو الصورة الأخرى للدقة التى تميزت بها من الناحية الروحية .

فاذا أتينا الى الخاصية الثانية للشخصية المصرية ، والتى تميزت بها على امتداد عصورها ، نجدها فى التكميل . فالمصرى القديم وصل الى فكرة التوحيد على عهد اخناتون ، كما سبق أن وصل إلى فكرة البعث والخلود والحساب بعد الموت . وهكذا لم ينته المصريون بمطافهم الفكرى الدينى عند حدود حياتهم الأرضية بل انطلقوا الى بقية الصور يكملونها فى حياة أخرى اعتبروها الحلقة الثانية لدورة الحياة الانسانية وبذلك اكتملت هذه الدورة بين الحياة على الأرض والحياة مع أوزيريس فى السماء . والمتأمل لفكرة البعث يلحظ أنها كانت أقوى حافز لضبط السلوك الانسانى ، بل وتربية الانسان المصرى على أسس الفضيلة ليحظى بالحياة فى جنات أوزيريس . وكان هذا الفكر هو الحافز وراء النهضة التى حققتها مصر والحضارة العظيمة التى وصلت اليها .

الخط الفكرى نفسه نجده فى العصر القبطى : ففكرة السمو عن زيف الحياة الدنيا فى هذا العصر ، واحتمال الموت فى سبيل الايمان ، للوصول الى الحياة الأبدية : كانت هى الفكرة التى عاشها المصرى المسيحى . بل اننا نجد فى نزعة النسك والرهبنة استكمالا آخر للحياة الانسانية ، وهى بعد على الأرض ، فيما تحاوله من تعميق الفضيلة الشخصية ، من ناحية ، وافتداء الكنيسة كلها من ناحية أخرى .

هذه السمات ذاتها نجدها فى مصر العربية ، بعد مجىء الاسلام اليها سنة ٦٤١ م ، فالمتصوفة الاسلاميون فى مصر ومحاولات الوصول الى المذاهب الاسلامية المحددة لاطار العقيدة ذاتها ، هذه كلها ترتبط بحقيقة الفكر المصرى وطبيعته المنظمة . يقول الأستاذ أمين الخولى : « ان الشخصية المصرية الدينية قد هيأت لمصر المشاركة فى الأديان الكبرى بمعرفتها ولقائها وتقبلها فى أناة ويقظة وتمكينها من الحياة فى بيئتها الاعتقادية ثم الوقوف الى جانبها بعد التمثيل الصحيح لها وقوف المستشهد العميق الايمان .

وهذه السمات : القدرة على الضبط ، والتحديد ، والتكميل ، لا تزال من خصائص الشخصية المصرية ، والعقل المصرى ، الذى أصبح رائدا للفكر والعلم فى أنحاء كثيرة ، شرقا وغربا ، يطل منه الذكاء الطبيعى ، ويتحرك فى

اطار تراث عريق كان له السبق فى عطاء متواصل للانسانية لم يقتصر على مجرد إعطاء المعرفة بل وإعطاء أدواتها ووسائلها ، المادية منها والتربوية على السواء .

ولئن بقيت كلمة ختامية فهى أننا نستطيع ، أن نضيف الى هذه المناهج الثلاثة منهجا آخر هو « دراسة الحالة » فان دراسة سير الآباء والقديسين والقديسات ، بل وأعضاء الأسرة القبطية ، وفئات الشعب المختلفة ، فى العصر القبطى ، كفيلة بأن تمدنا بالكثير من الأدلة والمعلومات عن المسار التربوى فى العصر القبطى وعن أثر كل من التراث المصرى القديم ، والايديولوجية المسيحية ، فى حفظ الشخصية المصرية واستمرار الحضارة المصرية .

الفصل الثانى

ماقبل العصر القبطى

التراث التربوى لمصر القديمة ومصر البطلمية

دوافع التعليم فى مصر القديمة :

كان للبيئة المصرية اثر كبير فى تحديد دوافع التعليم من الناحيتين الاجتماعية والدينية .

فمن الناحية الاجتماعية كان تعلم الكتابة يكفل لصاحبه مركزا اجتماعيا مرموقا . ومن التعاليم التى دأب الآباء والمعلمون على اسدائها لأولادهم وتلاميذهم « اعمل على ان تكون كاتبا ينعم بذلك وتصبح كفك لينة » . ومنها ايضا « اعمل على ان تكون كاتبا فذلك سوف يعفيك من الضرائب ويصونك من كل عمل يدوى وبذلك لا تكون خاضعا لرؤساء عديدين » . ولقد كانت حكومة مصر المنظمة فى حاجة الى موظفين متعلمين للقيام على خدمتها ولذلك ارتبطت الوظيفة بشرط تعلم الكتابة التى كانت تعفى صاحبها من أعمال السخرة وتصل به إلى وظائف الكتاب والقضاة والمهندسين ورؤساء بيوت الزراعة وأمناء القصر وحكام الاقاليم والأطباء والكهنة ، وبتطور الدولة المصرية فى عهد الدولة الحديثة تطورت هذه الوظائف وازدادت . ونعرف أن مصر كانت أول أمة على الارض عرفت الكتابة وجعلت لها أبجدية خاصة ، وقد نقلها عنها الفينيقيون واستخدموها لكتابة لغتهم ، وعنهم اقتبسها اليونان والرومان . وقد اخترعت مصر الحبر كما استخدمت أوراق البردى فسهلت بها تدوين آثار الانسان العقلية . ولما كان البردى مرتفع الثمن نسبيا ومن الصعب الحصول عليه كان يحتفظ به للاغراض الهامة أما الأعمال اليومية فكانت تستخدم شظايا الحجر الجيرى وهى التى كان يتمرن عليها التلاميذ فى المدارس حيث كان لا يسمح باستخدام البردى سوى للمتقدمين من الطلاب .

وكان الخط الهيروغليفى يستخدم فى الكتابات الدينية مثل كتاب الموتى وغيره من الكتب المقدسة ، وكذا فى نقوش حوائط المعابد والمقابر والتماثيل والاثار . أما فى اغراض الحياة اليومية وأعمال الحكومة فقد استخدم المصريون كتابة اقل تعقيدا عرفت بالكتابة الهيراطيقية ثم اختصرت هذه الكتابة وبسّطت فيما عرف باسم الكتابة الديموطيقية أى — المستخدمة فى المعاملات الشعبية وكانت اللغة القبطية التى ظهرت بعد ذلك فى أواخر القرن الثانى الميلادى هى الصورة الأخيرة للكتابة المصرية القديمة .

أما من الناحية الدينية فليس من العسير استنتاج اهمية الدور الذى كانت تسهم به الكتابة والنقوش الدينية فى تحقيق السعادة فى الحياة الاخرى « مما

ساعد على تكوين طاقة من المتعلمين ممن كانوا يعملون كهنة فى المعابد » . ويرى بعض الباحثين انه ما من شعب قديم آثر التعلم ، والكتابة باكبار وتمجيد كما فعل المصريون القدماء : وليس أدل على ذلك من أنهم جعلوا لها ربة (goddess) هى سشات الآلهة الكاتبة ، كما توجوها بزهرة مورقة أو بنجمة ذات خمس أو سبع شعب ، كما جعلوا للكتاب رائدا سماويا هو تحوت اله العلم والمعرفة — وكان هذا الإله هو إله القمر الذى يقدر الوقت ويحدد السنين والشهور .

لكن رغم هذين الدافعين ، وما ارتبط بهما من نتائج ، كان عدد المتعلمين قليلا فلم يكن تعلم الكتابة سهلا ميسورا ، كما كان يستلزم جهدا عقليا ، وماليا . وإن كان من الواضح أنه لم يكن ثمة مانع بين أبناء طبقة ما وبين التعليم فقد كان المعول فى تحديد ذلك على امكانيات الاسرة ومطالب المعيشة وبحكم طبيعة المجتمع الزراعى كان الآباء فى حاجة الى أبنائهم فيكتفون بتزويدهم بدراسة أولية تزيد من كفاءتهم فى إدارة الأعمال الزراعية ، أو العمل فى الادارات الحكومية المحلية ، فاذا توفر للأب أبناء كثيرون فربما كان من حظ احدهم ان يتابع دراسته العليا فى الحاضرة . وكان هذا فى حد ذاته أحد اسباب تعطيل الغالبية عن التعليم : فان بعد مركز التعليم عن صميم الريف صعّب على الكثيرين الالتحاق بالمدارس . هذا بالاضافة الى أن قطاعا كبيرا من الآباء لم يجد غضاضة فى تعليم أبنائه عن طريق الممارسة دون ان يشعر بالمهانة التى صورها بعض الكتاب أو المعلمين أو الآباء .

ويمكن أن نضيف دافعا ثالثا لم يتوفر الا للقلة النادرة ونعنى به طلب العلم لذات العلم . وكان مجاله قصور الملوك والأمراء ، أو دور الحياة التى اعتبرت اكاديميات علمية الحقت بها المكتبات للبحث والدراسة . وانحصرت أمكنتها فى العواصم الكبرى هليوبوليس ، ومنف ، وأدفو ، وطيبة وما على شاكلتها .

والى جانب الدوافع السابقة نجد ان الحاجة الى التعلم نشأت فى مصر تبعا لبحث المصريين عن الحلول لمشكلاتهم التى تتصل بحرفة الزراعة . فمن خلال الحاجة الى عمليات الإحصاء ، والتقسيم ، والتسجيل سواء بالنسبة للأرض ومحصولاتها أو ضرائبها أو المرتبات العينية للمشرفين عليها ، لم يكن من سبيل لتنظيمها وضبطها سوى تعلم الكتابة . أما مشكلة الفيضان فكثيرا ما كان ينتج عنها اغراق الاراضى وضياع معالمها ، مما يتطلب اعادة تحديدها فكان أن

ظهرت حاجتهم الى تعلم الحساب والهندسة والفلك . وهكذا فى بناء السدود ، وحفر الترع ، واقامة المقابر والمعابد تعلموا الميكانيكا والمعمار والفنون المختلفة . ومن خلال أبحاثهم الطويلة المضنية للعثور على حلول مشكلاتهم توصل المصريون الى كشف قدر كبير من اسرار الطبيعة والحياة مما يمكن اعتباره بحق كشفاً لمادة العلم ذاتها التى ما لبثت ان انتظمت فى شكل مناهج يدرسها النشء المصرى فى المدارس .

مراحل التعليم فى مصر القديمة

أثبتت الابحاث التاريخية الحديثة التى قامت على أساس تحقيق الآثار والمتون والوثائق المختلفة عن عصور التاريخ المصرى القديم أن المراحل التعليمية فى مصر القديمة يمكن أن تقسم على النحو الآتى :

(١) المرحلة الاولى

(٢) المرحلة فوق الاولى ويمكن أن نسميها المرحلة المتقدمة . ومن الوثائق التى عثر عليها الأثريون أستدل على أن مدارس هذه المرحلة كانت مدارس خاصة ، وكانت على نوعين :

الاول — مدارس الكتاب وتعتبر امتداد لمدرسة المرحلة الاولى . ولذلك أدمجت مناهجها مع مناهج هذه المرحلة .

والنوع الثانى — مدارس الادارات الحكومية : وهى تناظر مدرسة الكتاب فكان يلتحق بها التلاميذ الذين انتهوا من المرحلة الاولى أو الذين لم يتمموا دراستهم فى مدرسة الكتاب .

(٣) مرحلة التخصص أو الدراسات العليا وكان مكانها فى دور الحياة ومعابد المدن .

ونتناول كل نوع بشىء من التفصيل فى ضوء المعلومات التى وصلتنا وانما نذكر ملاحظة هامة أن مناهج هذه المدارس جميعا كانت قابلة للتطوير على مدى عصور التاريخ المصرى القديم . فمناهج التعليم فى عصر الدولة الحديثة وبالذات فى عصر الامبراطورية التى تبدأ بالاسرة ١٨ نحو سنة ١٥٨٠ ق . م تزيد ولا شك عنها فى عصر الدولة الوسطى وعصر الدولة القديمة ، وان بقيت بينها عناصر مشتركة كانت تدرس فى مختلف العصور ، وسنحاول بيان

معالم هذه العناصر ، بوجه عام لان هدفنا من هذا الفصل ليس بحث خطة التربية فى مصر القديمة بالتفصيل ، وانما كشف معالمها العامة لتحقيق نقط الالتقاء بينها وبين التربية القبطية فمما لا شك فيه أن المصريين فى العصر القبطى واصلوا نقل تراثهم الحضارى وخاصة أساسيات المعرفة كالقراءة والكتابة والحساب ، خاصة اذا سلمنا بالرأى القائل ان تقدم العلوم عند قدماء المصريين ارتبط — الى حد كبير — بالمشاكل التى كانت تقابلهم ، وان المعرفة التى وصلوا اليها انما كانت الاداة التى تغلبوا بها على هذه المشاكل .

المرحلة الاولى : مدرستها ، ومناهجها

كانت مدارس هذه المرحلة شبيهة الى حد كبير بمدارس ريفنا المصرى فى القرن الماضى (الكتاتيب) وكانت ملحقة بالمعابد فى المراكز الحضارية مما جعلها بعيدة عن صميم الريف وكان كلما ازداد العمران فى اقليم من الاقاليم نشأت الحاجة الى قيام المدرسة كما حدث بمدينة طيبة حين استدعت ظروف البناء والتعمير فى عصر الدولة الحديثة [١] وخاصة فى عصر الرعامسة حين انتقل اليها عدد كبير من الكهنة والفنانين والكتبة والموظفين والضباط والاطباء وهم من الفئات التى توجه أبنائها الى التعليم فكان لابد من انشاء المدارس لتعليمهم وفعلا أنشئت المدرسة والحقت بمعبد الرمسيوم . وقياسا على هذا المثال يمكن القول بأن تعليما مماثلا أقيم فى غير طيبة من العواصم والمراكز الحضارية الاخرى .

لكن هذا لم يمنع أن توجد مدارس هذه المرحلة احيانا حيث وجد المعلمون القادرون على تدريس الاطفال الاساسيات الاولى للمعرفة ، فقد عثر على مجموعات من المخلفات التعليمية وسط المنازل ، ونوع الخط فيها يؤكد انها للمرحلة الاولى وقد تكون صفة التعليم فى هذه المرحلة اما جمعية أى يتواجد عدد من التلاميذ معا ويقوم المعلم بتدريسهم واما فردية وهذه تتم فى المنازل ، او فى المدارس الخاصة ، مما يرجح ان التعليم فى هذه المرحلة كان بوجه عام مكلفا وحقيقة انه لم يكن ثمة مانع بين طبقة ما وبين التعليم الا أن ما كان يحدد ارسال الآباء لابنائهم الى المدرسة هو « امكانيات الاسرة ومطالب

(١) بين سنة ١٥١٠ ق . م ، سنة ١١٠٠ق . م ، وتبدأ بالأسرة ١٨ — الأسرة ٢٢ .

المعيشة » كذلك لم يكن ثمة فارق بين الاهتمام بتعليم الولد وتعليم البنت ، فالمدرسة مفتوحة للجميع . ولان مدارس هذه المرحلة كانت فى عمومها — ملحقة بالمعابد كان طبيعياً أن يكون معلموها من الكهنة وكانوا فى عصور مصر القديمة والوسطى والحديثة أى حتى عصر البطالمة هم الطبقة المثقفة ، والصفوة المتعلمة .

وكانت مدة الدراسة بهذه المرحلة أربع سنوات . فقد جاء فى أحد الوثائق أن « بال خنو » فى سياق حديثه قال عن طفولته « بعد أن تخرجت من قاعة الكتاب حيث كنت تلميذاً صغيراً بمعبد ربة السماء الآلهة توت تعلمت لاصبح كاهناً وقد استمرت تلمذتى الاولى اربع سنوات » ، فى خلال هذه المدة كان الطفل يتلقى مبادىء القراءة والكتابة والحساب وبعض المعلومات العامة والمختارات الأدبية والدينية على هيئة محفوظات الى جانب الاناشيد . والرياضة البدنية . وكانت هذه الاخيرة توزع على المناهج وفقاً لمراحل نمو التلاميذ . ويمكن اعتبار هذه المرحلة وحدة تعليمية قائمة بذاتها فقد كان من الممكن ، بعد أن ينتهى الصبى من مناهجها ، أن يصبح أحد الكتبة الصغار فى الحكومة أو فى دور احد الأغنياء . لكن بتطور نمو الدولة فى عصر الأمبراطورية ازداد النشاط التعليمى ، وانفسحت ميادين التحصيل امام المتعلمين فما كشفت عنه آثار المخلفات التعليمية الوافرة التى امكن تلمس الاثر التعليمى بها فكان لابد من الالتحاق بمدارس الادارات الحكومية لمن أراد العمل بالحكومة .

أما الأطفال الذين لم تمكنهم ظروفهم من التعلم وهم الغالبية فكانوا يشاركون آباءهم فى حرفة الزراعة يتعلمونها عنهم بالممارسة والتدريب العملى ، ليعيشوا بعد ذلك الحياة التي درج عليها أباؤهم وأجدادهم .

وسنرى الوضع يستمر على هذا الحال حتى العصر القبطى الذى ربما جدت عليه ميزة اخرى هى انشاء الكنائس بقرى الريف والحاق المدارس بها جريا على نظام الحاقها بالمعابد فى مصر القديمة ، مما أتاح الفرصة لعدد أكبر من الاطفال للتعلم . والواقع اننا نرجح هذا الرأى فان المسيحية هى فى صميمها دين تبشيرى ، ولكى ينتشر كان لابد من انشاء الكنائس ، وتعليم الناس وهنا تم الربط — عن طريق التربية — بين التراث المصرى القديم وتراث الدين المسيحى الجديد : فالى جانب ماكانوا يتعلمونه عن حقائق المسيحية ومبادئها وتعاليمها ، كانوا يتعلمون ايضا اساسيات المعرفة والحساب والمعلومات العامة .

ثانياً : المرحلة فوق الاولى أو المرحلة المتقدمة

وكانت على نوعين : أ ـــ مدارس الكتاب ب ـــ مدارس الادارات الحكومية

الاول : مدارس الكتاب :

ويرجع المؤرخون فى وجودها إلى تعاليم حكيم من حكماء عصر الدولة الوسطى ويدعى « خيتى بن دواوف » وجهها الى ابنه بيبى ، وهو فى طريقه جنوباً الى مقر الملك أى الى طيبة ـــ ليلتحق هناك « بمدرسة الكتاب » ومن هذه التعاليم قوله « راع انه ما من شيء يعلو على الكتب ، وبودى أن اجعلك تحب الكتب اكثر من امك وأن اجلو محاسنها امامك » . « ان يوما بالمدرسة هو النافع لك ، وأن علومها لتخلد الى الابد خلود الجبال » . فهو هنا يحببه فى الدرس والدراسة والكتب ولكي يحفزه الى تقدير مستوى المتعلم قال له « لاحظ انه ما من مهنة تخلو من مهمين عدا الكاتب فهو بذاته المهيمن ، فاذا عرفت الكتابة كانت هى الانفع لك »[1]

ولكن خيتى لايكتفى بنصح ابنه فيما يتصل بالدراسة والمستقبل فقط ، ولكنه يوجه اليه النصح فيما ينبغى أن يكون عليه سلوكه خارج المدرسة مع نفسه ومع غيره من الناس فيقول له « اذا ما خرجت من المدرسة بعد أن يعلن لك انتصاف النهار ، واخذت تروح وتعدو فى الطرقات مهللا فأنصحك أن تتجنب الدهماء ، وكن أمينا فى نقل الأحاديث واستمع دائما الى أقوال الكبار واتخذ لك اصدقاء من ابناء جيلك » .

ومن هذه الوثيقة التاريخية نرى أننا أمام مدرسة مدنية ، فهى موجودة بدار الملك أى بطيبة ـــ والمعلمون فيها ليسوا من رجال الدين ، ونصائح الأب لابنه منصبة على ضرورة اهتمامه بدروسه واتباعه مبادىء الخلق القويم . ومن وثائق اخرى ـــ عن هذا النوع من المدارس ـــ يتضح أن المدرسة كانت خاصة ، فهذه احدى الوثائق تقول على لسان أب ينصح ابنه « لقد ألحقتك بالمدرسة مع ابناء الكبراء لتعليمك وتوجيهك فكن يقظا فى مكانك . ساو ملابسك واعتن بتعليمك . احضر برديتك دائما واقرأ الرسالة بحماس واذا حسبت فاحسب صامتا . تفهم طرائق معلمك واسمع توجيهاته فالمدرسة هنا لابناء

---

(١) عبد العزيز صالح ـــ المرجعغ نفسه ـــ ص ١٦٥

الكبراء ، مما كان يستدعى الكثير من النفقات ، لكن هذا لم يمنع افراد الطبقة الوسطى من الحاق ابنائهم بها ، فتقدير المجتمع فى مصر للفرد قام ، فى مختلف عصورها القديمة ، على اساس انه « يعمل بساعده ويتحدث بفمه » قبل تقديره بعراقة الأصل ونبل المحتد وواضح أيضا أن تلاميذ هذه المدرسة يستخدمون البردى وهذا دليل امكانياتهم المادية وأنهم يعرفون القراءة ويتلقون آداب الرسائل الى جانب الرياضيات . أى أن مناهج هذه المرحلة كانت امتدادا للمرحلة الاولى السابقة لها فاذا قدرنا أن الطفل ينتهى من الدراسة الاولية فى سن العاشرة الى الثانية عشرة كان معنى ذلك أن مدرسة الكتاب تضمه فيما حول مرحلة المراهقة ، فهما اذن مرحلتان شبيهتان — الى حد كبير — بمرحلة التعليم الاساسى فى تعليمنا المعاصر ولذلك فسندمج الحديث على مناهجها معا .

مناهج الدراسة فى المرحلة الاولى وفى مدارس الكتّاب

اشتملت هذه المناهج على :

١ — **منهاج اللغة** وكان يشمل دروس الخط والهجاء وقواعد اللغة والاداب القديمة من شعر ونثر . وفى المرحلة الأولى كانت تبدا بفقرات بسيطة يتبعها فى مدرسة الكتاب بدراسة النصوص كاملة وعن طريقها كان يتعلم الهجاء دون الالتزام بتفهم معانيها التى يكلف بها تلميذ المرحلة المتقدمة . ومن المخلفات التعليمية القديمة التى عثر عليها الأثريون نرى أن المدرس كان يستخدم المداد الاحمر فى تصويب الخطأ : سواء الخطأ فى الخط أو الخطأ فى الهجاء .

وكان تعليم القراءة والكتابة يتم بتعليم نطق حروف الهجاء وشكلها وترتيبها ثم يمرن التلاميذ على تكوين مقاطع كلمات مختلفة مع مراعاة المهارة فى الكتابة والدقة فى النطق . وكانت المادة التى يستخدمها المعلم فى تعليم تلاميذه مستمدة من خبرة التلاميذ وما يحيط بهم من مظاهر الحياة المعروفة لديهم .

أما فى المرحلة المتقدمة فقد ربط منهاج اللغة بين التراث الادبى والاسس الخلقية لآداب السلوك بالاضافة الى الأناشيد المستمدة من طبيعة البيئة المصرية كنشيد النيل وأناشيد النصر فضلا عن تكليف التلميذ بحفظ الكثير من الشعر ودراسة القصص والتمثيليات التى حملت طابع الادب الدينى المصرى العريق .

٢ — **منهاج الرياضيات** : من الكراسات التى عثر عليها الأثريون ثبت أن

تعليم المسائل الرياضية كان يبدأ بعمليات الحساب البسيطة من جمع وطرح وضرب وقسمة يليه تعليم الكسور وقد وجد أن هذه الكراسات تحوى مسائل على المكاييل وتحويلها الى مضاعفاتها وكذلك المساحات المختلفة ومن استقرائنا لانتاج العقل المصرى فى مجالات الهندسة و المعمار والبناء نرجح أن الرياضيات المصرية لابد أن تميزت بتنمية القدرات الرياضية الخاصة ، وقدرة الذكاء العامة . ويشهد جورج سارتون فى كتابه « تاريخ العلم » « أنه من السذاجة أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد اليونان فان الجهود العلمية فى مصر قد سبقت نظيرتها هناك وما العلم اليونانى سوى احياء وليس اختراعا أو ابتكارا » .

بل أن بعض الباحثين يرى أن المعلم المصرى فى تلك العهود القديمة قد اشتهر بطرقه المشوقة فى تقريب الرياضيات لاذهان الاطفال ، وذلك بربطها باشياء محسوسة ، وبالالعاب المختلفة التى من شأنها أن تحبب الأطفال فى المواد الرياضية مما جعل افلاطون يثنى عليها وزاد بأن أهاب بالمعلمين الاغريق أن يحذوا حذو زملائهم — أو قل آساتذتهم — المصريين فى استخدام هذه الطرق .

وكان طبيعيا أن يؤدى تقدم المصريين فى تعليم العلوم الرياضية الى الوصول الى نتائج ونظريات مذهلة فى دراسة الحجوم والزوايا والارتفاعات العمودية والمساحات مماجاء ثمرة طبيعية لدراسة الحساب والهندسة والميكانيكا وحساب المثلثات والجبر وعلم المساحات الذى تمكنوا به من تعيين السطوح المستوية الى جانب عملهم بتحديد زوايا الارتفاع والانحدار مما بانت نتائجه الفائقة الوصف فى بناء الاهرامات .

وسنرى أن الاهتمام بدراسة العلوم الرياضية سينتقل مع التراث المصرى القديم الى العصر القبطى ليظل جزءا هاما من مناهج التربية القبطية حتى وصل الى الكتاب فى القرن التاسع عشر . ويعطينا منهج الكتاب فى القرن التاسع عشر صورة لمناهج التعليم فى العصر القبطى : اللغة ، قراءة وكتابة ، ومناهج الدين وحفظ نصوص الانجيل ودراسة الالحان وطقوس الكنيسة ثم الحساب والرياضيات التى كان تدريسها ضرورة وظيفية تحتمها طبيعة الحياة الزراعية فى مصر .

منهاج المعلومات العامة : وتشمل منهج المعلومات الجغرافية والمعلومات التاريخية .

منهج المعلومات الجغرافية : وكانت تحوى : اسماء الظواهر الكونية ، والطبيعية الواضحة فى الارض والسماء واسماء مدن القطر ، وتعدد انواع المحاصيل والمنتجات ، والحيوانات والطيور والاسماك وأسماء بعض الأقطار الخارجية ومنتجاتها وأوصاف جماعات هذه الاقطار وحيواناتها . وقد اتبع المعلمون فى تدريس الجغرافيا الكثير من قواعد التدريس المعروفة لنا الآن من حيث الانتقال من السهل الى الصعب ، ومن الاجمال الى التفصيل أى من الكل الى الجزء . وكانوا يعتمدون على أسماء المدن فى تدريس المعلومات الجغرافية على أساس أن لكل مدينة خصائص مميزة وكذلك فى تدريس الحاصلات والطبيعة المصرية راعوا مطالب الحياة القديمة ، وتصوروا بلادهم « كوحدة جغرافية متميزة لها شخصيتها من حيث التجانس بين اهلها فى الخصائص الجنسية واللغوية والتقاليد » وهى حقيقة ادركها المثقفون والحكام حين اصروا على توحيد البلاد . والى جانب ذلك كان تدريس جغرافية الاقطار الاخرى والشعوب المجاورة كالنوبة ، وسوريا ، أمرا طبيعيا ونتيجة معروفة لقيام الامبراطورية المصرية .

اما التاريخ : فقد اشتمل على دراسة اسماء الملوك ، وقد اضيفت اليها فى عصر الدولة الحديثة حروب مصر ضد الهكسوس ، وقصائد انتصارات الملوك عليهم مما يكشف عن الربط بين الادب والتاريخ . والمصريون شعب يتعلق بماضيه التليد ويعمل على الربط بين كل عصر والعصر الذى سبقه ويدل على ذلك احتفاظ رواة المصريين حتى عهد هيرودوت وعهد تيودور ومن تلاهما باحداث ترجع الى عهد مينا بما بين العهدين من فارق زمنى يصل الى آلاف السنين .

وبالاضافة الى ذلك اهتمت المدرسة المصرية **بمنهج المعلومات الدينية** : وهو مرتبط ولا شك بتقدير المصريين للدين فكان التلاميذ يدرسون قصائد الآلهة ، ويحفظونها كعقائد : كقصائد آمون ، وتحوت ، هذا الى جانب الموضوعات الانشائية التى تمس العواصم الدينية كطيبة ومنف وأسماء آلهتها ، والمتون الدينية والسحرية ، ثم تقويم أيام السعد والنحس مثل أول أمشير الذى رفعت فيه السماء .

والمناهج — فى هاتين المرحلتين — كما هو واضح — الى جانب اهتمامها اولا بتعليم اساسيات المعرفة ، من قراءة ، وكتابة ، وحساب — تعتبر أقرب

الى الثقافة المتنوعة منها الى المعلومات المحددة ، على أن ما تجب ملاحظته ان الاهتمام بالتربية الخلقية ، وتوجيه السلوك ، كان عاملا مشتركا فى مختلف المراحل ، وكانت المدرسة بهذا الاهتمام تكمل دور المنزل وتدعمه وقد ذكرت المتون التعليمية القديمة أنه كان يسجل فى تقويم التلميذ انه قد تعلم فى مدرسة ... وانه كان مؤدبا فطنا وقضى بالمدرسة .... سنة .

النوع الثانى : مدارس الادارات الحكومية

كان استقرار الحكم واستتباب النظام فى يد سلطة قوية فى مصر منذ اقدم العصور عاملا هاما كفل للحكومة « قدرة واسعة على استيعاب المتعلمين صغارهم وكبارهم « خاصة وانها اهتمت بتسجيل كل صغيرة وكبيرة من شئون البلاد » . فلما جاء عصر الامبراطورية فى القرن ١٦ ق . م ، ازدادت الحاجة الى الموظفين والكتاب للنشاط الكبير الذى استلزمه اعداد الجيش ، وما يستتبع ذلك من عمليات القيد والمراسلات والمؤن والأسلحة ، فضلا عن احتياجات الحكم فى البلاد التابعة لمصر ، الى جانب ما يتطلبه نمو عدد السكان عادة من ازدياد مسئولية الحكومة فى الضرائب وشئون الزراعة والتعليم والتقاضى والتعمير والاحصاء والتسجيل .

لذلك قامت مدارس الادارات الحكومية نتيجة طبيعية لهذه الظروف جميعا . وقد سبق أن ذكرنا أن تعلم الكتابة ، والانتهاء من مناهج المرحلة الأولى ، كان فى حد ذاته كافيا لأن يتولى الصبى وظيفة كاتب صغير ، ولكن تعلم الكتابة ــ وحدها ــ مع الوقت ــ أصبح غير كاف .

فكان لابد من فهم مقتضيات الوظيفة الجديدة ، والتدرب على ممارسة التزاماتها . وكان يلتحق بهذه المدارس الطلاب الذين انتهوا من دراستهم الابتدائية ، أو بعض الذين عجزوا عن متابعة دراستهم فى المرحلة المتقدمة . وربما التحق بها بعض كبار السن ممن تلقوا تعليما خاصا ، فحفزهم هذا التعليم الى شغل وظيفة حكومية خاصة وان مجال الترقى كان منفسحا أمام الجميع ، دون تمييز بين طبقة واخرى ، ولذلك لا يستبعد أن يكون من بين طلاب هذه المدارس ايضا من كان موظفا وأراد أن يصل الى مركز ارقى ، فهو يدرس ، ويعمل فى الوقت ذاته ليستعين بمرتبه على مواجهة الحياة ومتابعة التعليم .

وقد اتفقت مناهج هذه المدارس وطبيعة الادارة التى سيلتحق بها الطالب ، غير ان وظائف العمل بالقصور الملكية تطلبت الاستزادة من المعلومات عن المناصب والالقاب ، وآداب وتقاليد القصور . والغاية من هذا النوع من المدارس بالذات اعداد الموظفين الاكفاء المخلصين لصاحب العرش ، اذ كانت المسئوليات التى يتولونها عقب انتهائهم من دراستهم ـــ وظائف قيادية خطيرة : كتولى حكم الاقطار الخارجية او الجنوبية « الصعيد والنوبة » ، او تولى مناصب الجيش ، وكتابة الوثائق الملكية . ورغم أنهم كانوا يعينون لوظائف القصور الا ان هذا لم يحل دون أى طبقة وهذا النوع من الدراسة فمنهم من كانوا ابناء كتبة ، أو ابناء كهنة ، أو ابناء قضاة .

أما مدرسو هذه المدارس فكانوا من الموظفين الأكفاء المدربين فى الادارات المالية ، وادارة الجيش والمعابد وغيرها .

بقى نوع اخير من المدارس المهنية هو « المدارس العسكرية » ولم تكن العسكرية تورث كالمهن الأخرى كالتطبيب والكهنوت مثلا ، وانما كان يلتحق المجندون ـــ وهم عادة فى سن العشرين ـــ كما ذكرت بعض المتون ـــ بجماعة الناشئين (يسمى أفرادها « نفرو » أى الناضجين أو الصالحين للجندية) . وكانت أولى تدريباتهم تنظم السير ، ثم التدريب على العدو ، والمصارعة ، والتسلق ، والرماية والمبارزة فضلا عن استخدام البحر والنيل والتمرن على نقل العتاد والجنود عن طريقهما . ولقد ازدحمت مناظر الحياة المصرية ـــ خاصة فى عهد الدولة الحديثة ـــ بصور هذه التداريب كلها .

بذلك نكون قد استعرضنا خطة التعليم فى المرحلتين الأولى والمتقدمة وفى مدارس الادارات الحكومية والمدارس العسكرية . وننتقل الآن الى دراسة مرحلة التخصص والتى نسميها فى عصرنا الحاضر اصطلاح التعليم العالى .

ـــ مرحلة تعليم الخاصة ـــ

كانت المعابد ـــ وخاصة فى المدن الكبرى كهليوبوليس ومنف وطيبه وادفو وغيرها ـــ مراكز للتعليم على اختلاف أنواعه . فاذا اعتبرنا التخصص أحد مراحل التعليم ، وهو الذى نطلق عليهع فى وقتنا الحاضر اصطلاح التعليم العالى ، فان مدارس هذا النوع من التعليم كانت بدورها ملحقة بالمعابد وكانت

تسمى « دور الحياة » . وقد رأى بعض الباحثين فى هذه الدور نوعا من الأكاديميات أو المعاهد العليا ، ومنهم من رأى أنها كانت « مجمع العلماء واللاهوتيين والفنانين » .

على أننا لم نجد فيما توافر لدينا من المراجع ، رغم استفاضتها فى الحديث عن مظاهر الحضارة المصرية القديمة ، خطة واضحة تكشف لنا عن أنه وجدت مناهج نظامية محددة للتعليم المتخصص أو كما نسميه فى هذا البحث التعليم الخاص . ذلك أننا نستبعد وجود التخصص بمعناه الدقيق المعروف لدينا فى الوقت الحاضر ، وتحت كلمة كاهن وفى دار الحياة الملحقة بالمعبد ، نجد سائر أنواع المعرفة . ويقول ارمان فى هذا المعنى « ان جميع فنون الحكمة والكتابة المصرية اتصلت اتصالا وثيقا بالدين وممثليه الكهنة » . فتكامل المعرفة كان السمة التى ميزت دراسة العلماء الذين ضمتهم دور الحياة . لكننا مع ذلك ، يمكننا أن نلمح نوعا من التخصص فى دراسة اعداد الأطباء. ، أما بقية العلوم كالرياضيات والهندسة والفنون المختلفة فيرى بعض المؤرخين انه « من المشكوك فيه أن تكون فى عصر الدولة الحديثة قد زادت تعمقا عما كانت عليه فى عصر الدولة القديمة ، ففى قوائم اراضى معبد ادفو — فى عهد الرعامسة — استخدمت نفس النظريات الهندسية البسيطة المشابهة لها فى الدولة القديمة » مما نرجح معه أنه لم تكن لهذه العلوم دراسات نظرية أكاديمية بالمعنى المفهوم ، بل أن اتجاهها كان عمليا ، وقت الحاجة ، فلم يتجه الدارسون الى استقصاء اصولها النظرية ، ولا الى تطوير نظرياتها ، وانما وقفوا عند حد الاستفادة من أولياتها فى الناحية العملية . ويؤكد هذا ما يذكره كثيرون من المؤرخين من أن « نواحى النشاط العقلى لم تتعد النطاق الذى تفرضه عليه منفعتها فى الحياة العملية » فاهتمام المصريين بالعلم كان بصفة عامة « لفائدته العملية فقط فيما عدا الطب » (١)

واذن فنستطيع ، على ضوء هذا الاتجاه ، أن نرى لونين من التعليم الخاص : الاول هو التعليم الخاص باعداد الكهنة ، وهو الأساس الذى قامت عليه الدراسات الأخرى ، والثانى هو التعليم الخاص باعداد الاطباء الذى وضح فيه

---

(1) Breasted (J . H .) Op . Cit . p.92

وراجع أيضا T . Eric Peet - The Rhind Mathematical Papyrus - p. 41

التخصص كما أنه كان مجالا متسعا للزيادة والاضافة على عكس العلوم والفنون الاخرى ــ وخاصة الرياضيات ــ التى ظل محتواها كما كان عليه منذ عهد الدولة القديمة .

أولا ــ التعليم الخاص لاعداد الكهنة لوظائفهم الدينية

كان الكهنوت فى مصر القديمة وراثياً ، لكن أبناء الكهنة الذين كانوا يعدون لهذه الوظيفة كانوا يدرسون ، إلى جانب الكتابة ، والقراءة ، والرياضيات التى كان يدرسها نظراؤهم من التلاميذ ، مواد اخرى . كانوا يدرسون طقوس خدمة الآلهة وعبادتها ، وكيف تخلد اسماؤها ، وكيف تبنى معابدها وتقدم قرابينها ويحتفل بأعيادها « وكذلك كانوا » يتبينون العلامات الالهية فى الحيوانات المقدسة ، ويؤلفون اناشيد التعبد للملوك المؤلهين ، ويكتبون نسخاً منها لتوزيعها على مختلف المعابد .

وكان طبيعيا الا يستخدموا الا الكتابة الهيروغليفية ــ او الكتابة المقدسة ــ حتى حين بعد العهد بين المصريين واستخدامها فى العصور المتأخرة ، إزداد تمسك كتاب دور الحياة بها فنسبت إليهم وعرفت بانها « كتابة دار الحياة » وفى هذا دلالة اهتمام هذه الدور بالهيروغليفية درسا وتدريسا فخصت لها بعض القاب مثل « رئيس أسرار الكلمات المقدسة »

وكانت دراسة الفلك من أهم ميادين تخصص الكهنة فى مصر القديمة ، وكان اكتشافهم لفكرة التقويم دليلا على « دراسة متطورة سابقة طويلة المدى »[1] مما يدل على طول باعهم فى الفلك والعلم . فقد اكتشفوا دورة « نجم الشعرى اليمانية » ، وحددوا الفترة بين ظهوره بالتوالى بـ ٣٦٥ يوما قسموها إلى ١٢ قسما يضم كل منها ٣٠ يوما ثم اضافوا خمسة أيام زائدة لتتم دورة الفصول عند نقطة ابتداء التقويم ، وأضافوا يوما كل اربع سنوات ، وبهذا التحديد انتظم الحساب الخاص بفصول السنة الزراعية الثلاثة : الفيضان ، والبذر ، والحصاد . وقد نشأ عن هذا الاكتشاف الهام اكتشاف آخر لايقل عنه اهمية وهو اكتشاف المزاول والساعات المائية لحساب الزمن .

كانت هذه الاكتشافات فى الواقع من أهم ما تميزت به الحضارة المصرية دون سواها . وكان الفضل الاول فى تحقيقها إلى كهنة عين شمس بالذات مما

---

(١) إرمان : مصر ــ والحياة المصرية القديمة ــ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ــ القاهرة ــ ص ٣٧٦ .

اسبغ عليهم القابا متميزة توضح صلتهم بالشمس والفلك فكبير كهنتهم هو « كبير الرائين » وهو « رائى هليوبوليس الاكبر » ويكفى أن « امحوتب » الذى أله المصريون كان من كهنة هذه المدينة العريقة .

وكانت تلحق بالمعابد الكبرى مكتبات خاصة تضم الكثير من المؤلفات الهامة ، والحوليات الخاصة بسير الآلهة وتمجيدها ، وكتب العبادة والفنون مما نرجح معه اشتراك الكهنة فى تأليف الكثير منها ، ويؤيد هذا الرأى ماذكره بعض المؤرخين من أن بعض الكهنة وضع مجموعة من الكتب اسماها « تعاليم لتفتيح الذهن وتهذيب الجاهل » ليدرسها الصبية فى المدارس . ونرجح أيضا انهم كانوا يكتبون سير الملوك ، وأناشيد الالهة ، فضلا عن الكتب الخاصة بالكتابة المقدسة ، والنقوش والزخارف المتصلة بالمعابد . فكأنهم اذن قاموا بدور هام فى خدمة الثقافة والعلم والفن والدين كناسخين ومؤلفين بل ومعلمين ايضا فقد كان يختار منهم معلمو أبناء الملوك ، وقد اطلق على بعضهم « رئيس معلمى آمون » ، « ومعلم الانشاء الملكى » .

ولذلك كانت دور الحياة بكهنتها ومكتباتها ، مركزا دراسيا كبيرا يستزيد فيه الدارسون من العلم ، بل أن بعض الفراعنة كثيرا ما كانوا يترددون عليها للاطلاع على سير الالهة وحولياتها كما فعل رمسيس الرابع حين زار « دار الحياة للاله تحوت بالاشمونين وكذلك الفرعون نفر حوتب ــ من ملوك الاسرة ١٣ ــ الذى ذكر عنه انه كان شغوفا بأن يرى كتابات اله هليوبوليس العتيقة ويبحث فيها فقالت له معيته فلتتفضل جلالتك الى دور الكتب لتطلع على الاقوال المقدسة جميعا [1] .

واتساع افق الدراسات التى كان يقوم بها الكهنة ، كما هو واضح مما سبق ، يرجح انهم كانوا يقضون فى تحصيلها مدة طويلة ، ومدة اخرى فى التلمذة على الكهنة الأساتذة ، فى نظام لعله يقترب من نظام التلمذة على المعلمين الشيوخ فى الأديرة وفى الأزهر ، خلال العصور الوسطى . ولم يرد فى المراجع شىء عن هذه التلمذة ، وانما جاء بأحد النصوص « ان باكنخنسو ، وهو ابن احد كهنة آمون ، قد التحق بالمدرسة فى سن الخامسة لينتهج بعد ذلك سلك

---

(١) د . عبد العزيز صالح ــ التربية والتعليم فى مصر القديمة ــ ص ٢٣٧

ويبدو أن دار الحياة كانت أيضا كدار للمحفوظات حيث كانت اسماء الاطفال تسجل بها بعد تسميتهم . (المرجع نفسه ص ٦٣)

الكهنوت » ، وما نتوقعه ، انه كان يتلقى ولا شك دروس القراءة ، والكتابة ، والرياضيات والاناشيد والمعلومات العامة ، أى المعارف الأولية الخاصة بأدوات المعرفة ، ثم يبدأ فى نحو الثانية أو الثالثة عشرة الدراسة الخاصة بوظيفته المستقبلة .

وكان عليه ان « يجتاز امتحانا لاختبار مدى تمكنه مما درس » ، أى انه بعد ان يدرس المواد الخاصة باعداد الكهنة : الكتابة الهيروغليفية او كتابة الآلهة وحولياتها ، وطقوس العبادة ، والاناشيد الدينية المختلفة ، كان يجتاز امتحانا خاصا بهذه المواد ، فاذا نجح « خلع عنه ملابسه ، واستحم ، وحلق رأسه ، وبعد أن يضع بعض العطور يرتدى الملابس الكهنوتية الخاصة لتبدأ خدمته للآلهة » (١)

ثانيا ـــ دراسات التخصص فى الطب

يقول المؤرخ بريستد « وجه المصريون اهتمامهم إلى العلم لفائدته العملية ، ولذلك لم تتقدم معارفهم الا فيما يتعلق باعمالهم ومعيشتهم اليومية ، ففى الفلك مثلا لم يهتموا الا بوضع التقويم لكنهم لم يجدوا قيمة أو جدوى فى تتبع أصل النجوم ، وكذلك فى بقية العلوم فيما عدا الطب الذى جاءت دراسته غزيرة المعلومات والنظريات التى تشير إلى دقة فى الملاحظة وعمق فى الاستنتاج . ولقد استدل المؤرخون على طول باع المصريين فى الدراسات الطبية من البرديات الطبية العديدة التى عثروا عليها ، وفى مقدمتها :(٢)

ا ـــ **بردية كاهون** : التى اكتشفها سير فلندرز بترى قرب الفيوم سنة ١٨٩٣ . ويرجع تاريخها إلى نحو سنة ١٨٥٠ ق . م ـــ أى فى الدولة الوسطى على عهد امنمحيت الثالث . وتضم نحو ١٧ تشخيصا لامراض النساء .

ب ـــ **بردية ادوين سميث** : وقد اعتبرها بريستد أقدم كتاب للجراحة فى العالم ، ويرجح أنها نسخة من مؤلف أصلى يرجع تاريخه إلى نحو سنة ٣٠٠٠ ق . م . وان كانت قد اعيدت كتابتها نحو ١٥٥٠ ق . م . وقد عثر عليها فى الاقصر سنة ١٨٦٢ وهى مكونة من ١٧ عمودا ، أو ٣٢ سطرا تشتمل

---

(1) P. Montet : La Vie Quotidienne EN Egypte. p. 273

(٢) راجع نجيب رياض : الطب المصرى القديم . القاهرة . دار الكرنك ، وراجع أيضا : لويس رويتر : الطب والتحنيط فى عهد الفراعنة . تعريب أنطون ذكرى . القاهرة ١٩٢٦ .

على نحو ٤٨ تشخيصا كلها ـــ فيما عدا ثلاث حالات عن الجروح . ومن العجيب ان هذه التشخيصات رغم قدمها ـــ لكنها تصف الكثير من الجراحات ، فى نظام ودقة بالغين وتقسم الجراحة تبعا لتقسيم الجسم فتبدأ بالرأس ، ثم الانف والوجه والاذن والرقبة ثم الترقوة والصدر والكتف والعمود الفقرى . ومكانها الآن الجمعية التاريخية بنيويورك .

ج ـــ **بردية ايبرز** : ويرجح أنها ترجع الى اوائل الاسرة ١٨ ، وقد اكتشفت بالاقصر سنة ١٨٧٣ ، وقد كتبت الأوصاف الطبية بها فى نحو ١١٠ عمودا ، وتشتمل على الادوية التى يجب استخدامها فى علاج الكثير من الأمراض ، ومقادير هذه الأدوية . ومن الأمراض التى ذكرتها أمراض المعدة ، وحركة القلب والشرايين ، وأمراض العيون ، والجلد ، والأطراف ، وأمراض النساء ، فهى أطول البرديات ، كما أنها وجدت على حالة جيدة مما سهل على العلماء دراستها وتحقيقها . وهى موجودة الآن بجامعة ليبزج .

د ـــ **بردية برلين الطبية** : اكتشفت بمدينة منفيس قرب سقارة . وهى تتكون من ثلاثة اجزاء : يرجع تاريخ الاول والثالث منها الى سنة ١٢٧٥ ق . م . اى من عهد الاسرة التاسعة عشر . وهى محفوظة الآن بالقسم المصرى بمتحف برلين .

ولاشك أن هذا الاهتمام باعداد الاطباء ، وتضييق حدود اختيارهم ، وقصره على طبقة خاصة ، كان عاملا اساسيا فى نمو الدراسات الطبية منذ عهد الدولة القديمة ـــ اى نحو ٣٠٠٠ ق . م حتى عصر الدولة الحديثة ـــ اى نحو القرن الثالث عشر ق . م . ـــ وكان من نتيجة ذلك وضوح التخصص فى نواحى العلاج المختلفة فقد شهد هيرودوت « إن التطبيب فى مصر كان مقسماً إلى فروع فكل طبيب مختص بداء واحد فبعضهم مختص بعلاج العيون ، والاخر بالاسنان ، وثالث بالامعاء وهكذا » .

وقد استلزمت دراسة الطب تشريح الجسم ، فكان المصريون هم أول من فعل ذلك . وارتبط التشريح بالتحنيط ، وكان التحنيط فى بادىء الامر ظاهرة دينية لكن كان لها فى نفس الوقت جانبها العلمى ، فقد ارتبطت بدراسة اعضاء الجسم المختلفة : مواضعها ووظائفها وطرق علاجها . والى جانب ذلك عرف المصريون علم الكيمياء لارتباط التفاعلات الكيميائية المختلفة بدراسة مواد التحنيط ، واستتبع ذلك كشف اسرار الكثير من المواد النباتية لعمل العقاقير

وتركيب الأدوية (١) ويرجح أن اول عهد المصريين بالتحنيط يرجع فيما بين الأسرة الثالثة والخامسة .

لذلك لم يكن من المستغرب أن يعترف هيرودوت بأن أطباء هليوبوليس هم « أحكام أهل الأرض » وأن الأطباء المصريين كانوا يختارون أحياناً لعلاج الملوك الاجانب ، حتى أن دارا الاول ملك الفرس بعد توليه الحكم — فى القرن السادس ق . م — أمر باعادة بناء مدرسة الطب بمدينة سايس مما يدل على سمعتها وشهرتها قبل ذلك الوقت . والواقع أن الطب المصرى ظل محافظا على جوهره إلى العصر البطلمى ، ثم أخذ فى التطور السريع نتيجة للدراسات والابحاث التى اجريت بجامعة الاسكندرية فى القرن الثالث ق . م . ونلاحظ أن القبط حافظوا على هذا التراث وتابعوا الاضافة اليه ، كما سنرى ، فقد عثر على بردية لطبيب قبطى فى القرن العاشر الميلادى بنواحى جرجا ، وبدراستها اتضح أنها استمرار طبيعى لممارسة الطب — فى عهد مصر القديمة (٢) كما سنرى فيما بعد .

وكان الأطباء المصريون يسجلون علومهم الطبية فى ادراج بردية استخدمها خلفاؤهم وأضافوا إليها ، بل واخضعوها للتجربة مما أدى إلى زيادة خبراتهم واتساع معلوماتهم . ولذلك تلاحظ على هوامشها تفسيرات وتعليقات كثيرة مما يدل على أنها كانت متداولة . ولعل من أوضح الادلة على تطور الطب المصرى القديم ما عثر عليه العلماء من الآلات الجراحية العديدة ، خاصة بمقابر طبية ، وتبين ان تاريخها يرجع إلى عصر الدولة الحديثة أى نحو القرن ١٦ ق . م . وكذلك توصلهم إلى « اكتشاف مادة التخدير وهى مركب من مسحوق الرخام المصرى ممزوجا بالخل ليوضع على الجرح فلا يشعر المريض بألم لا من البتر ولا من الكى » . والواقع ان علو كعب المصريين فى الدراسات والعلوم الطبية أصبح لايحتاج إلى دليل ، ومن الخطأ أن تنسب أبوة الطب الى أبقراط الذى ثبت تاريخيا انه استخدم الكثير من البرديات الطبية المصرية ويكفى أن كلمة Pharmacology أو علم دراسة الادوية ترجع إلى كلمة مصرية

---

(١) د. ج. شحاته قنواتى : تاريخ الصيدلة والعقاقير — القاهرة — دار المعارف سنة ١٩٥٩ ص ٣٢ — ٦٤ ، وقد ذكر المؤلف الكثير من المواد الطبية والنباتية ، وأنواع الأمراض المستخدمة فى علاجها .

(٢) Emile Chassinat: Un Papyrus Medical Copte Pubic et Traduit- Le Caire. 1921. p. 8.

قديمة هى :Phar - Ma - Ki وترجمتها « الذى يعطى الأمان أو الشفاء » وقد ألحقت العيادات بالمعابد ، بل أن بعض المؤرخين يرى أن الطابق الثالث لمعبد الدير البحرى استخدم كمصحة ، ونال شهرة طبية شفائية حتى « أصبح مقصد المرضى والمقعدين للاستشفاء والعلاج » . وفى بعض الروايات أن المصريين فى عصر الدولة القديمة « انشأوا مستشفى فى منف على اسم امحوتب ابن بتاح اله الخلق » .

وبذلك نكون قد انتهينا من دراسة التعليم العالى أو مرحلة التخصص فى مصر القديمة ، ومنها يتضح أن دراسات الكهنة ، والفلك ، والطب احتلت جانبا كبيرا من اهتمام المصريين ، وأنها كانت تتطلب توفر شروط خاصة ، وكان مركزها دار الحياة الملحقة بالمعابد ، والتى اشتملت على مكتبات خاصة كانت ولا شك وسيلة هامة للاستزادة من الابحاث ، وحفظ الكثير من المؤلفات البردية الثمينة .

ومن هذه الدراسة كلها عن التراث التربوى لمصر القديمة نخلص إلى أن التعليم فى مصر القديمة ، وإن اتجه إلى الثقافة المتنوعة ، إلا أن ثمة مراحل تعليمية كانت موجودة فعلا ويمكن تميزها ، واستخدمت فيها ما يشبه المناهج المقررة التى تتدرج مع الطفل من السهل إلى الصعب .

وفى ضوء ما ذكرناه يمكننا أن نرى نظاماً للتعليم فى مصر القديمة على مرحلتين : المرحلة العامة ، ومرحلة التعليم الخاص . فالمرحلة العامة ونسميها المرحلة الاولى مكانها المدرسة الملحقة بالمعبد وامتدادها المرحلة المتقدمة ومكانها بعض عواصم الاقاليم ، أما مرحلة التخصص فمكانها دور الحياة ، والمراكز الثقافية ، والعلمية بالمدن التاريخية الكبرى التى ذكرنا لها أمثلة كثيرة . هذا إلى جانب التعليم المهنى ، وكان يتم عن طريق الممارسة ، ثم التعليم الخاص بالوظائف ومكانه مدارس الادارات الحكومية .

ولا شك أن معالم هذا النظام — بوجه عام — وان انكمشت تحت تأثير عصور الاضمحلال ، والغزو الاجنبى ، خاصة بعد الأسرة ٢٦ التى تمثل آخر اسرة مصرية مستقلة حكمت مصر فى القرن السادس قبل الميلاد ، الا ان آثار هذه المعالم ظلت باقية حتى جاء البطالسة فى القرن الرابع ق . م . فعملوا على نشر الثقافة الاغريقية وأقاموا مدارسهم بالاسكندرية وغيرها من العواصم مثل بتولمايس بالصعيد التى أقاموا بها مجتمعاتهم الخاصة بهم وبمواطنيهم من

الاغريق والمصريين المتأغرقين . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى ازدواج التعليم : فتعليم للاجنبى يتمثل فيما اصطنعه البطالمة من مدارس ومؤسسات اغريقية ، واخر للوطنى يتمثل فى مدرسة المعبد وفى غيرها من المدارس الوطنية التى بقيت معقلا للثقافة القومية . وهذا هو موضوع دراستنا فى الفصل التالى .

انما يهمنا أن نشير إلى أن مصر القبطية تسلمت عن مصر القديمة تراثا تربوياً وفيرا : فاحترام المرأة ، والاهتمام بالطفل وجدا صدى كبيرا فى العصر القبطى لان المسيحية أتت بدعوة مماثلة . لكن التعليم فى مصر القديمة كان على نحو يكاد يكون خاصا . فالمدارس ، حتى فى المرحلة الاولى ، كانت فى الحواضر ، مما جعلها بعيدة عن صميم الريف ، وجعل الالتحاق بها مكلفا مما دعا بعض المؤرخين الى القول بان « الغالبية العظمى من المصريين لم تقبل على التعليم حتى فى أزهى عصور حكامها الوطنيين [1] » وكانت التربية والتعليم معقودين على الأغلب للكهنة مما جعل العلم فى مكانة الاحترام والتقدير دائما ، وقد انتقلت هذه الخاصية — خاصية احترام رجل الدين — إلى مصر القبطية خاصة وان الكنيسة هى التى تولت القيام على شئون التربية .

ومن هنا نرى أن معالم كثيرة انتقلت من مصر القديمة إلى مصر القبطية مما كان له أكبر الاثر فى الابقاء على الطابع المصرى فيما خلفته مصر من تراث علمى وتربوى .

---

(١) د . ابراهيم نصحى — تاريخ مصر فى عصر البطالسة — القاهرة مكتبة النهضة ١٩٤٦ ج ٢ ص ٧٦٤ .

الفصل الثالث

التربية في مصر فى عهد البطالمة ثم في العهد اليوناني الروماني من سنة ٣٢٣ ق.م إلى سنة ٢٨٤م

التربية فى مصر فى عهد البطالمة ثم فى العهد اليونانى الرومانى من سنة ٣٢٣ ق . م إلى سنة ٢٨٤ م

يعرف هذا العصر بعصر سيادة الثقافة الاغريقية ويبدأ بدخول البطالمة مصر سنة ٣٢٣ ق . م وينتهى سنة ٢٨٤ م أى نحو أواخر القرن الثالث الميلادى ، وبدء عصر الشهداء تبعا للتقويم القبطى .

وقد اخترنا نهاية القرن الثالث بالذات لأنها الفترة التى أخذت تزدهر فيها اللغة القبطية ، وتحل تدريجيا محل اللغة الاغريقية التى كانت لها السيادة منذ آلت مصر إلى حكم أسرة البطالمة بعد موت الاسكندر سنة ٣٢٣ ق . م ولأننا نتخذ من التقسيم الثقافى أساسا للدراسة ، فقد كان من الطبيعى أن نرى فى هذه الفترة : بين سنة ٣٢٣ ق . م ، سنة ٢٨٤ م مرحلة قائمة بذاتها تميزت بأن اللغة الاغريقية فيها كانت هى لغة الدولة الرسمية ، ولغة الصلاة والتأليف ولغة التفاهم بين الطبقات الراقية من المصريين . حقيقة أن عامة الشعب — وهم الغالبية — كانوا يتفاهمون بلغتهم المصرية الوطنية — الديموطيقية — لكن هذه اللغة لم تكتب بها مؤلفات أو تترجم إليها الكتب ، لقد كانت مجرد لغة حديث انحدرت عن الهيروغليفية ثم عن الهيراطيقية ، فهى الصورة الشعبية لهما . لذلك كان طبيعيا أن تكون السيادة للغة الاغريقية ، وهى لغة الحاكم : الحاكم اليونانى حتى سنة ٣٠ ق . م ، ثم الحاكم الرومانى ايضا بعد سنة ٣٠ ق . م ، ذلك أن روما اعتبرت نفسها ربيبة الاغريق فاخذت عنهم فلسفتهم وأصول أدبهم ولغتهم أيضا التى بقيت مستخدمة فى البلاد التابعة لروما حتى العصر البيزنطى أى ظلت هى لغة المعاملات الرسمية والعقود والخطابات . بل وبالنسبة للكنيسة — وبعد وصول المسيحية إلى مصر نحو سنة ٦٠ م — كانت وصايا الأساقفة وتعاليمهم تكتب باليونانية . وظل الحال كذلك حتى وضع بنيتينوس الأبجدية القبطية نحو أواخر القرن الثانى الميلادى ، ثم ما لبثت اللغة القبطية أن ظهرت فى تراجم الكتب المقدسة . وسير الآباء والشهداء وأقوال المعلمين ، ظهر هذا كله بالقبطية ، وأخذ يزداد وينمو نحو أواخر القرن الثالث ، وتدريجيا تألقت اللغة المصرية القديمة فى الصورة الجديدة ، وهى القبطية التى تكونت من الحروف اليونانية وهى مأخوذة أصلا عن الكتابة المصرية إلى جانب سبعة أحرف صوتية من الديموطيقية وكان لظهور هذه اللغة

أثر خطير فى انكماش التأثير الاغريقى ، فلم يكد القرن السادس يأتى حتى كانت آثار الحضارة الهيلينية فى مصر تحتضر ، أما فى القرن السابع فقد زادت الأدلة بما يثبت أن اللغة الاغريقية كانت تندثر من البلاد لتحل محلها اللغة القبطية حين أصبحت هى لغة الشعب ، ولغة الدولة ، ولغة الكنيسة .

لذلك اعتبرنا الفترة بين الحكم البطلمى الاغريقى سنة ٣٢٣ ق . م وازدهار اللغة القبطية فى نهاية القرن الثالث الميلادى ، اعتبرنا هذه الفترة ، فترة سيادة الثقافة الإغريقية ، وهى التى نريد أن نؤرخ للتربية خلالها فى هذا الفصل . لكننا قبل أن نستطرد الى التفاصيل نحب أن نذكر ملاحظة سجلها مؤرخو هذه الفترة ، ذلك أن اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر تحت تأثير حكم الأجنبى المغتصب أدى إلى فساد الأحوال وبوارها وخاصة فى القرنين الثانى والأول ق . م . فكان طبيعيا أن تنعكس آثار هذه الأحوال على التعليم ، « فكان قليلا محدودا حتى أن معلوماتنا عنه طفيفة » . واننا من واقع الوثائق نرى أننا نعرف القليل جدا عن موضوعات التعليم ووسائله فى مصر فى هذه الفترة .

على أننا مع ذلك سنحاول الاستفادة مما كتبه مؤرخو هذه الحقبة خاصة ممن اقاموا دراستهم على أساس الاوراق البردية .

وأول ما نلاحظه أن خطة التربية ــ ونقول التربية لا التعليم حتى يأتى بحثنا أكثر شمولا لتصوير ثقافة العصر ــ تسير على خط مزدوج :

أ ــ الخط الاول : خط التربية القومية

ب ــ الخط الثانى : خط التربية الاغريقية .

وكان هذا الازدواج فى خطة التربية نتيجة طبيعية حتمية للازدواج فى الثقافة . فقد جاء الإغريق إلى مصر وجاءوا معهم بثقافتهم المتميزة ليفرضوها على المصريين ، فأقاموا مدنا وأنشأوا أحياء خاصة بهم ، وأسسوا المدارس والأكاديميات ، ثم شجعوا الاغريق على الهجرة إلى مصر ، وبذلوا الكثير فى سبيل ضم المصريين إليهم فأغدقوا عطاياهم وامتيازاتهم على العائلات والافراد المتأغرقين ، فكان طبيعيا أن تقوى شوكة ثقافتهم وتنتشر لغتهم ، ولكن إلى حين ، ذلك أن المصريين ، من الجانب المقابل ، جاهدوا فى المحافظة على تقاليدهم وأساليب حياتهم القديمة ، كما تمسكوا بلغتهم المصرية ، وحرروا بها

عقودهم وان اضطروا إلى استخدام اليونانية ، مجبرين — فى معاملاتهم الرسمية . ولم يتغير الوضع بعد دخول الرومان سنة ٣٠ ق . م ، فقد بقى المصريون على موقفهم ، وكانت الحضارة الاغريقية قد أخذت فى الضعف والأفول لولا اتجاه روما إلى دراستها ودراسة أصول آدابها وفنونها مما أجل انكماش نفوذها وسيادتها . وفى الوقت الذى انكمشت وتضاءلت التأثيرات الاغريقية الهيلينية عامة — وفى مصر خاصة — كانت المسيحية توقظ فى المصريين روحهم المعنوية السالفة ، وتشعل فيهم جذوة الوطنية والتحرر منذ أن جاءت مع القديس مرقس نحو ٦٠ م . وهكذا وضح تأثير الشخصية القومية المصرية التى اعتادت أن تعطى أكثر مما تأخذ وأن تؤثر أكثر مما تتأثر . ولكى نوضح ذلك نتابع هنا دراسة دور المدرسة الوطنية فى التربية ، وذلك ليبين أمامنا دور التربية فى التأكيد لشخصية مصر الاستقلالية .

أولا — التربية فى المدارس الوطنية

لا نكاد نرى اختلافا بين خطة التربية وعمل المدرسة فى العصر الاغريقى عنها فى العصور السابقة له سواء فى المدرسة الاولية والمتقدمة — أم فى التعليم العالى ففى المدرسة الاولية والمتقدمة ، ظل التلميذ يتعلم أدوات المعرفة من قراءة وكتابة وحساب ومعلومات عامة جريا على النمط نفسه الذى تسلمه عن آبائه وأجداده والذى كان سائدا فى مصر القديمة ، وبنفس المناهج تقريبا .

وأغلب الظن ان الاسرات المصرية كانت تكتفى بتعليم أطفالها فى المرحلة الابتدائية اذا تيسر لها ذلك . على أن بعض الاسر المقتدرة التى عاشت معيشة الارستقراطية وجدت أن فى الاتصال بالثقافة الاغريقية اكمالا لمؤهلات أفرادها مما يؤهلهم للوصول إلى أعلى المناصب الحكومية وهو امر طبيعى يمكن أن يحدث فى أى بلد وفى أى جيل ، فكانت تهيىء الفرصة لابنائها ان يتعلموا اللغة الاغريقية باعتبارها اللغة الرسمية الواجب تعلمها للالتحاق بالوظائف الحكومية والوظائف القيادية منها بوجه خاص .

على أنه إلى جانب التعليم النظامى المحدود ، كانت للمصريين أنديتهم وجمعياتهم فكانوا يلتقون فى منازل أعيانهم ، أو فى المعابد للاستماع إلى قادتهم الروحيين ، فيتدارسون مشكلات بلادهم وما يعانونه من الضيق .

أما التعليم العالى ، فلا شك انه لم يبق منه سوى ظلاله التى رآها مفكرو

الاغريق وفلاسفتهم الذين زارو مصر فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد من أمثال هيرودوت ، واسترابون ، وديودور الصقلى ، وافلاطون ، وسولون ، ومع ذلك فقد شهدوا بحكمة الكهنة المصريين ، وعلو كعبهم فى الفلسفة والرياضيات والطب ، مما نستدل منه على أن المراكز الثقافية ظلت تواصل جهودها وإن اقتصر ذلك — فى الغالب — على هليوبوليس ومنف . ويؤكد هذا أن الكهنة المصريين — ظلت تتمثل فيهم — بوجه عام — طائفة المعلمين والدارسين ، وقد دلت الوثائق البردية التى بقيت عن ذلك العصر أن محتويات مكتبات المراكز الثقافية ، وغالبا كانت ملحقة بالمعابد كما سبق الذكر ، لم تتغير فى مصر البطلمية أو فى العصر اليونانى — الرومانى عما كانت عليه من قبل . غير أنه ليس من المستبعد ان يكون بعض البطالمة الأوئل قد عملوا على جمع الكتب الموجودة بالمعابد المصرية لوضعها بمكتبة الاسكندرية .

مكتبة الاسكندرية فى العصر البطلمي أو مركز اللقاء بين الفكرين المصرى والاغريقى :

كان مركزها بجامعة الاسكندرية أو كما عرفت فى بعض كتب التاريخ « دار العلم الاكاديمية » التى أسسها بطليموس الأول أو بطليموس سوتر . وفى بردية عن هذا العصر أن كاتبها كان بالاسكندرية ليتابع تعليمه الحالى .

وقد اشتهرت هذه الجامعة بدراسة الآداب الاغريقية القديمة ، كأشعار هومر ، وقصائد هزيود ، وروايات اسكيلسوس وسوفوكليس ، وايوربيديس . وامتدت شهرة الاسكندرية الادبية حتى عرفت بأنها « عاصمة الادب » فى العالم الاغريقى فى القرن الثالث ق . م حتى انها جمعت آداب مصر وآشور وفينيقيا وترجمتها على أن ذلك لم يمنع أن تدرس بها فروع البحث العلمى الاخرى .

وقد الحقت بهذه الجامعة المكتبة الشهيرة التى ضمت نحو ٧٠٠٫٠٠٠ كتاب على هيئة مجلدات من البردى صنفت ورتبت ووضعت ترجمة لكل كاتب مع قائمة بأسماء مؤلفاته فلما ضاقت على سعتها أقام بطليموس فيلادلفوس مكتبة اخرى عرفت بالمكتبة الصغرى ، والحقت بمعبد السيرابيوم ، وضمت نسخا حديثة من الكتب الموجودة بالمكتبة الكبرى وذلك لفائدة عامة الاهالى فبلغ عددها نحو ٤٢٫٨٠٠ .

ولما تميز به المصريون حتى ذلك الوقت من مستوى علمى وأدبى وعقلى رفيع فقد اصبحت الاسكندرية مركزا للدراسة العلمية المتخصصة ساعد على ذلك انها كانت أيضا مركزا لانتاج الاوراق البردية والجلود المعدة للكتابة . وقد بقيت المكتبة الكبرى كعبة العلماء زهاء ثلاثة قرون إلى أن ذهبت طعمة للنيران سنة ٤٨ ق . م فى حرب الاسكندرية المشهورة بين قيصر الذى كان يناصر كليوباترة ، وبومبى الذى ناصر بطليموس الرابع عشر فى معركة المنافسة على عرش مصر .

فى هذه المكتبة كان لقاء التراث المصرى العلمى العريق بالفكر الاغريقى مما أسفر عن وضع أسس الكثير من العلوم والمؤلفات [١] مثل تاريخ مصر القديمة فى ثلاثة أجزاء للكاهن المصرى مانيثون كبير كهنة هليوبوليس ولهذا التاريخ دلالة خاصة فمن المعروف أن التاريخ هو دائما ذاكرة الشعوب . فان يتصدى هذا الكاهن المؤرخ لوضع مؤلفه فى تاريخ ملوك مصر الذين تعاقبوا عليها منذ عهد مينا حتى نهاية عهد الاسرات ، هذا فى ذاته حمل دليلا كبيرا على يقظة العقل المصرى ونزعته إلى الشعور بالوجود والكيان بل والعزم على التحرر والاستقلال . كذلك وضعت فى هذه المكتبة نظريات اقليدس فى الهندسة وألف كتاب المجسط [٢] للعالم الرياضى بطليموس الذى نجح فى تحديد علاقة الارض بالاجرام السماوية الاخرى . وبفضل هذا العالم وغيره أصبحت الرياضة علما اسكندريا الى حد كبير[٣] .

وعن علماء الجغرافيا ارسترخس الذى اكتشف دوران الارض حول محيط وهمى ، ولكى يتابع دراساته أقام مرصدا بكانوب للقيام بأبحاثه الفلكية . واراثوثنيس الذى تولى رئاسة مكتبة الاسكندرية وأخرج كتابا فى الجغرافية فى « أبعاد الارض » حسب فيه محيط الارض وحجم الشمس والقمر ومقدار بعدهما عن الارض . ويعتبر كتابه « فى الجغرافيا » أول مؤلف علمى فى الجغرافيا الطبيعية والرياضية والبشرية . [٤]

---

(١) محمد احمد حسين : مكتبة الاسكندرية فى العالم القديم ـــ القاهرة سنة ٩٤٣ ص ١٢ ، ٢٢ .

(٢) Almagest

(٣) برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية : ج ١ ص ٣٥٧ الترجمة العربية : د . زكى نجيب محمود ـــ القاهرة ١٩٥٤ .

(٤) استرابون فى مصر ـــ الترجمة العربية ـــ د . وهيب كامل ـــ دار المعارف سنة ١٩٥٣ ص ٤١ .

وبالاسكندرية أيضا تمت ترجمة التوراة المعروفة بالترجمة السبعينية ــ من الارامية إلى الاغريقية ، وقام على خدمتها نحو ٧٠ عالما يهوديا ممن يتقنون اللغتين . أما علم الطب فقد وضع أبقراط المشهور قواعده ، واكتشف العلماء أن المخ هو مركز الجهاز العصبى وأن ثمة تباينا بين الشرايين والأوردة ، فضلا عن اكتشافات دورات الهضم والاخراج . ولأول مرة تظهر بالاسكندرية محاولة للربط بين التعاليم اليهودية والفلسفة الاغريقية بواسطة فيلو الفيلسوف اليهودى الشهير .

فى هذه الجامعة ، كانت تدرس علوم اللغة والفلسفة والرياضة والطب ، وبفضل الاسكندرية ، بقيت الحضارة الاغريقية مزدهرة حتى العصر المسيحى . وبظهور المسيحية ونموها ، كان طبيعيا أن يقوم بينها وبين الفكر الاغريقى سجال فكرى فلسفى شاهدت الاسكندرية بدايته وتطوره حتى وصل إلى قمته فى المجامع المسكونية ، وانتهى إلى تغيير أساسيات المجتمع الاغريقى ــ الرومانى ، لتحل محلها أساسيات المسيحية ، ولعل من أهم مظاهر هذا التغيير هدم معبد السيرابيوم الذى كان يعتبر رمز حضارة هذا المجتمع . وما كان هذا السجال سوى صحوة مصرية جديدة وجد فيها المصريون وسيلة للاعلان عن وجودهم وعزمهم على التحرر من سلطة المحتل الغريب .

ولقد حققت الاسكندرية للعلم والعلماء أربع خدمات رئيسية : **أولها** تدريب الدارسين من مختلف الاقطار وإعدادهم فى العلوم والفلسفة والرياضيات والموسيقى والقانون ــ الذى زادت دراسته فى العصر الرومانى ، **والثانية** : الدراسة والبحث المنظمين بالمتحف وتبويب الدراسة وتصنيفها ، **والثالثة** : نقد الاعمال الادبية والنصوص ودراسة الادب المقارن بوفاء ، **واخيرا** تهيئة الفرصة للتبادل الثقافى والعلمى بين الطلاب والاساتذة من الاقطار المختلفة .

لكن أهم من هذا كله ، أنها أصبحت مصدر تأثير بالغ فى توجيه دراسات العصور الوسطى ، فان انتاج علمائها واساتذتها كان ذخيرة هائلة للدراسات التى برزت طوال العصور الوسطى .

مدارس فئات السكان بالاسكندرية

كان لطوائف السكان الاخرى بالاسكندرية مدارسها الخاصة كاليهود والرومان ، وبفضل تشجيع واهتمام للأباطرة الرومان ، خطت جامعة

الاسكندرية خطوات هائلة إلى الأمام . فالامبراطور فسباسيان ٦٩ – ٧٩ م اهتم بأمر المعلمين وتربية النشء فأوقف عليهم المرتبات ، والامبراطور دوميتان (٨١ – ٩٦ م) كان يشترك مع علماء الاكاديمية فى محاوراتهم ، وكذلك الامبراطور تراجان (١١٧ – ١٣٨ م) وكذلك الامبراطور هادريان الذى كان محبا للعلم والعلماء ميالا لدراسة اللغتين الاغريقية واللاتينية . أما ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠ م) فكان أديبا فيلسوفا شجع المربين والمعلمين واليه رفع فلاسفة المسيحية احتجاجاتهم كأثيناغوراس عميد المدرسة اللاهوتية .

والسؤال الذى يبقى بعد ذلك هو إلى أى حد استفاد المصريون من الدراسات العليا فى جامعة الاسكندرية ومتحفها ومكتبتها ؟ لقد ذكرنا أن عامة الشعب المصرى ظلت محتفظة بقوميتها ولغتها وتقاليدها ، وان عدداً من الأسر فقط هم الذين تعلموا الاغريقية ليتقربوا إلى الحاكم من جانب ، وليحصلوا على المناصب العليا فى الحكومة من جانب آخر . وهؤلاء قد ادخلوا ابنائهم المعاهد الاغريقية أو احضروا لهم المعلمين الخصوصيين ليعلموهم اللغة .

لكن الامور لم تبق على هذا المنوال طوال العهد البطلمى ، ذلك أنه فى القرن الثالث ق . م . بدأت الروح الاغريقية تضعف ، بسبب عدم اقبال الاغريق على الهجرة الى مصر ، وتذمر المصريون من الضيق الواقع عليهم ، وتمسكهم بآلهتهم ولغتهم وتقاليدهم فعمل البطالمة على التقرب إلى المصريين ، واخذوا يفسحون المجال للاختلاط بهم فعبدوا آلهتهم واغدقوا عليهم امتيازاتهم ، بل وتزاوجوا معهم حتى تكون عدد من الأسر المختلطة المصرية والاغريقية تحدثت باللغة المصرية ، وتسمت باسماء مصرية ، لكن الاهم من هذا كله أن الاغريق سمحوا للمصريين بالالتحاق بمعاهدهم ومدارسهم [١] . وهكذا تابعت الشخصية المصرية دورها التاريخى فى هضم الثقافات الواردة إليها ثم تمثلها واعادة صياغتها فى قالبها المتميز مهما كانت قوة الثقافة المواجهة لها .

ويستفاد من هذا كله أن الباب لدخول جامعة الاسكندرية قد انفتح أمام الكثيرين من المصريين ، خاصة من الطبقة المتوسطة التى تمثل فيها عادة الكفاح والمثابرة سعيا إلى الرقى بمستواها الاجتماعى والمادى . ولقد كان لالتحاق

---

(١) د . ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ٢ ص ٧٥٣ .

المصريين بالجامعة ، وفتح المجال أمامهم لدراسة الاغريقية ، نتائج هامة جدا ستتضح فى العصر المسيحى بالذات حين يستغلون درايتهم بهذه اللغة فى الدفاع عن المسيحية ، ونشر احتجاجاتهم ضد الاضطهاد ، ثم مع الوقت الوصول الى وضع أبجدية قبطية خاصة أساسها الحروف اليونانية مضافا اليها سبعة أحرف ديموطيقية . وكان هذا — كما سبق الذكر — نقطة تحول ثقافى فى التاريخ القبطى بل نقطة تحول فكرى حمل اتجاه الاستقلال والتحرر من ثقافة المحتل الأجنبى مما بدت معه الشخصية المصرية وكأنها تسترد كرامتها باستعادتها لوجودها العقلى والدينى .

الفصل الرابع

بروز الشخصية القومية المصرية في العصر القبطى

بروز الشخصية القومية المصرية
فى العصر القبطى

تحديد العصر القبطى :

ينتظم العصر القبطى نحو تسعة قرون تقسم إلى عصور ثلاثة واضحة ، الأول : عصر اضطهاد المسيحية : من سنة ٦٠ م إلى سنة ٣١١ م أى من دخول المسيحية إلى صدور مرسوم التسامح الدينى الأول سنة ٣١١ م .

الثانى : عصر استقرار المسيحية وسيادة الثقافة القبطية ، وذلك حين أصبحت المسيحية احدى الديانات الرسمية فى الدولة الرومانية ، وتمتد من أوائل القرن الرابع حتى أوائل الثامن سنة ٧٠٦م حين أصبحت اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدواوين .

أما العصر الثالث : فهو عصر انكماش الثقافة القبطية وغلبة الثقافة العربية من أوائل الثامن حتى نهاية العاشر ويعنى هذا أن العصر القبطى الذى يقع بين العصر اليونانى ــ الرومانى ، والعصر العربى ممتدا إلى نهاية القرن العاشر الميلادى . بمعنى أوضح اننا نحدده بين فترتين تاريخيتين تميزت كل منهما بتحول ثقافى واضح . والتحول الأول شاهده القرن الثالث حين تحول المصريون المسيحيون إلى لغة خاصة بهم هى اللغة القبطية ووضعوا لها أبجدية خاصة وما لبثوا أن ترجموا إليها صلواتهم وكتبهم المقدسة وسير باباواتهم وشهدائهم وعلومهم أيضا . أما التحول الثانى فقد شاهده القرن الثامن حين أخذ المجتمع المصرى يتحول إلى اللغة العربية فكان ذلك ايذانا بسيادة لون جديد من الثقافة وإن لم تتم له الغلبة قبل القرن العاشر .

صور الحضارة المصرية فى العصر القبطى :

(١) اضطهاد الدولة الرومانية لأقباط مصر :

ومنذ ظهور المسيحية وضح أن هناك خلافين واضحين بينها وبين الدولة الرومانية أدت إلى قيام الاضطهادات وبالتالى إلى ظهور عصر الشهداء . ويبدو الخلاف الاول فى أن الدولة الرومانية تنادى بعبادة الامبراطور بينما نادت

المسيحية بعبادة الله . ويقول روستوفتزف « أبغض الوثنيون المسيحيين واضطهدوهم لانهم نظروا إليهم على انهم عصبة من الاشرار صح عزمهم على تدمير الدولة اذ كان الرومان يعتقدون أن الامبراطور هو الحاكم الاعلى وان له سلطة علوية قدسية . فلما عارض المسيحيون هذه العقيدة وقاطعوا الاحتفالات والالعاب والملاهى المقترنة بها ارتابت فيهم السلطات الرومانية واضطهدتهم .

أما مظهر الخلاف الثانى ففى انعدام المساواة بين الطبقات الاجتماعية . فكان المجتمع الرومانى مجتمعا هرميا ينقسم إلى طبقات احداها ممتازة والأخرى محرومة من الحقوق السياسية هذا فضلا عن التفرقة فى المعاملة بين المتأغرقين من سكان العواصم وبين جمهرة الاهالى المصريين من سكان الريف . على عكس المسيحية التى نادت بالغاء هذه الفروق والامتيازات « فكان الوثنى المنقلب إلى المسيحية يجد نفسه فى عالم ذى قيم مخالفة لقيمه السابقة اذ عمت الامبراطورية فورات دافعة من الشعور الخلقى ضد مظاهر الرذيلة والوحشية التى تمخضت عنها الجوانب المظلمة من المدنية الرومانية القديمة » . لقد ساد الاستبداد انحاء الدولة الرومانية فى ظل الحكم البيروقراطى ، والقوانين المالية المجحفة التى فرضت ، مثال ذلك ما فرض على الرجل صاحب الأطيان أن يقدم للدولة — دون مقابل — بجمع الجند وجباية الضرائب ، أما بالنسبة للفلاح فقد أكرهته الدولة على أن يعيش مربوطا إلى الأرض التى يعمل فيها . كذلك فرضت على التجارة قيوداً مختلفة والتزامات مالية منهكة . ومن المعروف أن هذا التضييق كان يزداد بالنسبة للمسيحيين . على أن الظاهرة الواضحة أن الصراع بين الدولة الرومانية والمسيحية أتخذ شكلا ماديا اضطهاديا استغرق أكثر من ثلاثة قرون بين سنة ٣٠ م ، سنة ٣١١ م يقسمها بعض المؤرخين إلى عشرة عهود وضح فيها الإضطهاد للمسيحيين فكانتَ تفرض عليهم ألوان العذاب التى بلغت أقصاها فى عصر نيرون (+ ٦٨ م) وعصر تراجان (سنة ١٠٦ م) وديسيوس (سنة ٢٥٠ م) [١] ثم دقلديانوس الذى بلغ الإضطهاد فى عهده

---

(١) اصدر هذا الامبراطور مرسوما يقضى بان يقدم جميع السكان شهادات بانهم قدموا القرابين للآلهة المقدسة .

قمته [١] حتى وضع قبط مصر تقويمهم المعروف بتقويم الشهداء مبتدئا بسنة توليته الحكم سنة ٢٨٤ م .

على أن المصريين قاوموا استبداد الرومان « بالفرار من الأرض » فكان الفلاح المصرى يترك قريته ويتسلل إلى داخل الاسكندرية ليدبر مع المصريين المقيمين بالمدينة ، حتى الوثنيين منهم ، المؤامرات والفتن ، وليثير القلاقل والشغب ضد السلطات الرومانية . وكان الفلاحون يهملون عن قصد شئون الزراعة ، ويهجرون الحقول مما كان يؤدى إلى هبوط المحصول وقلة حصيلة الضرائب ، ونقص الدخل بوجه عام مما أدى إلى اضمحلال النفوذ الرومانى . ومن دلائل روح المقاومة التى أظهرها المصريون ضد دقلديانوس رغم جبروته وعنفه أنه لما قبض على القديس بطرس سنة ٣١١ م ــ البابا السابع عشر فى تعداد البابوات المصريين ــ ثم أمر بقطع رأسه أن اجتمع الشعب عند باب السجن فكان الجند يفكرون كيف يخرجونه بحيث لا يموت كثيرون بسببه . وقد سجلت هذه السيرة وغيرها من سير البابوات فى الكتاب المعروف باسمه « تاريخ بطاركة كنيسة الاسكندرية » وقد جرت عادة البابوات أن يكتب كل منهم سيرة سلفه حتى جاء ساويرس بن المقفع ــ وكان أسقفاً على المنيا ــ فى القرن العاشر ــ واستعان « بمن يعلم استحقاقهم » من الأخوة المسيحيين لنقل ما وجدوه بالقلم القبطى والقلم اليونانى إلى القلم العربى مثل الشماس ميخائيل بن بدير . وقد جمع ساويرس هذه السير من دير القديس مقار بوادى النطرون وغيره من ديارات الصعيد [٢] .

وبين وقت وآخر كانت الصيحات ترتفع « فليلق المسيحيون إلى الأسود » اذا ما نزلت بالبلاد كارثة قومية كالأوبئة والقحط والمجاعات والزلازل . ورغم أن كثيرين كانت تنقصهم قوة الاحتمال إلا أن كثيرين أيضا « صمدوا للمحنة

---

(١) احتدم الاضطهاد فى عهد الامبراطور بسبب فرض عبادة الامبراطور على السكان بعد ان تزايدت بينهم اعداد المسيحيين الذين قاوموا هذا الاتجاه مقاومة عنيفة فاستشهد منهم الوف من كل الطبقات وخاصة من مصر السفلى (كفاحنا ضد الغزاة) : لمجموعة من المؤرخين : عبد المنعم أبو بكر . عواد حسين . عبد اللطيف على . زيادة . عبد الرحيم مصطفى ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة سنة ١٩٥٧ ص ١٩٣ ــ ١٩٦ .

(٢) Gruffin : Patrologia Orientalis, Paris 1907, Tom I p. 105, 15

ووجدوا فى الاضطهاد قوة روحية » ، لم تزدهم إلا تشبثا بعقيدتهم الجديدة .

فى هذا العصر اذن كان الاضطهاد هو الظاهرة المميزة ، لكن ثمة معالم أخرى ميزت هذه المرحلة من التاريخ المصرى منها هذه السلسلة المتصلة من بابوات الاسكندرية الذين « تمثلت فيهم بحق الشخصية المعنوية للأمة المصرية ، وللكنيسة المصرية » ومن دراسة تاريخ هذه الفترة ، وتاريخ هؤلاء البابوات كما ذكرهم كتاب تاريخ البطاركة ، يتضح أنهم لم يكونوا فقط زعماء دينيين وانما كانوا ايضا قادة وطنيين على عكس الحال فى أوربا الغربية « كانت الكنيسة فى مصر تتمثل فيها القومية المصرية ، وكان البطريرك المصرى يعتبر زعيم المصريين وقائد الحركات القومية المصرية . ذلك أن المسيحية لاقت من نفوس المصريين ترحيباً لأنها عملت عمل الموقظ للروح الوطنية المكبوتة التى رغم اضطهاد الاغريق والرومان لها الا أنها بقيت تعتز بكبريائها القومى . ومن هنا اقترن تاريخ الحركة القومية فى مصر ابان هذه الفترة بتاريخ الكنيسة ومواقف آبائها وشهدائها وعلمائها حتى اعتبرت الكنيسة المصرية هى الحجر الذى ضم الحركات القومية فى مصر ابان الخمسة قرون الأولى .[1] فقد اعتبر الأب البطريرك « ممثل الشعب وكانت لكلمته فى المصريين قوة القانون »

(٢) ومن معالم هذه الفترة أيضاً اكتمال النظام الرعوى الرئاسى بمدينة الاسكندرية ال Hierarchy وكان لاكتمال هذا النظام أكبر الأثر وأخطر النتائج فى قيادة جمهور المؤلفين المصريين بالاسكندرية ثم بمدن الدلتا فمصر الوسطى ثم الصعيد حتى الشلال . بل لقد امتد خارج القطر إلى ليبيا غربا وفلسطين شرقا والسودان جنوبا . وفى القرن الرابع وصل إلى اثيوبيا . ففى سنة ٦٨ م بعد أن زاد عدد المسيحيين بمدينة الاسكندرية وأراد الوثنيون اغتيال القديس مرقس ، رأى أن يذهب إلى مدن افريقيا الغربية وكانت تعرف باسم Pentapolis ليطمئن على مدى نجاح البشارة الاولى التى ألقى بذورها قبل ذلك بنحو ثلاث سنوات ، فأقام قادة الكنيسة المصرية لرعاية المؤمنين المنضمين

---

(١) د . منير شكرى فى بحث « المسيحية وما تدين به للقبط » فى كتاب « صفحة من تاريخ القبط أصدرته جماعة مارمينا باسكندرية : سنة ١٩٥٤ — ص ٨٣ .

(راجع أيضا ادريس بل — مصر منذ فتح الاسكندر — الترجمة العربية ص ٢٠٤ ، ٢٢٤) ،

ونورمان بنيز : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس — القاهرة ١٩٥١ ص ١٠٠ حيث يقول : « اعتبر البطريرك فرعوناً دينياً ممثلا الشعب وكانت لكلمته فى المصريين قوة القانون » .

للمسيحية . وكانت قيادة الكنيسة ــ فى العالم المسيحى عموما ــ تتمثل فى الأسقف والقس والشماس . وفى مصر كان البابا ديمتريوس الثانى عشر فى تعداد البابوات ــ أول من أقام الأساقفة . وكانت الكنيسة تشترط فضائل وشروطاً خاصة فى أصحاب هذه الرتب . وكان لوجود هؤلاء الرعاة المعلمين أثر واضح فى تشجيع المسيحيين على احتمال الاضطهاد وتدعيم خطة رعايتهم وتشديدهم .

(٣) ويعتبر قيام الأديرة منذ أواخر القرن الثالث المعلم الثالث من المعالم العامة التى تتميز بها هذه المرحلة من العصر القبطى ، فقد استقبلت الصحراء جماعات كثيرة من الرهبان .

ولا شك أن مثل هذه العبادة والتدين التى خلفها المصريون القدماء تراثا حيا مستمرا قد أثرت فى هؤلاء الذين تركوا زخرف الدنيا وعزفوا عن مباهجها إلى الصحراء . فلما زادت جماعاتهم كان طبيعياً أن يوجد نظام يضمهم ويعينهم على التغلب على ما يلاقونه من الصعاب الروحية والنفسية والمادية فى تلك الأنحاء النائية .

(٤) سيادة اللغة القبطية وثقافتها :

ومن السمات المميزة لهذا العصر سيادة اللغة القبطية وثقافتها ــ فقد مر بنا أن الأبجدية القبطية لم يبدأ ظهورها إلا فى منتصف القرن الثانى ، كصورة أخيرة لتطور اللغة المصرية القديمة ، فيمكن القول بأن السيادة اللغوية والثقافية فى هذه المرحلة كانت للغة اليونانية . فلما ظهرت الكتب المقدسة وسير باباوات الكنيسة وشهدائها باللغة القبطية نحو أواخر القرن الثالث سارت الثقافة القبطية جنبا إلى جنب مع الثقافة اليونانية التى كانت لغة العلم والثقافة فى العالم المتحضر وقتذاك ، ويعتبر المؤرخون القرن الثانى الميلادى هو الذروة التى انتهى عندها تأثر مصر بالثقافة اليونانية حين كانت اللغة السائدة هى الاغريقية فهى لغة التعليم ولغة الكتاب المقدس كما أن المدن الاغريقية كان لها تميزها واستقلالها الذاتى ، والمناصب الكبرى فى يد الاغريق ، والآداب والفنون كلها تدرس وتقرأ بالاغريقية : أى أن اللغة الرسمية ولغة الكتب المقدسة واللغة المستخدمة فى العلم والتأليف كانت هى اللغة الاغريقية ، لكن تلا ذلك ــ قرب نهاية القرن الثانى ــ وضع الأبجدية القبطية ، فدخل الفكر المصرى فى مرحلة جديدة من تاريخه . وكان آباء الكنيسة المصرية يكتبون ويتحدثون باللغة اليونانية

وخاصة فى المجامع المسكونية ولهذا السبب اختلط الأمر على بعض المؤرخين فظنوا هؤلاء الآباء المصريين آباء اغريق .

ثانيا ــ المرحلة الثانية من مراحل العصر القبطى :

(٥) مرحلة استقرار المسيحية وسيادة الثقافة القبطية فى مصر : من أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع إلى سنة ٧٠٦ م .

وقد تخللت هذه المرحلة ثلاثة أحداث تاريخية هامة ، أما الحدث الأول فهو نقل قسطنطين لعاصمته إلى القسطنطينية على أنقاض قرية بيزنطه وذلك فى سنة ٣٣٠ م .

(٦) مرحلة الردة عن المسيحية : والحدث الثانى نحو سنة ٣٦١ م حين أعلن الامبراطور يوليانوس ارتداده عن المسيحية فألغى مرسوم التسامح الدينى وصادر أملاك الكنيسة وأمر بهدم الكنائس وقطع مكافآت الكهنة وإعانات الدولة للفقراء ، كما منع المسيحيين من التعليم فى المدارس (١) ، لكن رغم ذلك استمرت الكنيسة تواصل رسالتها الروحية والاجتماعية فى حماس إذ كان الزمن فى صالح المسيحية التى أخذت تنتشر بسرعة ، وقد ساعد على انتشارها فى أنحاء الدولة الرومانية حتى أن « وثنية القرن الرابع كانت تكتفى بأن تترك فى سلام » وقد انتهت هذه الردة بموت الامبراطور يوليانوس أثناء حربه ضد الفرس سنة ٣٦١ م .

(٧) المسيحية هى الديانة الوحيدة للدولة الرومانية : أما ثالث هذه الأحداث فهو اعتراف الدولة الرومانية سنة ٣٧٩ م فى عهد الامبراطور تيؤدوسيوس Theodoius بالديانة المسيحية كدين رسمى للدولة ، واضطهاد ما عداها من الأديان . وقد حظى هذا الامبراطور من مؤرخى الكنيسة بلقب « العظيم » فإلى جانب فضله فى القضاء على الوثنية فإن عهده كان عهد تعمير وسلام . وكانت أخر لطمة أصابت الوثنية إغلاق جامعة أثينا فى عهد

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol II p. 97, 103

(٢) من العوامل التى ساعدت على انتشار المسيحية بسهولة الاتصال بين أجزاء الدولة الرومانية فلم تكن ثمة حدود بين شرق الدولة الرومانية وغربيها كما كانت لها حكومة واحدة تقوم بحماية الدولة والدفاع عنها ولشدة الحراسة التى فرضت على البحار الرومانية انقطعت القرصنة فزادت التنقلات بين انحاء الدولة . ولذلك لم يكد القرن الثانى ينتصف حتى كانت المسيحية قد وصلت إلى بلاد الفرس وبلاد العرب . (راجع G. P. Fisher: Hist. of the Christian Church. London, 1897. p. 51)

الامبراطور جستينيان .(٥٢٧ ــ ٥٦٥) وتعتبر هذه الجامعة آخر مظهر من مظاهر الوثنية اليونانية مما ترتب عليه دخول كثيرين فى المسيحية وكان اغلاقها دليلا جديدا على انتهاء ثقافة العالم القديم . لذلك تعتبر هذه المرحلة نهاية الصراع بين الوثنية والمسيحية وفيها قويت روح المسيحيين المعنوية فاندفعوا يتابعون تحطيم آثار الوثنية ومن أهمها السيرابيوم بالاسكندرية سنة ٤١٢ الذى كان رمزا لنير الحكم الرومانى الوثنى لقرون عديدة ، كما رجموا الفيلسوفة الاغريقية هيبيشيا سنة ٤١٥ ــ وهيبيشيا هى رياضية وفيلسوفة ــ درست الرياضيات وعرفت بمؤلفاتها فى الفلك . وكان أبوها theon رياضيا وفيلسوفا أيضا ، وله مؤلف يحوى تعليقا على مؤلفات اقليدس Euclid الرياضية وأهمها كتاب المجسط . ويبدو أن ابنته هيبيشيا ساعدته فى تأليفه . وقد ألقت هيبيشيا محاضرات فى الفلسفة ، وأصبحت فى فاتحة القرن الرابع تعرف بأنها رأس الأفلاطونية المحدثة، وبسبب فصاحتها ومواهبها العقلية النادرة ، جذبت إليها جمهورا كبيرا من التلاميذ ، فكان طبيعيا أن تكون موضع مهاجمة الثوار المسيحيين فى عهد كيرلس الرابع . فكان أن هاجموها ــ على ما يذكر سقراط Socrates المؤرخ الكنسى المشهور . ونزعوها من على كرسيها بقاعة المحاضرات بالسيرابيوم وأخذوا يجرونها فى الشوارع ثم قتلوها حرقا .The Encyc. B. 11th Ed. 1910 - 1911 Vol. XIV p. p. 198 - 199 .

وكان لهذين الحادثين مغزاهما البالغ فى مجرى ايقاظ الشعور القومى إذ أن الخلاص من السيرابيوم إلى جانب أنه كان مسألة دينية فهو أيضا مسألة القضاء على رمز العبادات البطلمية وعلى أكبر معقل من معاقل الفكر الهللينى الدخيل . هذه الأحداث كلها دلت دلالة أكيدة على أن المسيحية كان قد استقر أمرها نهائيا فى مصر .

(٨) **الاضطهاد المذهبى للكنيسة القبطية** : ولئن كانت مصر قد استراحت من متاعب الاضطهاد الدينى ، إلا أنها لم تلبث أن عانت من الاضطهاد المذهبى منذ أوائل القرن الخامس حتى الفتح العربى سنة ٦٤٠ م . ذلك أن مصر اعتنقت مذهب الطبيعة الواحدة فأطلق على القبط « أصحاب المذهب المونوفيستى » Monophysite أما المذهب الرسمى للبيزنطيين فكان المذهب الملكانى Melkites أو مذهب الطبيعتين ، وبين المذهبين قام الصراع التاريخى المشهور الذى وصل إلى قمته فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م حين حرم

أساقفة المجمع ديوسقورس بابا الكنيسة المصرية لدفاعه القوى عن مذهب الطبيعة الواحدة .

وبعد مجمع خلقيدونية الذى عقد سنة ٤٥١ وقفت مصر الوطنية متحدة مع بطريركها تتدفق من أبنائها مشاعر الوطنية فكان ذلك ايذانا بظهور شخصية الكنيسة المصرية الوطنية المستقلة . أى أن دفاع المصريين عن كنيستهم كان فى الواقع دفاعا أيضا عن وطنهم بدأ بالعمل على تخليصه أولا من براثن النفوذ الوثنى الرومانى ، ثم من السيطرة المذهبية البيزنطية .

والواقع أنه يمكن اعتبار مجمع خلقيدونية بمثابة نقطة التحول فى العلاقات الدولية بين المصريين والبيزنطيين فبعد نفى ديوسقورس ووفاته بالمنفى سنة ٤٥٥ عينت القسطنطينية « بروتيريوس » وهو ملكانى بطريركا على الاسكندرية بقوة السيف . فاذا بالمصريين يردون على هذا الاجراء بانتخاب أحد المواطنين المصريين بطريركا معارضا هو تيموثئوس فيطارده الحاكم البيزنطى ديونسيوس ويعزله قهرا وإذا بثورة عارمة يقوم بها المصريون وتنتهى باغتيال بروتيريوس . « وهكذا اتخذت المشكلة شكل جهاد وطنى ضد الثيؤقراطية البيزنطية بعد أن تمركز هذا الجهاد فى حجر كنيستهم القومية بزعامة بطريركهم المصرى المنتخب الذى يعارض البطريرك الملكانى المعين » .

القومية المصرية فى عهد البيزنطيين : ومنذ سنة ٤٥١ م كان الأقباط قد قطعوا علاقتهم بالكنيسة اليونانية وأخذ طابعهم المتميز وتفكيرهم الخاص يظهر فى أدابهم جليا منذ ذلك العصر (١) . ويمكن اعتبار هذا العصر عصر ازدهار الثقافة القبطية ووصولها إلى قمة مجدها ، فمن حيث اللغة كانت السيادة للغة القبطية منذ أواخر العصر البيزنطى حتى صدر الاسلام ، فقد كانت هى لغة الكنيسة والدولة والشعب جميعا ، وزاد فى تدعيم مركزها فى القرن السابع أن العرب بعد دخولهم مصر سنة ٦٤٠ م استغنوا عن كثيرين من الروم فى أعمال الدواوين وولوا بدلا منهم عمالا من القبط وبذلك صار معظم عمال الدولة من القبط .

---

(١) د . مراد كامل ــ بحث عن الأدب القبطى الحبشى ــ ضمن رسالة مار مينا فى النيروز ــ الاسكندرية ــ ١٩٤٧ ــ ص ٨ .

فتأثير الثقافة القبطية ووضعها إذن وصل إلى قمته فى أواخر العصر البيزنطى — أى فى القرنين السادس والسابع — من حيث سيادة اللغة القبطية كلغة للشعب وللكنيسة وللدولة ، ومن حيث تمكن القبط من شغل معظم وظائف الدواوين الرسمية .

وقد وضحت معالم الثقافة القبطية أيضا فى بعض مظاهر الحضارة ، فشكل الزخارف المستعملة حتى القرن السابع كان يبدو يونانيا بحتا ، فلم يلبث القبط أن أدخلوا عليه تعديلا هاما مما ورثوه بالتناقل عن أسلافهم القدماء — فاتخذوا مثلا علامة الحياة « الكلمة هنا بالقبطية » (♀) (عنخ) عند قدماء المصريين وهى قريبة الشبه بعلامة الصليب ، كما رسموا العذراء تحمل السيد المسيح كما كان أسلافهم يرسمون الآلهة ايزيس تحمل طفلها هورس ورسموا أيضا مار جرجس يطعن الشيطان بشكل تنين كالإله هورس ممتطيا جوادا يدوس ست إله الشر تحت أقدام جواده .

وفى الأقمشة كثيرا ما كانت تستخدم الرموز المسيحية التى تشير إلى بعض المعانى التى وردت فى الانجيل : فكان الفنان القبطى يهتم بابراز رسم الحمامة والكرمة والسمكة كما قام طابع الزخارف فى هذا العصر على أسس عقائد الدين المسيحى ، وأصبح أغلب موضوعاتها دينية تمثل مجىء العائلة المقدسة إلى مصر وكأشكال القديسين .

وفى الأخشاب أبرز النجار القبطى مناظر نيل مصر من طيور وأسماك ونبات البردى والتمساح والمراكب المحملة بالأوانى الفخارية . وإلى جانب هذه المناظر الطبيعية نجد منظر دخول السيد المسيح إلى أورشليم . ومن ذلك نرى أن الفن القبطى فى تلك الفترة لم يأخذ شكلا دينيا فقط وانما عبر أيضا عن مناظر البيئة وطبيعة الحياة المصرية .

وفى هذا العصر كتب يوحنا النقيوسى كتابه التاريخى المشهور عن فتح العرب لمصر باللغة القبطية : كتب جانبا منه بالقبطية وجانبا آخر باليونانية . ولئن كانت اللغة القبطية قد أرغمت على التخلى عن مركزها كلغة للدولة إلا أنها كلغة للشعب بقيت حتى القرن ١٢ وإن ذكرت بعض الروايات أنها بقيت فى الصعيد الأعلى حتى القرن ١٧[١]

(١) يسى عبد المسيح : رسالة مارمينا فى عيد النيروز — المرجع السابق — ص ٦ .

وكان ساويرس بن المقفع ــ أسقف الاشمونين فى عهد المعز الفاطمى ــ (٩٧٢ ــ ٩٧٥ م ، ٣٦٢ هـ ــ ٣٦٥ هـ) ــ وعهد العزيز (٩٧٥ ــ ٩٩٦ م ، ٣٦٥هـ ــ ٣٨٦ هـ) ــ هو أول من ألف بالعربية من القبط ، فهو الذى ترجم سير الأباء البطاركة « مما وجد منها بدير أبى مقار ، وبدير نهيا (عند الجيزة) وما وجده بأيدى النصارى بالقلمين القبطى واليونانى إلى اللغة العربية التى كانت شائعة وقتذاك ، بينما كانت اللغتان القبطية واليونانية غير معروفتين عند أكثر المسيحيين » . فلما كان القرن الثانى عشر رأى البابا غبريال بن تريك (١١٣١ ــ ١١٤٦ م) أن القبط يتكلمون العربية ــ وخاصة فى المدن ومراكز المديريات ــ فأصدر أمره بقراءة الأناجيل والخطب الكنسية وما إليها باللغة العربية فى الكنائس وذلك بعد تلاوتها أصلاً باللغة القبطية ، وشعر خلفاؤه بخطورة هذا المبدأ لكنهم التزموا به . ولهذا الأمر دلالاته فلغة الصلاة يجب أن تكون مفهومة لدى عامة الشعب ، فلما رأى هذا البابا أن معظم القبط يتكلمون العربية أصدر أمره هذا لكى يتمكن الشعب من متابعة الصلاة وفهم الأناجيل المقدسة التى تقرأ أثناء القداس .

على أن غلبة اللغة العربية لم تتم فجأة وانما أخذ استخدامها ينمو تدريجيا . ومن الدراسة التى قام بها علماء الوثائق والمخطوطات القبطية يتضح أن المخطوطات التى عثر عليها بالأديرة ومعظمها كتب صلوات وأناجيل وتفاسير ومواعظ ، مما يستعمل بالكنائس مرت بعدة مراحل :

فالمرحلة الأولى : تظهر فى استخدام النهرين : اليونانى والقبطى وهو ما كان شائعاً قبل الفتح الإسلامى .

والمرحلة الثانية : تتمثل فى غلبة اللغة القبطية فيلاحظ أنه فى القرن السابع وبعد الفتح العربى حتى أوائل القرن الثامن ظهرت المخطوطات وشواهدها باللغة القبطية فقط .

والمرحلة الثالثة : فى استخدام النهرين ، القبطى والعربى ، ومخطوطات هذه المرحلة تأتى عقب تغلب اللغة العربية نحو القرن العاشر .

ثم تأتى المرحلة الرابعة : ومخطوطاتها مسجلة باللغة العربية فقط : كما فى « تاريخ البطاركة » لساويرس بن المقفع ، لكنه مكتوب بلغة عربية ضعيفة وكان ذلك فى أواخر القرن العاشر .

أى أنه يمكن القول بأن الثقافة القبطية قد انكمش تأثيرها على نهاية القرن العاشر الميلادى وأصبحت الغلبة للثقافة العربية .

على أن ذلك لا ينفى بقاء اللغة القبطية مستخدمة فى بعض جهات الصعيد كلغة للحديث ، فيشهد المقريزى « أن نساء القبط فى الصعيد كن فى وقته لا يتكلمن سوى القبطية وكن يجدن معرفة اللغة اليونانية أيضا »

(عن المجلة القبطية ـــ مقال بقلم جرجس فيلوتاؤس عوض ـــ السنة الثانية ص ١٢ . ويذكر عن اشتيندروف ـــ العالم الألمانى فى الآثار القبطية إن الرحالة الفرنسى فانسليب هو الذى قابل الشيخ الذى كان يتكلم القبطية) .

كذلك يذكر ماسبرو « إنه من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن ١٦ فى أوائل حكم الأتراك ، ويؤخذ من بقايا كتابات ذلك العصر أن العنصر القبطى كان لن يزل قويا محترم الجانب فى تلك الأنحاء ولم يمر قرن ونصف حتى قدم إلى سائح فرنسى أيام لويس ١٤ ـــ شيخ قبطى يدعى المعلم أنسطاسى ـــ يجيد التكلم باللغة القبطية »

(ماسبرو : محاضرة عن صلة المصريين الأقدمين بالمصريين الحاليين ألقاها بنادى رمسيس فى ١٩ / ١١ / ١٩٠٨ ـــ ويذكر أبو صالح الأرمنى فى الكتاب المنسوب إليه « الكنائس والاديرة فى مصر » أن نصارى إسنا حين كانوا يحضرون حفلات وأفراح المسلمين كانوا يطوفون فى الطرقات والميادين أمام العريس وهم يهتفون بعبارات قبطية صعيدية (راجع أقباط ومسلمون : جاك تاجر ـــ سنة ١٩٥١ ـــ ص ٣٠٥) .

ويؤخذ من هذه الروايات أن نهاية القرن ١٧ م ـــ شاهدت اختفاء اللغة القبطية كلغة للحديث وذلك فى الصعيد الأعلى اقوى المراكز التى ازدهرت فيها ، حتى إذا كان القرن ١٨ ـــ لما قاربت اللغة القبطية على الزوال ـــ كتبها الأقباط بحروف عربية .

لقد كانت الطبقية هى السمة التى تميز بها المجتمع المصرى فى ذلك العصر ، فبينما احتل الرومان والاغريق المناصب الرئيسية ، وسيطروا على موارد الثروة وما استتبعها من الاقطاعيات ومختلف السلطات ، بقى المصريون على حالهم من التأخر والظلم . ولقد تمثلت هذه الطبقية فى أقوى صورها وأجلى معانيها فى المدن الاغريقية التى أقامها البطالمة لتكون مراكز الحضارة الاغريقية فى مصر ولتصبغ القطر بالصبغة اليونانية . فى هذه المدن تكونت هيئات مؤلفة من مواطنى المدينة نفسها وكانت نوعا من النوادى أو الجمعيات وظيفتها المحافظة على جنسية وحضارة أعضائها من اليونان بل وعليها إلى جانب ذلك أن تمهد للنشء تربية يونانية . وبقيت اللغة الاغريقية هى اللغة الرسمية للبلاد بينما لم تستخدم اللاتينية إلا فى الجيش وفى الشئون الخاصة بالعناصر الرومانية .

وكانت الاسكندرية هى مركز الاغريق الرئيسى فهى مقر الوالى ، وبها تتركز الدور الحكومية الرئيسية والمحاكم الهامة ، وبها أيضا معاهد التربية ومنظمات الشباب الاغريقية التى كان الالتحاق بها قاصرا على المواطنين السكندريي أو من هم فى سبيلهم أن يصبحوا مواطنين إذ كانت تمنح لهم « الجنسية السكندرية » وهى ميزة كبيرة كانت تكسب حاملها مكانة مرموقة وتعفيه من ضريبة الرأس والخدمات الالزامية وتمهد له الطريق للحصول على الجنسية الرومانية . وكان هذا النوع من التعليم تعليما مكلفا ولا شك فلم يلتحق به من المصريين الا الأغنياء المتأغرقون الذين ساروا فى ركب صاحب السلطان طمعا فى المناصب والامتيازات ، بينما كانت أغلبية الشعب تتلقى تعليمها عن طريق الممارسة أو عن طريق المدارس الأولية .

أما اليهود فكانوا يشتغلون بالتجارة ويستخدمون الاغريقية فى معاملاتهم ، ورغم مشاعر الكراهية والحروب المتبادلة بينهم وبين الاغريق لأسباب دينية وسياسية إلا أنهم استمروا يتمتعون بامتيازاتهم لدى الرومان وفى مقدمتها اعفاؤهم — كالاغريق — من الضرائب .

الدور الاجتماعى للتربية القبطية

وبينما كانت هذه هى أحوال الرومان والاغريق واليهود ، بقى المصريون على حالهم الذى عاشوا فيه بقراهم المتناثرة على طول الوادى يمارسون حرفهم التقليدية من زراعة وصناعة وتجارة وملاحة ونقل « يحيون الحياة نفسها التى عاشها آباؤهم وأجدادهم منذ فجر التاريخ » ويعانون من ظلم الرومان وكثرة ضرائبهم (١) ، وما كان يتبع فى جمعها من وسائل عنيفة بل وزاد الرومان على ذلك أن حتموا عليهم امداد الحاميات الرومانية بما تحتاج إليه وامداد رجال الادارة فى تنقلاتهم من مكان إلى اخر . وقد أدت هذه القسوة بعدد كبير من اهالى القرى إلى هجر قراهم وبالتالى إلى ترك مساحات كبيرة دون زراعة (٢) ، فاضطر أصحابها أن يعيشوا على النهب والسطو مما أدى إلى اختلال الامن ، وإلى زيادة قيمة الضرائب على من بقوا فى بلادهم .

ورغم أن كثيرين من الأباطرة حاولوا إنعاش الاحوال الاقتصادية ، وتحسين أحوال الزراعة ، وتنمية التجارة ، من أجل مصالح الامبراطورية بطبيعة الحال ، إلا أن الحالة كانت قد وصلت إلى درجة من الانهيار .. اذ ما لبثت سلطة الحاكم أن انتقلت إلى كبار ملاك الاراضى الذين ضموا اليهم املاك المهاجرين أو العاجزين عن دفع الضرائب ، وتدهورت قيمة العملة ، وشعر المصريون الكادحون من العمال والصناع والتجار أن أرض بلادهم لم تعد ملكا لهم .

---

(١) كانت أهم الضرائب : ضريبة القمح والعقار والماشية والجمال والماعز عدا ضرائب الجندية على كل من بلغ سن ١٤ إلى ٦٠ سنة . وضرائب على التجار وضرائب المواصلات والنقل بين الوجهين . ولأهمية ضريبة القمح عينت الحكومة مسجلا خاصا للأراضى التى تزرع قمحا واهتم الرومان بمراقبة النيل وملاحظة مدى ارتفاعه أو انخفاضه وكانت الاراضى البعيدة عن النيل تدفع ضرائب أقل من تلك القريبة من النهر وكانت القرية كلها تساهم احيانا فى دفع الضرائب المطلوبة من سكانها ، راجع : G .Milnhe :A Hist . of Eg . under Roman Rule . Lond . 1898 . p . 121

(٢) يرى بعض المؤرخين أن طبقة صغار الملاك لم يعد لها وجود خلال القرنين الخامس والسادس (راجع د . ابراهيم نصحى : الموجز فى تاريخ مصر العام — القاهرة — النهضة سنة ١٩٤٤ ص ١١٥) وينقل إلينا فيلون — عن الاحوال المعاصرة له فى القرن الأول — عن جباة الضرائب الذين لا يتورعون حتى عن الحجز على جثة الشخص لارغام ذويه لدفع المتأخر عليهم . راجع ايدرس بل : مصر منذ عهد الاسكندر — الترجمة العربية — ص ١٥٠ .

يقول روستوفتزف « كانت أوضح ميزة تميزت بها الحياة الاقتصادية والاجتماعية منذ القرن الثانى الميلادى هى الشعور بهذا الضغط شعورا حادا أخذ يزداد ويضطرد ثقله بعد ذلك » ومما زاد من هذا الضغط أن طبقة الجند كانت « أداة الظلم والسلب » فأصبحت الحياة فى مصر أبعد ما تكون عن الطمأنينة فاختل نظام العمل ، واضمحل الانتاج ، وانتكست الصناعة اذ تجمعت إما فى المعابد أو حول قصور الحكام ، أما الحرف المنحطة فتركت لسكان البلاد الاصليين .

وكان المصريون فى أحوال الضيق هذه يعبرون عن إحتجاجهم بالالتجاء إلى أقرب معبد ، مضربين عن العمل ، وفى المعبد يبقون فى حالة بطالة وتواكل حتى يرفع عنهم الحيف أو تستخدم ضدهم القوة لإجبارهم على العودة إلى أعمالهم . لكن بعض الاقاليم لجأ إلى العصيان كإقليم طيبة فى عهد اكتافيوس فى القرن الاول الذى لجأ إلى طريقة أخرى اذ أعلن العصيان وقام بثورة جاء فى الوثائق عنها « أن القائد جايوس كورنيليوس جاللوس قد قمعها وأخضع طيبة مصدر الذعر لجميع الملوك »[1]

وكانت ثورات المصريين « ذات طابع قومى اقتصادى اجتماعى » فلجأوا إليها تحت تأثير العوامل المتعددة التى انهكتهم وهدت من قواهم ، فقد شعروا أن كدهم وألامهم — كما قيل لهم — كانت من أجل الامبراطورية الرومانية ممثلة فى شخص امبراطور روما المقدس ، وتدريجيا فقدوا عزاءهم الوحيد وهو الالتجاء إلى المعابد لان الاباطرة منعوا عنهم تدريجيا هذا الحق ، بل أن الكهنة الذين نظر إليهم المصريون على انهم قادتهم وقد رأوا حراب روما ، وجيوشها الجرارة تحتل بلادهم ، اضطروا إلى الاستسلام والخضوع .

وانعكست هذه الاحوال جميعا على التربية ، فقد عاش المصريون كما عاش أباؤهم وأجدادهم وبالطريقة التى تعلم بها هؤلاء ، ودرجوا عليها منذ آلاف السنين سار أحفادهم من المصريين فى ذلك العصر فعن طريق الممارسة العملية كانت خبراتهم وحرفهم تنتقل إلى أبنائهم إلى جانب ما كانوا يتلقونه من تعليم أولى فى المدارس الملحقة بالمعابد المجاورة . ويذكر المؤرخ روستوفتزف « إننا فى القرن الثالث الميلادى نسمع لأول مرة — فى عهد اسكندر سيسفيروس

---

(١) د . عبد اللطيف على : مصر والامبراطورية الرومانية — ص ٥٨ .

(٢٢٢ — ٢٣٥) عن مدرسي المدارس الأولية فى القرى كطبقة بل وفى المدن أيضا ، ووجود المدرسين كطبقة « يعنى توفرهم ، وبالتالى انتشار التعليم فى القرى والمدن ، وأن هذه المدارس كانت تضم عددا غير قليل من الاطفال . مما نستنتج معه أن انتشار المدارس الاولية فى القرن الثالث كان قاصرا على مدارس الكنيسة وأن ذلك جاء نتيجة ازدياد قوة الكنيسة فى هذا القرن كما يشير إلى ذلك المؤرخ نفسه ؟ اننا نعرف أن النظام الرعوى فى الكنيسة كان قد اكتمل منذ أواخر القرن الثانى وأصبح العمل التبشيرى خدمة منظمة لها رجالها وخدامها المتخصصون على القيام بها ، ونعرف أيضا أن الوثنية أخذت تنكمش رويدا فى ذلك الوقت تحت تأثير انضمام صفوة طبقات المجتمع إلى المسيحية مما أدى إلى تغير صورة المجتمع وطابعه الثقافى العام وبالتالى إلى انسلاخه تدريجيا عن الطابع الذى ساد عليه فى عهود الوثنية .

ومعنى ذلك أنه إلى جانب التعلم عن طريق الممارسة العملية ، وجدت فى العصر المسيحى بمصر مدارس أولية ازدادت انتشارا بازدياد قوة الكنيسة . ولا شك أن المدرسة كانت وسيلة فعالة لتكوين المجتمع الخاص الذى عملت الكنيسة على ايجاده ، والذى عملت أيضا على فصله عن جسم الدولة الرومانية ، كما سنرى ذلك بالتفصيل فيما يلى . وبذلك اتخذت مقاومتها للدولة شكلا سلبيا سلميا فى الآن نفسه . فالكنيسة لم تدع إلى مقاومة الدولة ولا إلى رد العنف بعنف مماثل ، وانما عملت على تكوين مجتمع خاص بالمسيحيين له طابعه المسيحى المتميز عن الطابع الوثنى ، وجعلت من المدرسة واسطة لتثبيت دعائم هذا المجتمع ، ولما كانت الكنيسة فى ذلك الوقت هى المسئولة عن التربية والتعليم ، ليس فى مصر فقط ، بل وفى أنحاء العالم الرومانى أيضا ، فإن ازدياد قوة الكنيسة كان يعنى ازدياد انتشار التعليم حتى أضحت الكنيسة فى القرن الثالث قوة هائلة ، وجاء الاضطهاد عاملا من عوامل تماسك المسيحيين وازدياد كنيستهم صلابة واحتمالا .

ولقد اقترن اعتناق المصريين للمسيحية بشعورهم أنهم انتقلوا إلى جو تسوده ثقافة من نوع آخر يختلف اختلافا جوهريا عما اعتادوا عليه فى جو المجتمع الرومانى . حقيقة أن عباداتهم القديمة بقيت ذات أثر واضح فى حياتهم الاجتماعية وتفكيرهم الدينى ، ولكنهم وجدوا فى مبادىء المسيحية تقاربا واضحا لعقائدهم وعباداتهم القديمة ، كما سبقت الاشارة ، بل أنهم وجدوا فيها

ما هو أهم من ذلك : وجدوا مجالا ليقظة قوميتهم ، وتعبئة مشاعرهم الوطنية بعد أن انهارت أوكادت تحت نير الضغط الرومانى .

لقد أيقظت المسيحية فى المصريين شعورهم بأنفسهم ، وكان هذا عاملا هاما من عوامل سرعة انتشارها ، فازداد عدد تابعيها ، وفى الاسكندرية وضح الصراع الدينى الفلسفى بين علماء المسيحية وعلماء المدرسة البطلمية ، واتخذ هذا الصراع شكلا عدائيا للرومان والاغريق بسبب ما قاساه المصريون إذ هاجمت المسيحية الوثنية : وثنية الرومان والإغريق دون هوادة . ويذكر بعض المؤرخين أن تأثير الآلهة المصرية القديمة بقى فعالا وخاصة بالصعيد الأعلى حتى بعد أن أصبحت المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية ، ومن أهم المعابد التى بقيت محافظة على هذا الوضع معبد الألهة ايزيس بفيلة ، وبعض المعابد الاخرى قرب أخميم ومن المعروف أنه لقوة هذه العبادات وتأصلها فى قلوب المصريين اضطر الاغريق أن يؤلهوها ويدمجوا فيها بعض آلهتهم كما فى عبادة سيرابيس التى نشأت فى منف ، وجعلها بطليموس الأول عبادة رسمية بالاسكندرية ثم بنى السيرابيوم بسقارة .[1]

أما الرومان فلكى يصبغوا مركزهم وسلطتهم بصبغة شرعية فى نظر المصريين عملوا على تقديم القرابين للنيل كما اتخذوا صفة الفراعنة الاقدمين .[2] وهذه من أوضح الأدلة على قوة الثقافة المصرية وتمكنها من هضم كل الثقافات الواردة عليها واخضاعها لسطوتها وتراثها .

فلماذا كان موقف الرومان من المصريين المسيحيين ؟ منذ القرن الاول لم يحاول الرومان أن يتعرضوا للمصريين فى حريتهم الدينية حتى أنهم نقشوا صور الالهة المحلية على نقودهم .[3] وكان ذلك جزءا من السياسة الرومانية فى الإبقاء على الروح المحلية حتى أنهم لم يفرضوا على المصريين عبادة آلهتهم أو آلهة الاغريق خشية الاصطدام بالشعور القومى وإنما عبدوا الآلهة المصرية التى أسبغت عليها أسماء اغريقية . فى الوقت نفسه لقد عمل بعض أباطرة الرومان

---

(١) راجع : استرابون فى مصر ــ القرن الاول ق . م . ــ ترجمة عن اليونانية وهيب كامل ــ القاهرة ــ مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٣ ــ ص ٦٣ .

(٢) راجع : د . عبد اللطيف على مصر والامبراطورية الرومانية ص ١٥٣ .

(٣) د . نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالسة ج ٢ ص ١٠٠

ــ لحماية مركزهم ــ على أن يكون لهم وضع دينى خاص يحميهم من العزل أو القتل فدعوا إلى عبادة أشخاصهم ، وقد قابل المسيحيين هذه الفكرة بمقاومة عنيفة للغاية .[1]

لكن ما أن أحس هؤلاء الأباطرة بأن المسيحية قد اتسعت انتشارا ، وازدادت أنصارا ، حتى تغيرت معاملتهم تغيرا كليا ، ففى أواخر القرن الثانى شعر « سيفيروس » أن سلطان الرومان قد بات فى خطر ، فبدأ اضطهاده المنظم من سنة ١٩٣ ــ سنة ٢١١ م بأن أجبر كل مسيحى على تقديم ذبيحة للأصنام وإلا قتل . وكانت كلمة « أنا مسيحى » كافية لإعدام صاحبها ، فالذين خضعوا لهذه الأوامر وأنكروا مسيحيتهم حصلوا على شهادة من الحاكم تثبت إخلاصهم وولاءهم ، أما الذين أصروا على الاعتراف بديانتهم فقد تعرضوا للموت ، أما الامبراطور مكسيميان (سنة ٢٣٥ ــ ٢٣٨ م) فقد أمر بتسليم رؤساء الكنائس للقتل باعتبارهم مسئولين عن نشر التعليم المسيحى ، وازدادت الاضطهادات عنفا وشدة فى عهد ديسيوس (٢٤٩ ــ ٢٥١) وبلغت قمتها فى عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ــ ٣٠٥ م) ثم فى عهد ماكسيميان (٣٠٥ ــ ٣١١ م) قسيمة فى الحكم ، وقد اعتبر القبط بدء تولى دقلديانوس الحكم سنة ٢٨٤ م أساسا لتقويمهم القبطى وأطلقوا عليه عصر الشهداء .

ولقد شاهد المجتمع الرومانى فى ذلك الوقت تحورا واضحا فى أساسياته وعقائده واتجاهاته ، فان عددا كبيرا من أعضاء الهيئة الحاكمة ذاتها اعتنق المسيحية : أعضاء السناتو ، ضباط الجيش ، الاطباء ، الموظفون ، مع عائلاتهم وأقاربهم ، وكثيرون منهم تقدم للاستشهاد ، فكان ذلك ايذانا بتغيير معالم المجتمع الرومانى وانهيار المثل والمبادىء والقيم التى سادت المجتمع الرومانى مئات السنين لتحل محلها المثل والقيم والمبادىء المسيحية .

فلما كانت اوائل القرن الرابع ، أى على عهد الامبراطور قسطنطين (٣١١ - ٣٣٧ م) اعترفت الدولة رسميا بالمسيحية ثم جعلتها الدين الرسمى الوحيد فى عهد الامبراطور تيؤدوسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥ م) . ومنذ ذلك الوقت وتاريخ مصر هو تاريخ بطاركتها الذين لم يعودوا قادة المصريين الدينيين

---

(١) راجع Milne : Eg . under the Rom . Rule p . 87

فحسب ، بل وزعماءهم الوطنيين أيضا ، فقد قادوا حركات المقاومة الوطنية ضد أباطرة الرومان فى ثبات وبذلك اتخذت الخلافات الدينية شكل جهاد وطنى . لذلك فليس غريبا أن يطلق بعض المؤرخيين على بطاركة مصر فى تلك الفترة « فراعنة الكنيسة المصرية » ومن الأدلة على قوة تأثيرهم ومدى سلطانهم أن البابا تيؤفيلوس (البابا ٢٣) قاوم أعداءه الدينيين بلا هوادة . أما البابا كيرلس (٢٤) فقد كان الحاكم الفعلى للاسكندرية حتى أن الحاكم الرسمى عجز عن حماية مدارسها الفلسفية من هجوم رجاله . وكان ذلك على عهد الامبراطور تيؤدوسيوس الثانى (٤٠٨ – ٤٥٠) وأما نفى البابا ديوسقورش ٢٥ فى عهد الامبراطور ماركيان وأقيم بدلا منه بروتيريوس Proterius لم يزد ذلك ثورة المصريين الا اشتعالا أدى إلى إبعاد هذا البطريرك الدخيل (د . نصحى . مصر فى عهد البطالسة ج ٢ ص ١٠٤)

ولئن كانت الأمور قد استتبت للمسيحية فى مصر ، إلا أن الخلافات الطائفية بين عقيدتى الطبيعة الواحدة ، والطبيعتين قد عرضت المصريين لأن يظلوا تحت نير الاضطهاد وإن اتخذ هذه المرة شكلا مذهبيا طائفيا شنته القسطنطينية فى النصف الثانى من القرن الخامس وبالتحديد منذ سنة ٤٥١ م وهى السنة التى عقد فيها مجمع خلقيدونيه وقرر حرم البابا المصرى ديوسقورس — البابا ٢٥ فى تعداد البابوات المصريين — وإذن فقد « حمل أساقفة الاسكندرية راية الجهاد المذهبى ضد الكنيسة المركزية كما حمل أسلافهم من زعماء الاسكندرية الوثنية راية المقاومة ضد الحكومة الامبراطورية » ذلك أن مجمع خلقدونية حتى رفض مذهب الاساقفة المصريون فى الاعتراف بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للسيد المسيح — وقف منه المصريون موقف العداء ، مؤازرين أساقفتهم المصريين ، وكانت هذه المؤازرة — هى فى جوهرها — مؤازرة للحركة القومية ضد السلطات الرومانية ، بل أن الرهبان المصريين ، وخاصة فى الصعيد الأعلى ، وليس فى الاسكندرية فقط ، عملوا على مقاومة الثقافة اليونانية ، والألحان والعبادات اليونانية الواردة فى الطقوس والصلوات القبطية .

هذه الأحوال جميعا لاشك قد انعكست آثارها على التربية والتعليم ، لكن — الكنيسة — كما سبق أن ذكرنا — كانت هى المسئولة عن إعداد أطفالها وتربيتهم وجعلت إعدادهم للاستشهاد أحد أهدافها الأساسية . فالتربية إذن

كانت تحقق وظيفة دينية هامة . ولقد وجد المصريون فى المسيحية دعوة جديدة بل ومبدأ جديدا وحياة جديدة عملوا على أن يحيوها وينقلوها بدورهم إلى الأجيال الناشئة . ومن هنا ألحقت بكل كنيسة مدرسة للتعليم المسيحى لتعليم الكبار والصغار جميعا . ولأن الثقافة المسيحية أو بمعنى أوضح الحياة فى ظل مبادىء المسيحية تختلف اختلافا جوهريا عنها فى ظل المبادىء الوثنية الاغريقية الرومانية [1] ، فقد كان حتما أن تنعزل « الجماعة » المسيحية الجديدة عن المجتمع الرومانى ، وتكون وحدة مستقلة قائمة بذاتها . وبذلك اتخذت التربية فى مصر شكلين واضحين متميزين من المدارس ، مدارس ذات أصل وثنى ، ومدارس لتعليم ونشر المسيحية . وسارت التربية على هذا الشكل المزدوج ، فكان طبيعيا أن يقوم صراع بين الوثنية والمسيحية إلى أن انتصرت المسيحية وأصبحت فى نهاية القرن الرابع ــ وبالتحديد سنة ٣٧٩ م ــ الديانة الرسمية للدولة .

وبالنسبة للمسيحية كان التعليم ضرورة ووظيفة ، فمن ناحية أن المسيحية دين تبشيرى لابد لانتشاره من التعليم ، ومن ناحية أخرى أن التعليم أصبح عنصرا أساسيا من عناصر حياة الجماعة المسيحية ومقوما أساسيا من مقومات وجودها واستمرارها . ومما زاد فى أهمية التعليم كأداة حيوية للكنيسة المصرية المسيحية أنه كان موضع اهتمام المصريين منذ أقدم العصور كما سبق الذكر . ومن هنا تأكدت قيمة التربية وبالتالى وظيفتها الأساسية فى المجتمع المسيحى ، وكانت شهادة يوسابيوس مؤرخ الكنيسة فى القرن الرابع دليل صدق على ذلك فهو يذكر « أنها كانت عادة المسيحيين أن ينشئوا المدرسة فى كل مكان ينزلون فيه »[2] . ورغم أن المسيحيين عانوا ضيقا واضطهادا من الكنيسة المركزية بالقسطنطينية لا يقل شدة وعنفا عن اضطهاد الدولة الرومانية الوثنية إلا أن الاضطهاد بوجه عام ــ كان « يزيد من تماسكهم حتى حظيت الكنيسة فى القرنين الثالث والرابع بقوة هائلة » وهى تحمل شعار الرحمة والمحبة والمواساة .

---

(١) يقول فيشر « ان الوثنى المنقلب إلى المسيحية كان يجد نفسه فى عالم ذى قيم مخالفة تماما لقيمه السابقة » راجع تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ــ الترجمة العربية ص ٨ .

(٢) Eusebius : The Ecc . Hist . Lond . 1954 . p . 155 .

هذا التماسك والثبات فى مواجهة الاضطهاد كان وراءه ولا شك خطة تربوية استهدفت إعداد المواطن القبطى فى هذه الفترة لمواجهة المجتمع الذى يضطهده ويطارده ، ومن الملاحظ أن هذه الخطة قد تقلبت على نوعين من الاضطهاد : اضطهاد العهد الوثنى وكان اضطهادا دينيا من سنة ٦٠ م حتى أوائل القرن الرابع أى حتى صدور المرسوم الدينى للتسامح سنة ٣١٣ م على عهد قسطنطين ، ثم اضطهاد العهد المسيحى وكان الاضطهاد فيه مذهبيا حتى دخول العرب مصر سنة ٦٤٠ م . فلئن استهدفت التربية القبطية ــ ازاء اضطهاد الدولة الرومانية الوثنية ــ إعداد المواطن المسيحى ، فإنها استهدفت ــ ازاء اضطهاد الكنيسة المركزية ــ إعداد « المواطن الارثوذكسى » المؤمن ، والتمسك بمذهب الطبيعة الواحدة . وكان أن تبلورت مشاعر المصريين بالضيق من الظلم الرومانى فى مقاومتهم للاضطهاد الذى شن عليهم ، والثبات فى مواجهته واحتماله فكانت مقاومتهم فى أساسها ثورة قومية وطنية وإن أتخذت شكلاً دينيا .

ولم يكن اتجاه الجماعة المسيحية الجديدة إلى الانفصال عن المجتمع الرومانى بأصنامه وأباطرته المؤلهين[١] ، ومثله وقيمه ، بالشىء الجديد على المصريين ، فقد كانت هذه عادتهم ــ كما سبق القول ــ حين تضيق بهم الحال أن يلجأوا إلى المعابد محتجين ، ومضربين عن ممارسة أعمالهم ، ولم يختلف موقفهم فى العصر القبطى فى العصر البطلمى خاصة وقد أكدت لهم وصايا معلميهم ورسلهم هذا الاتجاه[٢] ، وهكذا استهدفت التربية المسيحية عموما فصل أعضائها عن المجتمع الرومانى بأوزاره المتعددة ، فالقديس بولس فى الكثير من رسائله يوصى بعدم الاختلاط مع الاشرار ، وكذلك الآباء الرسل فى العصر المسيحى الأول جاءت فى توجيهاتهم وصايا صريحة عن ضرورة الانعزال عن

---

(١) منذ أوائل القرن الاول ظهرت عبادة الامبراطور الرومانى اذ طالب الامبراطور كاليجولا رعاياه بعبادته واقامة تماثيله فى مختلف المعابد (د . عبد اللطيف على : مصر والامبراطورية الرومانية ــ ص ٨٦) .

(٢) الدسقولية أو تعاليم الرسل ــ الترجمة العربية ــ حافظ داود ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٠ الباب ٢٩ والباب ٣٠ ص ١٦٠ (دسقولية كلمة يونانية معناها تعاليم) .

المجتمع الوثنى منها « انتهوا عن جميع محافل الأمم ، وأصنامهم وأعيادهم ، وصلواتهم وكل مناظرهم » ونستدل من هذا كله ، ومن نصوص أخرى كثيرة ، سواء فى الكتاب المقدس ، أو فى تعاليم الرسل ، وفيما تركوه من تقاليد ، أن التربية المسيحية عملت على فصل أولادها عن الانحلال السائد فى المجتمع الرومانى الوثنى ، واتجهت الكنيسة إلى أن يكون لها جوها الخاص الذى يتباين فى قيمه ومثله ومبادئه عن جو المجتمع الرومانى .

وكان لابد أن تعكس التربية المصرية المسيحية هذا الاتجاه ، مما أوضح التمايز بين الكنيسة والمجتمع الذى تعيش فيه وظهر هذا التمايز فى أقوى صوره فى تفضيل المبدأ على الفرد ، ثم التقدم للاستشهاد فى سبيل هذا المبدأ .

لكن هل عنى ذلك أن التربية المسيحية فصلت بين المسيحيين وبين واجباتهم المدنية فى المجتمع ؟ الاجابة بالنفى . يقول القديس بولس فى إحدى رسائله « أعطوا الجميع حقوقهم : الجزية لمن له الجزية . الخوف لمن له الخوف ، الاكرام لمن له الاكرام »(١) وهذه الحقيقة مستمدة من كلمات السيد المسيح نفسه « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وفى هذا الصدد يوصى القديس بولس تلاميذه بأن « يخضعوا للرياسات والسلاطين » بل لقد أوصت تعاليم الرسل بضرورة الصلاة « لأجل الملوك والذين هم فى منصب » لكى يقضى المسيحيون « حياة هادئة مطمئنة » ولذلك ضمنت قداسها طلبة خاصة لأجل الحكام تعرف بأوشية السلامة . ونحن نرى أن هذه الوصايا تحمل بين طياتها توجيها للمسيحيين أن يقوموا بواجباتهم المدنية والاجتماعية على أتم وجه وأن يعطوها حقها من الاهتمام . ولم تدع الكنيسة إلى الثورة أو العنف فى مقاومة النظم الاجتماعية الظالمة كالاسترقاق مثلا وما كان يصحبه من امتهان الكرامة الانسانية اذ كان الانسان يباع كالسائمة فى الأسواق ، وانما دعت العبيد إلى « تقديم الطاعة لسادتهم كما للمسيح »(٢) كما دعت السادة إلى معاملتهم « بالرفق لا بالتهديد » وزادت الكنيسة فى تعاليمها هذه النصوص وضوحا

---

(١) الكتاب المقدس ـــ العهد الجديد ـــ القديس بولس فى رسالته إلى كنيسة روما : فصل ١٣ عدد ٧ .

(٢) الكتاب المقدس ـــ العهد الجديد ـــ القديس بولس فى رسالته إلى كنيسة أفسس : فصل ٦ عدد ٥ .

فأوصى الرسل العبيد أنه « يجب على العبد أن يخدم سيده جيدا بخوف الله ، ولو كان سيده مخالفا أو فاسقا لكن لا يتشبه به فى فعله . أما السيد فيجب أن يحب العبد وإن كان مخالفا له فى الجنس ، أن يحفظ له المال لأنه إنسان مساو له فى جوهر الإنسانية . والذى له سيد مؤمن فليحبه كسيد ومؤمن ، وليفعل له ما يجب للصديق ويعلم أن الله يجازيه بأجرته فى الدهر الآتى لإجل طاعته التى فعلها . وأيضا السيد الذى له عبد مؤمن وإرادته مستقيمة فليحبه كولد لأجل مشاركته له فى الامانة . وفى هذه الوصايا كلها إبراز لقوة العوامل الشخصية ، والرعاية الإنسانية مما لم يتوفر وقتها فى العلاقات بين الحاكم والمحكوم — أى بين الدولة الرومانية والشعوب الخاضعة لها — كما أوضحت ذلك شهادة المؤرخين ، فقد ذكر روستوتوفتزف « أنه بينما كان شعار الدولة الظلم والاضطهاد كانت الكنيسة تسلك سبيل المحبة والرحمة والمواساة ، وانفردت الكنيسة من بين الهيآت الدينية والاجتماعية بتخفيف متاعب الحياة الدنيا » .

وواضح من هذه الوصايا أن التربية المسيحية وأن لم تدع إلى العنف أو الثورة ضد نظام الاسترقاق ، إلا أنها أوصت العبد المسيحى ألا يتشبه بسيده « اذا كان مخالفا أو فاسقا » أى لا يقتدى به فى سلوكه وإنما يحتفظ بمبادئه المسيحية ، فالتوجيه التربوى المسيحى لم يستهدف أن ينفصل المسيحيون عن واجباتهم فى المجتمع ، وإنما أن ينفصلوا عن خلقيات هذا المجتمع ومثله التى تختلف فى جوهرها عن المثل المسيحية .

وعندنا مثال واضح نستدل به على صحة هذا الرأى : ففى نهاية القرن الثالث فى عهد دقلديانوس وكان يرأس الكنيسة المصرية البابا تاؤنا — السادس عشر فى عداد بابوات الاسكندرية — أرسل هذا البابا رسالة طويلة إلى لوسيانوس كبير الامناء فى بلاط الامبراطور الرومانى يحثه على الأمانة فى أداء واجباته ومهامه الخطيرة فى القصر الملكى . وجاءت هذه الرسالة معبرة أحسن تعبير عن روح الآداب المسيحية ، وعن توجيه المعلم الكنسى لأبنائه فى ضرورة القيام بواجباتهم المدنية على أتم وجه رغم وجودهم فى مجتمع وثنى يحض على اضطهادهم ومطاردتهم[1] .

---

(١) راجع الترجمة الانجليزية للرسالة فى : Ante- Nicene Fathers- Michigan 1953, Vol VI p. 158

وراجع ايضا : بتلر : فتح العرب لمصر . الترجمة العربية — دار الكتب سنة ١٩٣٣ صـ ٩٣ .

وتعتبر هذه الرسالة الأثر الوحيد الباقى لهذا البابا الذى قضى فى البطريركية تسعة عشر عاما بين سنة ٢٨٢ ، ٣٠٠ م وعاصر أشد فترات الاضطهاد حدة . وقد قسم المترجم الرسالة إلى تسعة أقسام وبتحليلها يتضح أن البابا يحث الموظف الكبير على العمل بأمانة فلا يقبل رشوة بل يتصرف فى كل شيء بالأمانة التى تمجد المسيح ، ثم يوصيه باحترام الامبراطور ، وخدمته بمنتهى العناية . بعد ذلك يوجه البابا نصائحه تفصيلا لكل موظف من موظفى القصر المسيحيين ويحصر هؤلاء الموظفين فى أمين الخزانة ، حافظ الملابس ، أمين الأوانى الثمينة ، ثم أمين المكتبة . ولعل أهم النصائح ما جاء خاصا بأمينى الخزانة والمكتبة . فإلى أمين الخزانة يتوجه بالقول « أن يكون دائما مستعدا لأن يقدم حسابات دقيقة عن الأموال التى بين يديه « أى أن يكون أمينا » أما أمين المكتبة فيتوجه إليه قائلا « إنك مسئول عن توجيه قراءات الامبراطور ومطالعاته فينبغى أن تضع أمامه كتب التاريخ والشعر والفلسفة ، وأيضا الصترجمة السبعينية للتوراة [١] ، ويمكنك عن طريقها أن تتطرق معه إلى دراسة الاناجيل والرسائل المقدسة . ولذلك يجب أن تكون على علم بكل الكتب التى بالمكتبة وأن تحسن تبويبها وتنظيمها [٢] أما إذا قامت الإمبراطورة بزيارتكم فكونوا جد حريصين فى نظراتكم وسلوككم وكلماتكم . ويختم البابا نصائحه بأن يطلب إلى لوسيانوس ألا يدع يوما يمر دون أن يقرأ فصلا من الكتب المقدسة ، وأن يخلو لبعض الوقت للتأمل ، وألا يقطع هذه العادة لأنه لا شيء مثل الاسفار المقدسة طعام للروح وغذاء للعقل .

فلئن فصلت المسيحية ابناءها روحيا عن جو المجتمع الرومانى إلا أنها أوصتهم بأداء واجباتهم المدنية على أتم وجه ، ولم يكن هذا قاصرا على كبار الموظفين فقط وأنما إمتد حتى إلى العبيد باعتبار أن عليهم واجبات معينة يجب أن يؤدوها .

والآن وقد انتهينا من الحديث عن الأحوال السياسية والإجتماعية والإقتصادية في العصر القبطى وانعكاساته على إتجاهات التربية نخصص الفصل التالى

---

(١) عرفت بالترجمة السبعينية لان العلماء اليونانيين واليهود الذين قاموا بها كان عددهم سبعين — وكان ذلك على عهد بطليموس الثانى .

(٢) يستدل بتلر من ذلك على أن البابا كان على علم بمحتويات هذه المكتبة العظيمة . (بتلر — فتح العرب لمصر — الترجمة العربية — ص ٩٤) .

للمؤسسات التربوية أو عوامل وأوساط التربية لنتتبع تأثيرها على هذه الإتجاهات، ونرى إلى أي حد ساهمت في إيجاد صورة المجتمع المسيحي بعد صراعها مع القوى الوثنية السابقة لها.

الفصل الخامس

المؤسسات التربوية
فى العصر القبطى

أولاً: المنزل والتربية المنزلية:

تأتى أهمية البيئة المنزلية في التربية من أنها البيئة الإجتماعية التى تتفتح مدارك الطفل لأول مرة على من بها من أفراد وعلى ما يقوم بين هؤلاء الأفراد من علاقات يمتص منها صور سلوكه ويكون الكثير من إتجاهاته. وغير خافٍ ما لانطباعات التربية المنزلية ــ بالنسبة للطفل في مرحلة نموه المبكرة ــ من تأثير واضح في سلوكه في مراحل عمره التالية. ولهذا السبب كان استقرار الأسرة وقوة ارتباط أفرادها، وصعوبة انفصام عقدها، عاملاً هاماً من عوامل نمو الطفل النفسي نمواً سوياً سليماً خالياً من الإنحرافات(١).

وما نريد أن نناقشه في هذا الفصل هو: هل أولت التربية القبطية هذا العامل الهام ــ ونعنى به المنزل ــ الإهتمام الجدير به؟ وهل يمكن اعتبار المنزل المصرى المسيحي ــ في العصر القبطى ــ وهو عصر اضطهاد ــ وسطاً من أوساط التربية المقصودة الموجهة؟ وإلى أي حد ساهم هذا العامل في حفظ تراث المجتمع المصرى وفي الإبقاء على خبراته والإضافة إليها؟

المسيحية والطفولة:

إن ما يحدد لنا إجابة هذه الأسئلة أن نعرف اتجاه التربية القبطية إزاء الطفل، وقد رأينا أن هذا الإتجاه مستمد من مصدرين هما المسيحية والتراث المصري القديم. أما عن التراث المصري القديم، فقد سبقت أن أوضحنا أن هذا التراث شمل بين ما شمل ــ تراثاً خلقياً عظيماً تمثل فيما ساد المصريين في أزمنهم القديمة من المثل والقيم وفي مقدمتها «احترام المرأة وحب الزوجة والاهتمام بالطفل والعناية بتربيته». وجاء المسيحية مؤكدة لهذا الإتجاه الذس ظهر في دعوة

---

(١) راجع: Cyril Burt; The Backward Child- London 1951 - P. 104, 110, 129, 131.

يقول برت «في دراستنا للولد المتأخر يجب ألا نهتم بدراسة الظروف المدية المحيطة به، وإنما ندرس أيضاًالإتجاهات العاطفية والعلاقات الإنسانية السائدة على جو الأسرة وبين مختلف أعضاء المنزل فإن لها أكبر الأثر في نفسية الطفل».

كما يذكر الأستاذ الدكتور عبد العزيز القوصي أن «دراسة لما يزيد عن ٣٠٠ حالة من حالات الأحداث المجرمين والمشردين بينت أن ٧٥٪ تقريباً منها ترجع إلى إنهيار صرح الأسرة، ويقول » أن هذا يدل على أن تماسك الأسرة أثره القوي المباشر في سلوك الأبناء». راجع: أسس الصحة النفسية، القاهرة مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة ١٩٤٨ ص١٧٨،١٧٩.

مؤسس المسيحية للأطفال، وترحيبه بهم، وعطفه عليهم، ودفاعه عنهم (١)، ثم اعتبارهم القمة لمستوى البر والفضيلة (٢)، لما يتميزون به من براءة وبساطة وطهارة، بل لقد وضع حداً لنظرة المهانة التي اعتاد المجتمع الإنساني عامة أن ينظر بها إلى الطفل بقوله «أنظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار(٣)». وعلى هذا النهج سارت الكنيسة بعد ذلك، فقد أوصى القديس بولس، في الكثير من رسائله، الآباء بأن يولوا أولادهم عنايتهم ورعايتهم بل إنه حذرهم من مغبةسوء معاملتهم لهم بقوله «أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم لئلا يفشلوا، بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره (٤) ».

على أنه من المعروف أن الاهتمام بالأطفال أمر طبيعي لكل دعوة جديدة إلا أن أبرز اتجاه المسيحية اختلافه الواضح البين عن اتجاهات المجتمعات المعاصرة لها. ولذلك نرى ــ قبل أن نناقش دور المنزل كعامل من عوامل التربية القبطية وموقفه من الطفولة، والقيم التي وجهته ــ أن نعرض ــ في عجالة واختصار ــ لاتجاهات المجتمعات المعاصرة للمسيحية إزاء الطفولة وهي المجتمع اليهودي والمجتمع اليوناني، ثم المجتمع الروماني، لنرى ــ في ضوء هذا العرض ــ مدى التغيير الذي جاءت به المسيحية.

أولاً ــ المجتمع اليهودي:

لقد انصب التوجيه التربوي اليهودى على عدم منع العصا عن الأطفال، فقد جاء في تعليم سليمان الحكيم عن تربية الأطفال قوله «لأنك إن ضربته بعصا لا يموت(٥) وفي مكان آخر يقول «الجهالة مرتبطة بقلب الولد، عصا التأديب تبعدها عنه»، و«العصا لظهر الناقص الفهم» (٦)، بل لقد تناهت اليهودية في دعوتها إلى القسوة في تأديب الأبناء إلى حد أنها أباحت قتل الولد العاق المتمرد، ففي سفر التثنية يقول موسى النبي «إذا كان لرجل إبن معاند ومارد لا يسمع لقول أبيه ولا لقول أمه ويؤدبانه فلا يسمع لهما يمسكه أبوه

(١) انجيل القديس متى الأصحاح ١٩:١٣ــ١٥
(٢) المرجع السابق أصحاح ٣:١٨
(٣) المرجع نفسه والأصحاح نفسه: ١٠
(٤) القديس بولس الرسول في رسالته إلى كنيسة أفسس أصحاح ٤:٦
(٥) العهد القديم ــ سفر الأمثال أصحاح ٢٤:١٣، أصحاح١٥:٢٢
(٦) المرجع نفسه أصحاح ١٣:١٠

وأمه ويأتيان به إلى شيوخ مدينته وإلى باب مكانه ويقولان لشيوخ مدينته «إبننا هذا معاند مارد لا يسمع لقولنا وهو مسرف وسكير»، فيرجمه جميع رجال مدينته بحجارة حتى يموت فتنزع الشر من بينكم ويسمع كل إسرائيل ويخافون(١).

ثانياً : أما التربية اليونانية: فقد وضحت في أسبرطة وأثينا. ففي **أسبرطة** اتجهت التربية إلى تكوين المواطن الجندي الذي تلزمه ظروف بلاده أن يكون دائماً مستعداً للقتال ولحماية وطنه (مدينته بمعنى أدق). وكان الوليد في هذه المدينة يعرض على شيوخها ليقرروا إن كان يصلح للحياة أم لا فإذا ثبت ضعفه ترك عارياً على الجبل ليموت. أما الصبيان فكانوا يرسلون إلى المعسكرات حيث تحلق شعورهم، ويتركون حفاة طول الوقت إلى جانب تدريبهم تدريباً خشناً لأن غذاءهم كان من نوع ردىء، وغير كاف، فقد كان يسمح لهم أن يتسللوا لسرقة الطعام بشرط ألا يضبطوا، فإذا ضبط أحدهم جلد علناً. وقد شمل الإهتمام بالتربية البدنية الفتيات أيضاً، فكن يقسمن إلى فرق ويتدربن تدريباً رياضياً بلغ درجة كبيرة من الخشونة والفكرة من ذلك أن الفتاة القوية البدن يمكنها أن تنجب أطفالاً أصحاء (٢).

أما أثينا فكانت أكثر ديمقراطية وإرتقاء بما ساد مجتمعها من إتجاهات فلسفية نادى بها سقراط وأفلاطون وأرسطو فانعكست آثارها على الإتجاهات التربوية.

وكانت حقوق المواطنة فيها أكثر إتساعاً مما كانت عليه في أسبرطة، لكنها مع ذلك ميزت بين تربية أرستقراطية وتربية مهنية: بين تربية حرة وتربية حرفية. وعبر أرسطو عن هذا التميز بقوله «إن البحث وراء العمل النفعي لا يناسب النفوس الحرة العالية».

وقد شابهت التربية الأثينية التربية الأسبرطية في التخلص من الطفل الضعيف، فإذا أبقى على الطفل قامت معاملته على العنف فلم يكن ثمة مانع من ضربه بالنعال والعصى. هذا في مرحلة الطفولة المبكرة. أما فيما بين السابعة والسادسة عشرة فكانت التربية تتجه إلى تكوين الفرد تكويناً متناسقاً متزناً من النواحي الجسمية والعقلية والوجدانية والخلقية ولكن النظام في المدرسة مع

---

(١) العهد القديم سفر التثنية أصحاح ٢١:١٨ــ٢١

(٢) Butts, op. Cit. p. 53، فتحية سليمان: التربية عند الإغريق والرومان ص ١٣

ذلك كان قاسياً للغاية فكان الطفل يجلد ويضرب بقسوة.

وبعد السادسة عشرة كانت الفروق الطبقية تظهر واضحة، فبينما يمكن للأثرياء إكمال تعليمهم في معاهد التربية العامة Gymnasium إذ بغيرهم يخرجون إلى كسب عيشهم.

وهكذا نرى أنه رغم أن أثينا كانت مركزاً للفكر اليوناني، إلا أن هذا الفكر خانه التوفيق في النظر إلى الطفولة بعين الاعتبار، ونزل إلى مستوى الخشونة التي اتبعتها أسبرطة في إعداد أطفالها وشبابها للحرب (١).

ثالثاً: أما التربية الرومانية فقد وجهت على أساس أن الرومان هم أعظم الأجناس البشرية وبأنهم خلقوا للسيادة والتحكم. لكنهم إلى جانب ذلك كانوا قوماً عمليين واقعيين (٢) ذوى تفكير منظم، ورغم ذلك كان الطفل الروماني قيد رحمة أبيه فإما أن يميته أو يبقى عليه (٣) وخاصة بين الطبقات الفقيرة. وقد وجهت التربية لخدمة الدولة ذلك أنهم اعتقدوا أن أهم وظيفة للحكمة والمعرفة هي خدمة الدولة. وكان المجتمع الروماني يمثل هرماً كبيراً: الإمبراطور على قمته هو وعائلته وأتباعه يليهم ضباط الجيش فالكهنة وعدد قليل من كبار التجار. وهذه القمة ترتكز على قاعدة كبيرة من الشعب. وكان التعليم من نصيب أبناء الطبقة الأرستقراطية الذين كانوا يوفدون إلى أشهر المدارس والجامعات، بينما لم يكن نصيب أبناء الشعب إلا التدريب المهنى في أضيق حدوده.

ومن هذا العرض نرى أن طابع العنف هو الطابع الذي ساد اتجاهات التربية في المجتمع . فهل أتت المسيحية باتجاهات جديدة تخالف ما كان سائداً في هذه المجتمعات؟ هل نادت بقيم جديدة ومثل عليا جديدة تختلف عن القيم والمثل التي كانت معروفة وقت ظهورها في المجتمعات الكبيرة المعروفة؟ هذا ما نريد

---

(١) لئن كان أفلاطون قد دعا إلى عزل الأطفال وتسليمهم إلى مربيات عموميات إلا أنه محا الرابطة العائلية، فقد رغب في جعل النساء يتمتعن بالحرية كالرجال تماماً إذ اعتقد أن المرأة قادرة على القيام بما يقوم به الرجال وإذن فليس ثمة داع لربطهن بالأطفال أو بمسئولية التربية فهن كالرجال يمكن أن يكن حكاماً أو جنداً.

راجع .G. Lowes Dickinson, Plato and His Dialogues, Pelican Bookshop. 1947 p. 71

(٢) منرو ــ تاريخ التربية ــ الترجمة العربية ــ صالح عبد العزيز ص ١٨٨.

(٣) راجع: بل ــ الترجمة العربية ــ ص ١٦٥

بيانه، ولكن قبل أن نجيب على هذه الأسئلة نكرر ما سبق أن قلناه عن إتجاه المسيحية ـــ بوجه عام ـــ في مصر وغير مصر ـــ في القرون الميلادية الأولى ـــ إلى تكوين مجتمع خاص بالمسيحيين، متميز بقيمه ومثله واتجاهاته: الروحية والخلقية والإجتماعية عن المجتمع الروماني والوثني، وإن كان هذا لم يمنع المسيحيين من ممارسة واجبات وظائفهم في المجتمع وفي الدولة، وهذا ما اتبعته التربية المصرية في العصر القبطي مستهدية في معاملة الطفل، وتوجيه المنزل القبطي بالقيم الآتية:

أولاً ـــ إكرام المسيحية للطفولة: ترك إكرام السيد المسيح للأطفال، ودعوته الخاصة لهم، ووضعهم كمثل أعلى في الطهر والنقاء حتى نبه المؤمنين جميعاً إلى أن براءة الأطفال شرط أساسي لدخول ملكوت السموات (١) ، نقول ترك هذا الإتجاه أثراً عميقاً في نفوس الآباء والأمهات وكان إيذاناً بتغيير النظرة إلى الطفل فلم تعد نظرة الجفاء والقسوة وإنما أصبحت نظرة العطف والرعاية فألغى قتل الأطفال الذي كان معمولاً به في المجتمع اليهودي حتى أن قسطنطين أصدر أمراً بمنع هذا القتل (٢).

وقد تبع اهتمام المسيح بالطفل تأكيد من الكنيسة على الآباء بضرورة الاهتمام بتربية أبنائهم: فالرسول بولس، أحد فلاسفة المسيحية في القرن الأول يوصي الآباء في إحدى رسائله قائلاً: «أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم بل ربوهم بتأديب الرب وإنذاره. وواضح أن النهى عن غيظ الأبناء يحمل ضمناً معنى العطف والاحتمال. وفي الوقت نفسه يوصى هذا المعلم المسيحي الأبناء بطاعة والديهم قائلاً «أيها الأولاد أطيعوا والديكم في الرب لأن هذا حق»، «أكرم أباك وأمك التي هي أول وصية بوعد لكي يكون لكم خير وتكونون طوال الأعمار على الأرض». ونلاحظ أنه اشترط لطاعة الأبناء أن تكون «في الرب» وحكمة ذلك واضحة: فهذه الرسالة قد كتبت في القرن الأول، حين كانت الوثنية متفشية، فالوصية تنصب على الطاعة فى الرب أي في الحق والإيمان، خشية إذا تركت مطلقة أن تفهم على أنها الطاعة في كل شيء حتى في عبادة الوثن والباطل.

---

(١) إنجيل القديس متى أصحاح ٤:١٨ وراجع أيضاً اكلميندس الاسكندري في موضوعه «اهتمام المسيح بالطفولة» الترجمة الإنجليزية في مجموعة:

Ante ' Nicene Fathers michigan 1956, Vol. 2 p. 217.

(٢) Latourette, Op. Cit. p. 273.

وأكد القديس بطرس هذا الإهتمام بالطفل حين ذكر في عظته التى ذكرها المؤرخ القديس لوقا في سفر أعمال الرسل «لأن الموعد هو لكم ولأولادكم»(١) كما حتم التقليد الكنسى ضرورة عماد الأطفال، فكان هذا تأكيداً لإعتبارهم واعترافاً بمقامهم الجديد.

وفي التربية القبطية التقى هذا التوجيه باهتمام التربية المصرية في الأزمنة القديمة بالطفل، وتربيته. ولعل فيما ذكره ديودور الصقلي، واسترابون عن اهتمام المصريين بتربية أطفالهم والعناية بتوجيههم أقوى دليل على ذلك. فقد قال ديودور الصقلي «إن من صفات المصريين أن كل طفل يولد لهم يلقي حظه الكامل من التربية والرعاية، وكان القانون في مصر يقضي على من يرتكب جريمة قتل طفله أن يظل محتضناً الطفل القتيل لمدة ثلاثة أيام، وليال كاملة(٢) أما استرابون فقد قال « إن من التقاليد التي رعاها المصريين بوجه خاص عندهم أن يربوا كل من يولد لهم من أطفال» (٣) وكان لهذا الإتفاق بين التراث المصري القديم، وبين المسيحية، في نقطة احترام الطفولة، أثراً كبيراً في تأكيد هذا الإتجاه في العصر القبطي وفي أن يحظى الطفل القبطى من المنزل والمدرسة والكنيسة بالعناية الجدير بها.

ثانياً ـــ إكرام الوالدين: وكان طبيعياً أن يقترن اهتمام المسيحية بالطفل والطفولة بالجانب المقابل وهو احترام الوالدين وإكرام الأمومة بصفة خاصة. وهذه أيضاً التقت بالإتجاه نفسه في التربية المصرية القديمة. فلقد بلغ احترام المصريين للمرأة ـــ كما سبق القول في الفصل الأول ـــ درجة اعتقد معها بعض الباحثين «أن ليس ثمة شعب قديم أو حديث قد رفع منزلة المرأة كما فعل سكان وادى النيل». وكثيراً ما أوصى الآباء أبناءهم «أن يحترموا أمهاتهم اللائي حملتهم» وفي المسيحية، الوصية نفسها قالها القديس بولس الرسول «أكرم أباك وأمك»، وياأيها الأولاد أطيعوا والديكم في كل شيء لأن هذا مرضي عند الرب (٤).وكان لصورة السيدة العذراء الأم مع السيد المسيح إيحاء قوى جداً في إبراز معنى الأمومة. وقد زاد من هذا الإيحاء سلوك السيد المسيح في طفولته إزاء أمه إذ كان خاضعاً لها.

---

(١) سفر أعمال الرسل الأصحاح الثاني: ٣٩

(٢) ول ديورانت ـــ قصة الحضارة ـــ الترجمة العربية، سنة ١٩٥٠ ج ٢ ص ٩٨.

(٣) «استرابون في مصر» ترجمة وهيب كامل ص ١٣٠

(٤)رسالة القديس بولس إلى كنيسة كولوسى الفصل ٣: ٢٠

وكما أن اهتمام المسيح بالطفل أثار اهتمام الآباء والأمهات، كذلك أثر توجيه المسيحية في إكرام الوالدين وتوقير الأمومة بصفة خاصة في نفوس الأبناء، وبذلك هيأت المسيحية الفرصة لعلاقات أسرية من نوع جديد.

وبالنسبة للتربية المصرية فإن توجيهات المسيحية قد جددت صورة العلاقات الأسرية بعد أن كانت عصور الاضمحلال منذ القرن ٦ ق.م. قد أضعفتها وأخمدت فاعليتها عقب انتهاء حكم آخر أسرة مصرية وآخر حكومة وطنية، في القرن السادس قبل الميلاد.

ثالثاً ــ استقرار الأسرة القبطية على أسس روحية: ولهذا الاستقرار في الأسرة وفي العلاقات العائلية أكبر الأثر في تحقيق أهداف التربية، وقد حرصت المسيحية على أن تهيء للأسرة هذا الإستقرار فشبهت علاقة الزوج بزوجته بعلاقة الرأس بالجسد، على أن تقوم العلاقة بينهما على أساس المحبة وأن يخضع كل منهما لصاحبه في خوف الله (١) .

وأدى هذا التكييف الجديد للعلاقات الزوجية إلى إلغاء تسلط الرجل على المرأة. وبالتالي إلى إلغاء ظاهرة التسرى، وامتلاك الجوارى، وهي الظاهرة التي كانت سائدة في المجتمع اليوناني، والمجتمع الروماني، بل والمجتمع اليهودي أيضاً. واعتبرت المسيحية الزواج رباطاً إلهياً مقدساً ونلتقي في هذا الصدد بنص إلهى صريح في الإنجيل «ما جمعه الله لا يفرقه إنسان». وحرمت المسيحية انفصال الزوجين وبالتالي منع كسر هذا الرباط المقدس إلا لسببين أولهما الموت وثانيهما الخيانة الزوجية التي تعتبر اعتداء على هذا الرباط المقدس. وألحت الكنيسة في التنبير على ذلك بأن هددت بحرمان كل من تسول له نفسه أن ينفصل عن زوجته. ولكى تثبت هذه المعاني الروحية السامية في قلوب الأزواج تحتم أن يتم الزواج أمام الهيكل وبصلوات وطقوس معينة تتخللها وصايا كثيرة للزوج ومثلها للزوجة، فبالنسبة للزوج توصيه أن يكون حنوناً على زوجته وبالنسبة للزوجة أن «تكرم زوجها وتخافه ولا تخالف أمره بل تزيد في طاعته» (٢).

وكان طبيعياً أن تؤكد المسيحية استقرار العلاقة الزوجية وتحميها فمنعت تعدد الزوجات وأوصت أن يكون لكل رجل زوجة واحدة فقط، ولكل إمرأة

---

(١) راجع رسالة القديس بولس إلى كنيسة أفسس فصل ٥:٢٢ــ٣١

(٢) ترتيب رتبة الإكليل الجليل، الطبعة الثانية سنة ١٩٢١ ص٢٩و٣٠، ص٦٧

زوج واحد فقط (١) وفي كتاب ترتيب صلاة الزيجة «انه على هذه السنة اتخذ سائر الآباء المؤمنين امرأة واحدة بطهر ونقاوة». وقد أيقظت هذه التوجيهات ما كان مستتراً من ذخيرة التربية القديمة في ضمائر المصريين، فقد عرف المصري القديم بتقديره لزوجته حتى أن «انفصال الزوجين اعتبر شراً مستطيراً» (٢) إذ أن الارتباط بين الزوجين في العصور القديمة قام على أسس خلقية إجتماعية، بل ودينية أيضاً، إذ اعتبر المصريون أن قيام الحياة العائلية في العالم الثاني كان يتم على النحو نفسه «الذي كانت عليه في الحياة الدنيا» (٣) وهكذا التقى التراث المصري القديم بالتراث المسيحي في موضوع يعتبر من أخطر العوامل في توجيه النشء وإعداده، وبالتالي في مستقبل الأمة كلها، فقد اتفقا على تهيئة جو يتميز بالإستقرار وفيه يتمكن الأطفال من أن يتمتعوا بعطف والديهم وحنانهم في حماية الوصية فالعلاقة الزوجية في أمان من الانفصام، والعلاقة الزوجية ممتدة إلى الحياة الأخرى التي احترمتها الديانة المصرية القديمة والديانة المسيحية واعتبرتها امتداداً لحياتنا على الأرض.

وكان لدعوة المسيحية ووصيتها للأرملة أن من الأفضل لها أن تبقى غير متزوجة إن أمكن أثر كبير في تأكيد اتجاهات الطهارة والتعفف من ناحية، ومنع وقوع أبناء الأرملة في مأزق بسبب أطفالها إذا ما وقف الزوج الجديد موقف عدم الرضا منهم. فهنا أيضاً فكرة تربوية تستند إلى أساس نفسي، وهذه الفكرة تستهدف ــ بقدر الإمكان ــ صون الطفولة من أن تقع فريسة المشكلات الزوجية.

هذه التوجيهات الروحية انعكس أثرها على العلاقات الإجتماعية في المجتمع المسيحي، إذ أنها أبرزت مثل الطهارة، وتناهت بها إلى أبعد حد ممكن، ووسط هذه المثل كان الصبي المسيحي ينمو فيلمح سيرة الطهارة في أمه وأبيه وأفراد أسرته ومواطنيه فيتشرب ــ بحكم تأثير البيئة ــ بروح الطهارة والتعفف.

وإذا أضفنا هذه الحقيقة إلى ما هو معروف عن الأسرة المصرية القديمة، من «صفة التدين التي كانت تغلب عليها ومن أنها كانت ترى مثلها العليا

---

(١) رسالته الأولى إلى كنيسة كورنثوس الفصل السابع: ٣٩و٤٠

(٢) د.عبد العزيز صالح: ص٦٢.

(٣) المرجع نفسه ص٦٣و٦٤و٦٧.

العاطفية والسلوكية في التدين» أدركنا إلى أي حد ساعدت هذه التوجهات الروحية على أن تتابع الأسرة المصرية تدينها، وتتعمق في هذا التدين وتؤكده وينقلنا هذا إلى القيمة لروحية الرابعة وهي:

رابعاً ــ الاهتمام بالعبادة العائلية: يقول يوسابيوس «في كل منزل بالإسكندرية وما حولها وبخاصة قرب بحيرة مريوط كانت تخصص حجرة للعبادة تسمى القلاية «monastery» أو الحجرة المقدسة Holy Room (١). في هذه الحجرة كانوا يمارسون ألوان العبادة المختلفة صائمين عن الطعام والشراب ومتع الجسد مواصلين القراءة في كتب الأنبياء وترتيل الألحان وقراءة أقوال الآباء المقدسة والأناجيل ورسائل الآباء الرسل والتأمل فيها. وكانت للمدائح والتسابيح أهمية بالغة في حياتهم الروحية، وكانوا أحياناً يؤلفون ويضعون قصائد منغمة، ومن أهم الفضائل التي كانوا يدربون أنفسهم عليها ضبط النفس كأساس للسلوك الروحي تقوم عليه بقية الفضائل فالصوم عن الطعام حتى غروب الشمس مقترناً بالقراءات والتسابيح، ويشهد يوسابيوس أنه رغم أمية الكثيرين منهم إلا أن ديانتهم نفسها كانت بمثابة تربية لهم، فلقد لقنتهم توجيهاً خلقياً ممتازاً.

وسلوك الفرد ــ كما نعرف ــ هو نتاج عدة عوامل إحداها البيئة التي ينشأ فيها، وهذه العبادات المتواترة تؤكد أن المنزل القبطي كان منعزلاً عن المجتمع الخارجي بما ساد فيه من ألوان الإنحلال الخلقي والإجتماعي والسياسي. وكان الطابع الغالب على المنزل القبطي هو طابع العبادة وما يقترن بها من القراءات والتأملات الروحية، وكانت هذه القراءات والتأملات تتكلم عن توجيهات للسلوك، والتعامل مع الآخرين. وإذن فرغم إنعزاله نفسياً، إلا أنه كان يتعامل مع الوثنيين تعامل الاحتمال والقدوة، كما سيأتي في النقطة التالية، وكانت ظروف الاضطهاد عاملاً فعالاً في أن تظل الأسرة القبطية ــ بوجه عام ــ في حالة حماس واستعداد لإحتمال آلام الاستشهاد.

ولا شك أن الأحاديث التي كان يتبادلها أعضاء الأسرة عن الشهداء، وتضحياتهم وبذلهم، كانت غذاءهم اليومي الروحي، وكانت توجه الأطفال

---

(١) وقد سماها القديس يوحنا فم الذهب ــ أسقف القسطنطينية في القرن الخامس ــ كنيسة البيت.
راجع Eby and Arr, Op, cit. p.603

والصبيان والفتيان والشباب، توجيهاً مقصوداً غالباً، إلى الاستهانة بالموت، وإلى ما ينتظر الشهداء من مجد وسعادة روحية أبدية. وكانت تنتقل روح الشجاعة من الوالدين للأبناء تدعمها المثل الحية التي كانت تتمثل فيها بحق الفضائل المسيحية كمسامحة المضطهدين واحتمال الموت على مثال السيد المسيح (١).

وللتدليل على أثر التربية المنزلية نذكر بعض الأمثلة:

في مقدمة هذه الأمثلة يأتي أوريجانوس الذي لقنه أبوه ليونيدس مبادىء المسيحية والكثير من العلوم الأخرى فأظهر ذكاء مفرطاً كان «يدفع والده إلى تقبيله في صدره وهو نائم معتقداً بأنه « سيصبح خزانة علم ومعرفة هائلة». ولما قبض على والده وأودع السجن في أثناء اضطهاد سيفيروس سنة ٢٠٢، حاول أوريجانوس اللحاق به ليموت معه لولا أن منعته أمه بأن حجزت ملابسه حتى لا يخرج، فأرسل إليه خطاباً يقول فيه «حذار أن يغير العذاب رأيك، لا تهتم بنا فإن الله سبحانه وتعالى لن ينسانا».

وفي كتاب «تاريخ البطاركة» نلتقي بسير عدد كبير من الآباء قال عنهم الكاتب إنهم تربوا على التقوى والفضيلة. ومن أوضح الأمثلة البابا بطرس (البابا السابع عشر)، وكان أبوه كاهناً باراً له زوجة طاهرة ولم يكن لهما ولد، فحلمت أنها ستلد إبناً، وأنه سيكون أباً لشعوب كثيرة، فلما تحقق الحلم رباه أحسن تربية وأرسلاه إلى المدرسة وهو في الخامسة من عمره، وإذ كانا قد نذراه لخدمة الكنيسة فقد سيم قساً، وهو في السادسة عشرة، ثم اختير بطريركاً في عهد دقلديانوس سنة ٢٩٤ م وهو الذي أطلق القبط على عهده «عصر الشهداء».

كذلك من البابوات الذين كان لتربيتهم المنزلية أكبر الأثر في توجيههم الروحي البابا كيرلس الكبير (٤١٢ــ٤٤٤) وهو الرابع والعشرون، في تعداد البابوات، فقد كان في طفولته موضع عناية ورعاية خاله البابا ثاؤفيلس ــ البابا الثالث والعشرون ــ فأشرف على تعليمه التعليم الروحي، والزمني، ثم أرسله في مرحلة شبابه المبكر إلى برية وادى النطرون بدير أبو مقار «فأقام هناك خمس سنين يقرأ الكتب العتيقة والحديثة، ويشرف عليه أحد شيوخ الدير الحكماء القديسين».

---

(١) P. Orient T. 16 P.P. 360-367 وراجع أيضاً Fowlre: Chr. En P, 10

والتأثير نفسه نجده فيمن صاروا فيما بعد أعلام الرهبنة. فالقديس أنطونيوس (+٣٥٦) أب الرهبان ومؤسس الرهبنة يشهد عنه القديس أثناسيوس الذي كتب سيرته أنه «ولد ببلدة قمن العروس من والدين مسيحيين غنيين، ربياه تربية حسنة مع أخته فكان يواظب على قراءة الكتاب المقدس» وكان لنموه الروحي أعظم الأثر في تكوينه النفسي. فما أن سمع ذات أحد الإنجيل يقرأ بالكنيسة ويقول «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب بع كل أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء»، حتى باع كل ما عنده وبدأ حياة العزلة التي انتهت به إلى أعماق الصحراء الشرقية حيث أسس النظام الرهباني لأول مرة(١).

وكذلك الأنبا شنودة المعروف في تاريخ الديرية «برئيس المتوحدين» كان وهو صغير يميل للعبادة، وكان والده صاحب قطيع كبير من الأغنام بجهة سوهاج فلما رأى ميله هذا سلمه إلى خاله بيجول الذي كان رئيساً لأحد أديرة سوهاج فاعتنى بتربيته وتدريبه على الحياة الرهبانية حتى أصبح خليفته في رئاسة الدير.

ولم تكن العناية بتربية الفتاة أقل من العناية بتربية الصبيان والشباب، فالقديسة دميانة كانت إبنة لأحد ولاة مصر في عصر دقلديانوس، ولحبها للعزلة والنسك طلبت من أبيها أن يبني لها قصراً تعتكف فيه مع ٤٠ من لداتها للتعبد فحقق لها رغبتها، واختتمت حياتها بالإستشهاد.

هذه النماذج نذكرها على سبيل المثال لا الحصر، ومنها نرى ما كان للتربية المنزلية، وقدوة الوالدين من الأثر في توجيه الأطفال توجيهاً روحياً سامياً، لكن ثمة عاملاً، جاء من تأثير المجتمع، كان له تأثير مشابه.

خامساً ــ قانون المحبة: لقد ساد مبدأ المحبة أفراد المجتمع المسيحي. يقول أحد المؤرخين «بتأسيس الكنيسة المسيحية، بدأ حكم المحبة على الأرض». وقد تبع هذا المبدأ سيادة عواطف الود والأخوة بين أفراد المجتمع المسيحي بل إنهم زادوا على ذلك بأن مدوا يد المساعدة والعون للمحتاجين والمرضى حتى للبعيدين

---

(١) د. عزيز سوريال عطية: «منشأ الرهبنة وتطورها» ضمن أبحاث «الرهبنة القبطية» ص١٥٢

عنهم في بلاد أخرى، وللوثنيين أعدائهم إذ كانوا يعتنون بمرضاهم، ويصلون لأجلهم ويتبرعون بالأموال لخدمتهم.

وقد استمدوا هذه الخصال من طبيعة الوصية المسيحية ذاتها التي نادت بمحبة الأعداء، ومباركة اللاعنين والصلاة لأجل المسيئين. وبمرور الوقت لم تعد المسيحية مجرد وصايا أو تعاليم ولكنها أصبحت سلوكاً وحياة مستمدة من حياة السيد المسيح نفسه الذى دعا إلى «الحياة الأفضل» يقول Fisher «إن المسيحية نظام هادف له غرض محدد: تغيير القلوب، فهى لم تكن مجرد تعليم أو عقيدة ولكنها حياة، وضعت مستويات لتنظيم السلوك، ومنه نشأت عادات جديدة ومباديء جديدة واتجاهات اجتماعية جديدة» (١) .

أما Charles Bigg فيقول «إن المسيحية لم تكن مجرد عقيدة أو قانون وإنما حياة» (٢).

ويذكر يوسابيوس أن المجتمع المسيحي «سادت عليه عواطف المشاركة الأخوية، فقد كان أصحاب الحقول والبيوت يبيعون أملاكهم ويأتون بأثمانها ويضعونها عند أقدام الرسل ليأخذ كل حسب احتياجه» (٣).

ولا شك أن هذه الإتجاهات كانت مثلاً عملية يقدمها المجتمع للناشئة، فيتشبعون بها منذ طفولتهم. وقد يصح هنا أن نقول إن هذا السلوك الذي ساد المجتمع المسيحي كان عاملاً من عوامل التربية غير المباشرة، ولتأثيرها أحياناً فاعلية أكبر من فاعلية التربية المقصودة.

(ثانياً) الكنيسة كمؤسسة تربوية
أثرها وأثر علاقتها بالمنزل في توجيه التربية

درسنا أثر المنزل في التربية في العصر القبطي، والواقع أن التربية المنزلية لا يمكن فصلها عن خطة التربية التي اتبعتها الكنيسة لسبب واضح هو أن خطة الكنيسة في التربية شملت الكبار والصغار والآباء والأبناء، كما شملت توجيه الأمهات والآباء إلى الوسائل الروحية التي يجب اتباعها مع أطفالهم لضمان

---

(١) Fisher: tlist of Christian Church P.2.

(٢) C.Bigg: The Christian Platonists of Alex. 2nd Ed. Oxf. 1913 P.333-

(٣) سفر أعمال الرسل ص٤: ٣٢ـــ٣٥.

تحقيق الهدف الأساسي من التربية الروحية وهو «الحياة الأفضل» والتمثل بالسيد المسيح للوصول إلى حياة الكمال: في الفكر، والقول، والسلوك، مع الأحباء والأعداء، مع المؤمنين والغرباء عن الإيمان. ونريد في هذا الفصل أن ندرس تأثير الكنيسة في توجيه خطة التربية الروحية والنفسية والإجتماعية، والدور الذي قامت به في المحافظة على التراث القبطي في عصور بلغت فيها ظروف الإضطهاد والإستشهاد أقصاها، ونحاول ـــ أثناء هذه الدراسة ـــ أن نتتبع علاقة الكنيسة بالمنزل ومدى توجيهها لأفراده من الكبار لضمان حسن توجيههم لصغارهم.

وأول ما يقابلنا في هذا الموضوع الفصل الخامس والعشرون من الدسقولية(١) بعنوان: «يجب على الآباء تعليم أبنائهم» (٢) .

ومن قراءة هذا الفصل يتضح لنا أن الكنيسة توجه التعليم إلى ناحيتيه الروحية والزمنية. فمن الناحية الروحية توصى الآباء «أيها الآباء علموا أبناءكم في الرب وربوهم بأدب» ومن الناحية الزمنية تطلب توجيههم توجيهاً واقعياً وأن يعلموهم صنائع تليق بكلمة الله، أي المهن التي لا تخالف وصايا الله، ثم تحذرهم من التفريط في التربية «ولا تدعوهم يمضوا إلى مشربية «أي إلى الملاهي ومشارب الخمر» مع أقاربهم «أي مع معارفهم وخاصة مع من في مثل سنهم، لأنهم بهذا ينقلبون إلى الشرور». وأكد القديس أغناطيوس(٣) أسقف أنطاكية في القرن الأول هذه الوصية حين خاطب الآباء «وعلموهم الكتب المقدسة والتجارة حتى لا تسبيهم البطالة» (٤) .

وواضح أن التوجيه هنا قائم على أساس إيجابي، فهو يطلب إليهم تعليمهم حرفة تقضى على مشكلة البطالة والتعطل، ويربط في الوقت نفسه بين الحرفة وبين اتفاقها مع كلام الله ووصاياه. ولكي يؤكد المربي المسيحي هنا ضرورة

---

(١) الدسقولية أصلاً كلمة يونانية Dedascalia بمعنى تعاليم، والمقصود بها تعاليم رسل المسيح كما تركوها للأجيال التالية، وقد ترجمت هذه التعاليم إلى الإنجليزية كما صدرت منها طبعة باللغة العربية وتحوي ثلاثين فصلاً. وتعتبر الدسقولية أحد مصادر التعليم في الكنيسة عامة، ومصادر التعليم المعترف بها في الكنيسة ثلاثة: الكتاب المقدس، والتقليد ـــ أي تعليم الرسل ـــ وقوانين المجامع المسكونية.

(٢) الدسقولية ـــ الترجمة العربية فصل ٢٥ ص١٤٩.

(٣) القديس أغناطيوس، كان أسقفاً على أنطاكية في نهاية القرن الأول، على عهد الامبراطور تراجان، ولشدة حماسه في الدفاع عن الإيمان قبض عليه الإمبراطور وأرسله إلى روما مقيداً ثم ألقى إلى الوحوش بإحدى ساحاتها وكان ذلك نحو سنة ١١٥م. وقد جمع المسيحيون بقايا عظامه وأرسلوها إلى أنطاكية.

(٤) الدسقولية ـــ الفصل السابق نفسه.

الإهتمام بالتربية، نراه ينقل لهم عين التوجيه الذي قاله سليمان الحكيم في القديم «لأنك إن أدبته لا يموت» فيقول «لا تخافوا من انتهارهم وتعليمهم بهيبة لأنكم لا تقتلونهم إذا علمتموهم، بل تحبونهم. فمن خاف أن يؤدب إبنه ليكون حكيماً فإنه يبغضه» ثم يختم هذا التعليم بأن يحمل الآباء مسئولية التقصير في تربية أبنائهم «إذا سار الشبان غير المتأدبين وأخطأوا بسبب توانى آبائهم، لا يعاقبون هم وحدهم، بل إن آباءهم يعاقبون لأجلهم أيضاً».

ومن الواضح أن هذه التعاليم قد وجدت صدى فيما خلفته التربية المصرية القديمة من تراث، فهنا نقط التقاء كثيرة بين المسيحية والتراث التربوي لمصر القديمة في ضرورة الإهتمام بتربية الصغار، وتنشئتهم على القيم الرفيعة، وتأديبهم إذا احتاج الأمر ثم تعليمهم حرفة تقضى على البطالة بينهم وكانت حرفة الزراعة في مصر، ولا زالت، تستوعب أغلب أبناء الزراع والفلاحين، فيعملون بها منذ نشأتهم مع آبائهم لينقلوها بعد ذلك إلى أبنائهم، وهكذا من جيل إلى جيل وجدت الحرفة التي تتناقلها الأجيال عن طريق الممارسة العملية.

هذا من ناحية التوجيه النظري، لكن هذا التوجيه النظرى اقترن بالتطبيق العملي، فقد اهتم الرسل — إينما ذهبوا للكرازة بالمسيحية — بإنشاء المدارس للتعليم: تعليم حقائق الدين الجديد، وتعليم أساسيات المعرفة من قراءة وكتابة ومعلومات عامة، واهتمت هذه المدارس — في نشأتها — كما سنرى في الفصل التالي — بتعليم الكبار والصغار جميعاً. فقد كان من بين واجبات الأسقف ضم الوثنيين إلى الإيمان بالمسيح، أي تعليمهم حقائق هذا الإيمان.

ويذكر يوسابيوس القيصري، مؤرخ الكنيسة في القرن الرابع، «لقد جرى التقليد القديم على ضرورة إنشاء مدرسة للتعليم المقدس» وعلى هذا التقليد أسس القديس مار مرقس بالإسكندرية سنة ٥٨م مدرسة عرفت بأنها «مدرسة الحوار» أو التعليم (١) عن طريق السؤال والجواب (٢). وسندرس في الفصل التالي كيف أصبحت هذه المدرسة مجالاً للصراع الروحي والفكري بين المسيحية والفلسفات السابقة لها، وكيف تبلور الإيمان المسيحي بسبب هذا الصراع حتى تحدد في نصوص قانون الإيمان الذي وضعته المجامع المسكونية —

---

(١) Catechetical School

(٢) Neale: A Hist. of the Holy Eastern Church, The Patriarchate of Alex. Lond. 1847 Vol.1 P.11.

كما سبق القول.

أما في هذا الفصل فنريد أن نتتبع بالتفصيل اتجاهات التربية، من واقع النظم والترتيبات التي وضعتها الكنيسة لأبنائها، مع الإهتمام بصفة خاصة، بما يتصل بالأطفال والشباب لنرى إلى أي حد نجحت هذه النظم في أن تحقق أهداف التربية المسيحية في العصر القبطي بصفة خاصة، وأهداف التربية بصفة عامة. ولقد أشرنا من قبل إلى أهداف التربية المسيحية كما حددها مفكرو مدرسة الإسكندرية، ونريد هنا أن نرى رأى المربين، فما هو الهدف الأساسي من التربية المسيحية في نظر المربين المحدثين؟ إنه تحقيق غرض الله من خلقة الإنسان: أن يعبده ويحفظ وصاياه ليكون له نصيب في ملكوت السموات (١) ووسيلة تحقيق هذه الغاية تتطلب تجديد سلوكه ليصبح سلوكاً روحياً. هذا السلوك الروحي لا يتأتى دائماً نتيجة لجهوده فقط وإنما هناك نقطة بدء روحية تظهر في عمل الله (٢). ثم توجه التربية المسيحية أعضاءها إلى أهمية اختيار السلوك المسيحي وتجنب السلوك المخالف للمسيحية.

وواضح أن رأى المربين المحدثين لا يختلف عن رأى آباء الكنيسة ومفكريها في القرون الأولى. فالتربية المسيحة تؤمن أنها لكي تحقق أهدافها يجب أن تعتمد على عمل نعمة الله أولاً وعلى تدريب الإرادة الحرة للسلوك المسيحي ثانياً. ويرى هؤلاء المربون أن التعليم الروحي وتجديد الحياة يستغرقان وقتاً طويلاً لبناء السلوك الديني بناءاً حقيقياً لأنه يتطلب استنارة البصيرة الداخلية، وهذا لا يتم إلا بالعبادة وهي وسيلة تختلف ولا شك عن وسائل التربية العادية المعروفة، وإنما لا بد من إعداد جو روحي خاص. والواقع أن رسالة الكنيسة التربوية الأساسية كانت إيجاد هذا الجو.

فماذا كانت وسائل الكنيسة في خلق هذا الجو؟

أولاً ــ الوسائل الروحية:

(أ) **في مرحلة الطفولة:** اشترطت الكنيسة قبل أن تعترف بمسيحية الطفل أن يتعمد، وهي توصى أن يتم ذلك في الثلاثة أشهر الأولى من عمره. ولذلك تنوب عنه أمه في الإعتراف بالإيمان المسيحي وتتعهد أمام الكاهن أن تربيه تربية

(١) Brubacher: Modern Philosophies of Ed. 2nd Ed. N.York 1950. P.293

(٢) رسالة القديس بولس إلى كنيسة أفسس، الفصل الثاني: ٥

فاضلة.

وتنتهز الكنيسة هذه الفرصة لتوجه إلى الوالدين الكثير من النصائح والوصايا التي تتصل بتربية الطفل في خوف الله، ولكى تتم عملية التربية هذه على وجهها الأكمل تعهد الكنيسة إلى «اشبين» أي وصي أو مرب خاص من أقارب الطفل بالإشراف عليه حتى سن البلوغ.

وتقترن عملية العماد بتغيير ملابس الطفل كلها وإلباسه ملابس جديدة بيضاء إشارة إلى أنه لبس الإنسان الجديد: الإنسان الروحي الذي هو على صورة الله في البر والقداسة (١). ولهذا المعنى أهمية بالغة في نظر الكنيسة لاعتقادها أن النمو الروحي السليم يتم على أساس التجديد الداخلي بفاعلية نعمة الله في العماد. فهذا هو المدخل إلى المسيحية وإلى السلوك الروحي الكامل الذي يتميز به المسيحيون (٢) . ولذلك جرت العادة في القرون الأولى على تغيير الإسم عقب العماد ليكون جديداً تبعاً للحياة الجديدة التي بدأها صاحب الإسم. وكانت أسماء الأطفال تختار من الكتاب المقدس لتحمل معها إلى الطفل فضائل أصحابها.

(ب) في مرحلة البلوغ: وحين يصل الطفل إلى مرحلة البلوغ تواجهها الكنيسة إلى الإعتراف بالخطأ لأبيه الروحي. فعندما يتعرض للخطأ نتيجة الصراع الطبيعي في داخله بين نزعتي الخير والشر. فماذا يكون موقفه إذا أخطأ؟ يجب أن يتوب وأن يرجع بإرادته عن حياة الخطيئة، ويتابع تدريب نفسه على حياة الفضيلة. لكن ممارسة الفضيلة تحتاج إلى توجيه خاص يقوم على أساس الميول والإتجاهات الخاصة بكل فرد. وهذا ما يحققه الإعتراف مع مراعاة الفروق الفردية، والإهتمام الخاص بكل عضو في الكنيسة في ضوء ظروفه النفسية والإجتماعية والعقلية والصحية. ولأهمية الإعتراف وقيمته الروحية والنفسية، لم يكن يختار لممارسته سوى الكهنة المختبرين الذين أمضوا في الخدمة مدة كافية.

تقسيم أعضاء الكنيسة تبعاً لحالتهم الروحية: وتطبيقاً لنظرية «النمو الروحي»

---

(١) أوريجانوس في محاورة « Heraclides » الترجمة الإنجليزية ــ ضمن مجموعة Alexandrian Christianity P.P. 445-446- وراجع أيضاً رسائل القديس بولس إلى كنيسة رومية فصل ٧:٢٢ وكورنثوس الثانية ٤:١٦.

(٢) حبيب جرجس ــ أسرار الكنيسة السبعة ــ ص٣٤.

تقسم الكنيسة إلى خوارس — أي أقسام (١) أربعة من الشرق إلى الغرب تفصلها بعضها عن بعض حواجز خشبية، ففي القسم الأول: الهيكل ولا يدخله إلا الآباء الكهنة، والقسم الثاني مخصص للشمامسة المكلفين بتلاوة الإنجيل والمزامير والترانيم، أما القسم الثالث فللمؤمنين الثابتين الناضجين، والرابع للمرشحين لأن يقبلوا في عضوية الكنيسة. وإلى الجهة الشمالية من هذا القسم الأخير تقع المعمودية — في الكثير من الكنائس — وكان يطلق على أعضاء هذا القسم الأخير إسم «الموعوظين» (٢)، وكانوا يقضون فترة تحددها الكنيسة لكل منهم وفق استعداده يتقدم بعدها للعماد ويصبح ضمن أعضاء الكنيسة. على أنه لم يكن يقدم لعضوية الكنيسة إلا إذا ظهرت في حياته ثمار الإيمان، وشهد الأب الروحي باستحقاقه لهذه العضوية، خاصة والعصر كان عصر اضطهاد.

الخوارس ودلالتها التربوية: ولهذه الخوارس دلالتان تربويتان واضحتان، أما الأولى فبيان الوضع الحقيقي لكل عضو بالكنيسة، والثانية أنها تكشف عن سلطان الكنيسة وتأثير توجيهها على جمهور المؤمنين.

ومن أدلة قوة هذا السلطان وعمقه أن البابا بطرس — وهو البابا السابع عشر في تعداد البابوات المصريين — وضع قانونه المشهور الذي عرف بإسم: Pandecta Canonum.

وكان ذلك في فاتحة القرن الثالث، خاصا بالمرتدين الذين يريدون الرجوع إلى المسيحية بعد الإضطهاد. وبدراسة هذا القانون (٣) يتضح مدى تأثير الكنيسة في تلك الفترة، في توجيه أعضائها.

فالقوانين تحقق للشعوب تربية تنبع من واقع احتياجاتها وتنبثق من حقيقة مشاعرها، وتعمل في الوقت نفسه على الإرتقاء بها نفسياً وإجتماعياً وأدبياً.

وعلى سبيل المثال نذكر أن الكنيسة حددت للذين ارتدوا عن الإيمان لمجرد الخوف والوهم فقط ولم يذوقوا عذاباً مهلة أربع سنوات ليبرهنوا على التوبة والندامة. أما الكهنة الذين ارتدوا ثم طلبوا العودة فيقبلون كأعضاء فقط وليس

---

(١) لا تزال هذه التقسيمات موجودة بكنائس مصر القديمة (راجع مرقس سميكة، يسى عبد المسيح: دليل المتحف القبطي — ج١ — ص١١و١٢).

(٢) Catechumens.

(٣) Hardy: Christian Eg. P. 44

كخدام دين. ونحن نذكر هذه القوانين على سبيل المثال فقط لندلل على مدى سلطان الكنيسة في ذلك العصر. فتقسيمها إلى خوارس نابع من سلطانها في التوجيه، وفي التربية الفردية الروحية. لذلك قال ترتوليان (١) «إن المسيحيين يصنعون ولا يولدون» ففترة الاختبار (٢) التي كان يقضيها الموعوظون وحديثو الإيمان كانت تشعرهم بقيمة العضوية الكنسية التي سيحصلون عليها فيما بعد، وبالتالي تحفزهم إلى أخذ الموضوع مأخذ الجد والإهتمام. فباختيارهم أعضاء، كانت أسماؤهم تسجل بسجلات الكنيسة، ويحسبون ضمن أعضائها.

طقوس الكنيسة رسالة تربوية مستمرة(٣): اعتمدت الكنيسة في توجيه أعضائها على الخدمات الطقسية، فعن طريق الخدمات الطقسية كان مضمون التعليم الديني كله يسلم للشخص، وبمعنى أوضح أنه عن طريق القراءات والعبادات الجمهورية، وتقديس يوم الأحد، والتعهد الفردي، والصوم، كان المسيحيون ينمون في الحياة الروحية.

وتعتبر ذكرى آلام السيد المسيح فرصة تربوية ثمينة في تدريب المؤمنين على التأمل العميق واحتمال آلام الجوع إذ كانوا يقتصرون على تناول الخبز والملح، وتستطيل عبادتهم وتزدحم بالتراتيل والصلوات والقراءات الطويلة في الكتاب المقدس. وكذلك في وقت الحزن والشدة والمرض تقوم الكنيسة بواجب الصلاة والتعزية مما يخفف كثيراً من وقع الألم.

بل إن الطقوس شملت أيضاً نظام بناء الكنائس، فهي تبنى عادة على هيئة سفينة رمزاً إلى الفلك الذي نجى به نوح من الغرق، وتقسيمها إلى خوارس، وتعليق الكثير من صور القديسين والشهداء بها ــ وأمامها توقد الشموع ــ بالإضافة إلى ملابس الكهنة وألحان العبادة الجمهورية وخاصة يوم الأحد، وهي تختلف تبعاً للمناسبات، فألحان الأعياد غير ألحان الأصوام، وكذلك في الفصول الإنجيلية التى تتلى، فهى تختلف أيضاً باختلاف المناسبات، هذا عدا الصلوات الخاصة بالمرضى والمتوفين والمحتاجين والمنحرفين.

---

(١) ترتوليان (١٥٠ــ٢٤٠م) اعتنق المسيحية سنة ١٩٠م ثم صار قساً لقرطاجنة بشمال أفريقيا واشتهر بنسكه ومؤلفاته المتعددة ضد الهراطقة والوثنيين، وأشهر مؤلفاته كتاب «الإعتذار».

(٢) C. Bigg. Op. Cit. P. 181

(٣) أصلها باليونانية Taxis أي نظم وترتيبات وتعرف بأنها التعبيرات المادية عن جوهر العقيدة، وهذه التعبيرات تدرك بالحواس لفهم المعاني الروحية الكامنة في العقيدة (راجع حبيب جرجس: أسرار الكنيسة السبعة ص٢ــ٤).

هذا التنوع في العبادات والقراءات يكشف في وضوح عن أننا لن نجد الأسس الحقيقية للتربية المسيحية، وبالذات في الكنيسة المصرية التي حافظت بقوة على هذا التراث الهائل، إلا إذا رجعنا إلى هذه الطقوس. ولهذا السبب كان التعليم عن طريق الطقوس الكنسية هو الطريقة التقليدية التي اتبعها الكنيسة في التعليم الديني.

فالطقوس جزء أساسي من طبيعة الكنيسة ذاتها ومن فلسفتها في التربية الروحية. وتكشف خبرة الكنيسة الأرثوذكسية عن أن الخدمات الطقسية هي على الدوام تعبير عن إيمانها وحياتها وتعليمها، وبمعنى آخر فإن منهج التعليم عن طريق الطقوس هو المنهج الأرثوذكسي للتعليم.

أما بالنسبة للموعوظين فقد أتبع معهم نظام تربوى دقيق، إذ كانت معموديتهم تتم قبل صوم الأربعين المقدس وهو المعروف بالصوم الكبير لأن قراءات الإنجيل خلاله تكون مشحونة بلون خاص من التعليم هدفه الاعداد للتوبة (١).

وبواسطة هذه الطقوس كانت تتحقق غايتان هامتان: أما الأولى ففي فصل هؤلاء الموعوظين، أي حديثي الإيمان، عن المجتمع الوثني الذي كانوا يعيشون فيه. والغاية الثانية تحقيق دمجهم في حياة الكنيسة بطريقة طبيعية تربطهم بالديانة الجديدة عن طريق الإدراك الحسي، والتعليم، والقدوة. ومعنى ذلك أن التربية في الكنيسة أخذت شكلاً مقصوداً من حيث تهيئة البيئة الروحية أو الجو الروحي الهادف الذي يكفل صناعة المؤمنين ليصبحوا مسيحيين حقيقيين.

التربية الوجدانية: وللألحان مكانة خاصة في التربية الكنسية، وهي تختلف ما بين مناسبة وأخرى، ولكنها عامل مشترك في الطقوس الكنسية كلها، وخاصة في العبادة الجمهورية ـــ صباح الأحد ـــ وليالي الأعياد وأسبوع الآلام الذي يأتي عقب الصوم الكبير حيث كانوا يمتنعون عن الدسم واللحوم ويقتصرون على الخبز والملح.

ويرى بعض علماء الموسيقى أن الكنيسة القبطية هي كنيسة الموسيقى إذ تكاد كل كلمة تقال فيها على مدار السنة سواء في النهار أو في الليل أن تكون

---

(١) مرقس سميكة، يسى عبد المسيح: فهرست المخطوطات القبطية ـــ القاهرة سنة ١٩٣٩ جـ١ ص٢١، وراجع أيضاً الدسقولية ـــ الباب العاشر ـــ ص١٠٣.

موسيقية. ومن رأى هؤلاء العلماء أنه قد نشأت مع ابتداء المسيحية في كل بلد ـــ شرقية أو غربية ـــ صلوات وقداسات وطقوس تتفق مع طبيعة وبيئة كل بلد (١) ، وإذ كان الشعب المصرى شعباً موسيقياً بغريزته منذ أقدم العصور كان من الطبيعي أن تتشكل الألحان الدينية في القالب المصرى، فتجمع بين العبادة والفن في آن واحد (٢) . وقد جمعت الموسيقى القبطية بين ألحان الفرح والحزن والخشوع مما يجعل منها وسيلة ممتازة للتربية الوجدانية.

التربية بالمثل العليا ومكانة الصور: احتلت الصور في الكنيسة الأرثوذكسية منذ أوائل العصور المسيحية مكانة خاصة لما لها من تأثير في النفس من حيث أنها تذكير بفضائل القديسين أصحابها. وفي مقدمة هذه الصور تأتي صور السيد المسيح، والسيدة العذراء، والرسل، والبابوات، والشهداء. ومن الطقوس الثابتة في الكنيسة منذ أوائل العصور المسيحية إيقاد الشموع أمام صور القديسين فكما يشع نور الشمعة كذلك يشع نور هؤلاء القديسين على المجتمع تطبيقاً لقول السيد المسيح «أنتم نور العالم». ومن الكنيسة انتقلت فكرة تعليق صور القديسين على حوائط البيت لتضع أمام الكبار والصغار جميعاً نماذج للفضيلة والكمال.

وفي الصلاة الجمهورية تقرأ سير القديسين كنماذج للفضيلة والثبات في الجهاد الروحي. وكانت هذه السير تسجل أولاً بأول وخاصة في الإسكندرية فقد جرت العادة أن يسجل البابا سيرة سلفه وكذلك بالنسبة للشهداء، فقد كانت كل كنيسة تحتفظ لديها بسجلات خاصة عن شهدائها تسجل بها تواريخ استشهادهم، حتى أصبحت هذه السجلات ـــ مع الوقت ـــ أساساً لعمل التقاويم السنوية. وكانت كنيسة الإسكندرية في مقدمة الكنائس التي حددت تقويمها إذ بدأته بسنة ٢٨٤ م وهي السنة التي تولى فيها الامبراطور دقلديانوس الحكم، والذي بلغ الاضطهاد قمته في عهده.

---

(١) راغب مفتاح: «بحث في الموسيقى القبطية» مجلة معهد الدراسات القبطية ـــ العدد الأول ـــ السنة الأولى سنة ١٩٥٩ ـــ ص٥٠.

(٢) استخدم المصريون الآلات الموسيقية منذ أقدم العصور في منازلهم وأفراحهم وأعيادهم واحتفالاتهم المدنية وعرفوا القيثارة والرق والمندولين والناي التي كانت تنساب منهم الألحان الهادئة الرقيقة وكان فيثاغور أبو الموسيقى عند اليونانيين يحضر إلى مصر ويتعلم الفنون الموسيقية عدا الموسيقى الحربية. (راجع باهور لبيب: لمحات في الدرسات المصرية القديمة ص٨٣).

وإلى جانب هذه السجلات وجد جامعو سير هؤلاء الشهداء وفي مقدمتهم القديس يوليوس الأقفهصى — نسبة إلى أقفهص مركز الفشن بمديرية المنيا — وكان هو وتلاميذه يهتمون بتكفين أجساد الشهداء وإرسالها إلى بلدهم، والاهتمام بتسجيل سيرهم (١) .

ومما يؤكد تأثير هذه المثل العليا ما جرت عليه عادة المؤمنين سنوياً في الاحتفال بذكرى الشهداء فكانوا يجتمعون عند قبورهم خارج المدينة ليحتفلوا لا بذكرى موتهم، بل بذكرى ميلادهم، حيث تلقى عظة مناسبة يشاد فيها بعمل المسيح الفدائي للمؤمنين. وكذلك كان دفن الشهداء مناسبة تربوية عميقة المغزى، ذلك أنه بعد دفن أجساد الشهداء القديسين كان المؤمنون والموعوظون يجتمعون دون خوف وأمامهم المثل العملية للتضحية والحب والبذل لأجل المبدأ.

ولم يقتصر اهتمام الكنيسة بالتعليم عن طريق المثل العليا الممثلة في أشخاص الشهداء المنتقلين فقط بل والأحياء منهم أيضاً، إذ كان المؤمنون يزورونهم بسجونهم «ويشجعونهم ويثبتونهم، ويأتون لهم بالطعام، ولكن الأهم من هذا كله أنهم كانوا يقبلون — في إحترام — السلاسل المقيدة بها أيديهم وأقدامهم».

فكأن نتائج الإستشهاد لم تقتصر على أنها كانت وسيلة للتربية عن طريق المثل العليا، بل تعدت ذلك إلى نتيجة أعمق، هي تمسك المسيحيين وتماسكهم: تمسكهم أكثر بإيمانهم، وتماسكهم معاً في المحنة المشتركة (٢) . وبهذه الوسيلة كانت الكنيسة تعد أبناءها للإستشهاد، وكان هذا الإعداد في ذاته مدرسة ذات تعليم مقصود خاص لمواجهة الموت كمدرسة رياضية تعد طلابها للبطولة(٣). وكان المؤمنون يحفظون العبارات التي يواجهون بها قضاة الوثنية، وكانوا إلى جانب ذلك يعرفون الكثير من الآيات الكتابية المتصلة بالإستشهاد حتى يرددوها في سجونهم! وأمامهم كانت تترى صور أكاليل المجد التي حصل عليها سابقوهم. وفي ذلك قال ترتوليان قديس قرطاجنة في نهاية القرن الأول «إن دماء الشهداء هي بذار الإيمان».

---

(١) وقد سجل عدد كبير من هذه السير بكتاب السنكسار، ومن بينها سيرة يوليوس الأقفهصى نفسه تحت تاريخ ٢٢ توت.

(٢) روستوفزف: الترجمة العربية ج١ ص٦٠٨.

(٣) Eby and Arrowwood Op. Cit, PP. 632,633.

تأثير كتابات الآباء في التربية الروحية: ومن بين الوسائل التي استعانت بها الكنيسة في توجيه أبنائها، كتابات الآباء وأقوالهم، وهي ذخيرة روحية، قال عنها بعض المؤرخين إنها «نظرات روحية عميقة وحكمة سماوية عالية» (١).

هذه الكتابات تعددت أنواعها، فمنها الكتابات الروحية، ككتاب الراعي لهرماس الذي كتب في القرن الأول، وكان يقرأ في الكنائس لفائدته الروحية، وسنلخصه في هذا الفصل، وكذلك كتب إكليمندس عن الكمال الروحي، وأوريجانوس عن الصلاة، وقد سبقت الإشارة إليهما في الفصل السابق، وكانت كلها تقرأ في القرون الميلادية الأولى.

وهناك سير الآباء القديسين من البطاركة والشهداء والمعلمين: كسير البطاركة والشهداء التي سبق ذكرها، وهناك أيضاً الردود على البدع والهرطقات، وهذه كانت تحتل من اهتمام آباء الكنيسة جانباً كبيراً، ككتاب أثناسيوس في تجسد الكلمة، ومثلها دفاعهم عن سلوك المسيحيين وأخلاقهم، ككتب أثيناغوراس في الاحتجاج ويوستينوس الشهيد، وهناك كتب التربية ككتاب المربي لإكليمندس، وكانت الكتب الروحية والسير المقدسة، وردود الآباء على البدع، تقرأ في الكنيسة كجزء من العبادة الجمهورية، وكوسيلة من وسائل التربية الروحية: ونعرض هنا خلاصة لكتابين استخدما في الكنيسة في القرون الأولى، الأول هو كتاب «الراعي» لهرماس، والثاني كتاب «المربي» لأكليمندس.

كتاب الراعي لهرماس: (٢) يقول عنه بعض علماء التاريخ الكنسي «إن أهمية هذا الكتاب تأتي من حيث أنه نموذج الكتب التي كانت تستخدم لتعليم المسيحيين في القرنين الثاني والثالث» (٣)، وقد كتب هذا الكتاب أولاً باليونانية، وعرف جيداً في الكنائس الشرقية، ويمكن تقسيمه إلى ثلاثة أجزاء: الرؤى Visions والوصايا Commandments ثم الأمثال Similtudes.

---

(١) بل . مصر منذ فتح الاسكندر ص٢٠٣.

(٢) يقال إن هرماس هذا كان قسيساً في كنيسة القرن الأول، والبعض يظن أنه مذكور بإحدى رسائل القديس بولس.

(٣) وقد عثر على نسختين منه إحداهما باليونانية والأخرى بالأثيوبية مما يدل على استخدامه في الكنائس المختلفة. وتوجد منه نسخ أخرى بمكتبات الفاتيكان وجامعة ليبزج. (راجع مجموعة Ante - Nicene Fathers Vol 2.P.7).

ومن أمثلة الوصايا «يجب أن نخاف الله، ونعرض عن كل ما هو شر، ونتدرب على ضبط النفس فيردع كل منا نفسه عن الاسراف في المال، والإنهماك في ملذات الطعام وعن الكذب، والنميمة والرياء والسرقة وشهادة الزور والشهوات المنحطة والخداع، وإنما علينا أن نتبع الأعمال الصالحة والمحبة والحق والسلام ومساعدة الأرامل. وتوقير الأكبر سناً. كما يجب أن تكون هادئاً وأن تمارس دائماً عمل الخير».

ومن تعاليم هرماس عن الصوم: «إن الصوم الحقيقي ليس صوماً عن الطعام فقط وإنما عن الشرور والآثام». ثم شرح هرماس الأمثال التي كان السيد المسيح يعلم بها الجموع إذ ذكر عنه «أنه بدون مثل لم يكن يكلمهم». وكان هذا الكتاب يقرأ للموعوظين بالذات. وقال عنه القديس أثناسيوس الرسولي — بطل مجمع نيقية في القرن الرابع — «إنه الكتاب الجليل النفع». أما الكتاب الثاني فهو: **كتاب المربي** (١) : لأكليمندس الإسكندري، وهو أحد الكتب التي كانت تستخدم في مصر وفي خارج مصر كمصدر للتعليم المسيحي في العصر القبطي. ويتحدث أكليمندس في هذا الكتاب عن المسيح كمرب، وأنه يعالج المؤمنين من خطاياهم ويطهرهم منها. ثم يكشف أكليمندس عن طبيعة العلاقة الروحية التي تربطنا بالله، وأنه كلما تركنا رغبات الجسد ازداد ارتقاؤنا الروحي، واقترابنا من النور الإلهي، وصرنا أبناء للآب السماوي. ويرى أكليمندس أن الله هو مربينا الأعظم، وأن التعليم الذي من الله هو طريق الحق الصحيح إلى تمجيده وإلى متابعة الأعمال الصالحة في صبر ومثابرة.

أما الجزء الثاني من هذا الكتاب فيشمل الحديث عن آداب الطعام والشراب والكلام والضحك والنوم والملبس، وعن سلوك المسيحيين في الأعياد والحفلات، واستخدام الحلي والشغف بها وغير ذلك من نواحي السلوك التي تتطلبها مستلزمات حياتنا في المجتمع، وبمعنى أوضح يجيب أكليمندس عن السؤال الآتي: كيف ينبغي أن يسلك المسيح، وقد سبق أن قلنا إن أوريجانوس إذا كان قد اهتم بالموضوعات اللاهوتية، فإن اهتمام أكليمندس انصب على أخلاقيات المسيحية. فهو في الإجابة عن هذا السؤال، يوصينا أن نتسامى عن رغبات الجسد وأهوائه، فنأكل لنعيش، لا أن نستمتع استمتاعاً جسدياً قد

---

(١) هذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية عن اليونانية بمجموعة Ante- Nicene Fathers Vol 2. PP 207-299 بعنوان Paedagogus، وراجع أيضاً Hardy: Ch. Ed. P.15; يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٧٠.

يعطلنا عن خلودنا الأبدي.

أما عن آداب الكلام فينهينا المربي عن التلفظ بالكلمات الرديئة، وعن المعاشرات الفاسدة لأنها تفسد الأخلاق الجيدة والضمائر السليمة. ونلاحظ أن أكليمندس في حديثه كمرب يربط بين المباديء التي يعلم بها وبين آيات الإنجيل كما وردت في وصايا السيد المسيح، وفي تعاليم تلاميذه. كما أنه يستعين — بين وقت وآخر — بأقوال وأمثال الفلاسفة اليونانيين فهو يستشهد مثلاً بقول سوفوكليس اليوناني حين وبخ أحد الشبان قائلاً عنه «إنه يتزين بزي النساء».

أما الجزء الثالث فيتضمن الحديث عن الجمال الحقيقي، وأنه ليس في الملبس أو جمال الخلقة أو بالتحلي بالجواهر، وإنما في الفضيلة. وواضح أن هذا توجيه رفيع للسيدة والفتاة.

بعد ذلك يتحدث عن أضرار قضاء الوقت فى الملاهي، فينصح الرجال أن يحرصوا على الوقت فلا يضيعونه سدى، بل يجب أن يقدسوا وقت العبادة والذهاب إلى الكنيسة كما يجب أن يعتادوا ضبط حواسهم وأعينهم.

ثم يتعرض أكلميندس لروح العلاقات التي ينبغى أن تسود الأسرة، ولا يفوته أن يعرض لمعاملة الخدم معاملة طيبة لأنهم بشر مثلنا (١هـ).

كانت هذه الكتب تقرأ في الكنائس لتوجيه المؤمنين إلى حياة الفضيلة، ويلاحظ أنها تشتمل على إرشادات عملية في توجيه السلوك الإجتماعي بالإضافة إلى التوجيه الروحي للنمو في الفضبلة والحياة المسيحية المثالية.

ومن الكتابات الموحية أيضاً، والمدعمة لهذه التوجيهات، كتابات بعض قديسي الكنيسة في الدفاع عن سلوك المسيحيين وطهارتهم وخلقهم وأمانتهم، فقد قال ترتوليان مثلاً (١) «إيتوني بمسيحي قاتل أو زان أو لص، فإن المذنبين تعاقبهم الكنيسة وتفرزهم كقول القديس بولس «كتبت إليكم أن لا تخالطوا الزناة. وإن كان أحد مدعواً أخاً زانياً أو طماعاً أو عابد وثن أو شتاماً أو سكيراً أو خاطئاً — فلا تخالطوه أو تؤاكلوه» (٢) . وجرى التقليد الكنسي على إتباع هذا التوجيه: فرز المنحرفين غير التائبين لأن المعاشرات الرديئة تفسد

---

(١) Latourette, Op. Cit. P. 282

(٢) رسالة القديس بولس الأولى إلى كنيسة كورنثوس الفص الخامس ٩ـ١١.

الأخلاق الجيدة(١).

كذلك يوستين الشهيد كان يتحدث عن أنه كان قبلاً منحرفاً خاطئاً ولكنه في المسيح أصبح يسلك بالكمال ثم قال «نحن الذين كنا نجمع الأموال أصبحنا الآن نعاون المعوزين، نحن الذين كنا نبغض ونحقد ويفنى بعضنا البعض أصبحنا في المسيح نعيش معاً في محبة وتسامح، حتى أعداءنا نسامحهم (٢).

وأثيناغوراس، الذي كان عميداً لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية في أوائل القرن الثاني، علم هذا التعليم فذكر أن « المصالحة مع الله تؤتى راحة الضمير»(٣).

وأوريجانوس ــ الفيلسوف والمربي القبطي في أواخر القرن الثاني ــ قال عن أثر المبادىء المسيحية في تغيير سلوك أعضاء المجتمع: من نساء وشباب وأطفال، إن الكثيرين منهم كانوا منحرفين خطاة ولكنهم تابوا ودربوا أنفسهم على ضبط النفس.

أما البابا ديونيسيوس الإسكندري ــ البابا ١٤ ــ فكان يعلم في منتصف القرن الثالث عن المحبة وكان يقول «ينبغى أن تعمل الخير حتى لمن لا يريده أو يستحقه».

هذه الأقوال كلها تكشف عن حقيقة تربوية هامة، هي أن التربية القبطية اتجهت إتجاهاً إيجابياً في توجيه الأطفال المصريين، فلم ترهبهم بعذاب، ولم تعدهم بجزاء، وإنما عملت بقدر الإمكان على إحاطتهم بجو روحي، وخلقيات سامية، ومثل عليا، تحفزهم إلى ممارسة الفضيلة حباً في الفضيلة ذاتها، وتمثلاً بالقديسين الكاملين. وكانت رابطة المحبة، وما اقترن بها من انتشار روح المشاركة والتعاطف والمجاملة، هذه كلها قدمت «أيديولوجية» جديدة لتكوين أنماط جديدة من الشخصية يقوم سلوكها على أساس النمو الروحي الداخلي، وتكوين الضمير المسيحي الشخصي، والتدريب على عمل الفضيلة بممارستها، وقد نجحت الكنيسة في توجيه أعضائها إلى حد كبير، وساعد على نجاحها أنها ظهرت كأسرة كبيرة جامعة «اتحدت فيها الشعوب جميعاً دون تمييز بين

---

(١) المرجع نفسه فصل ١٤،٦، ١٨، وفصل١٥:٣٣.

(٢) Lat. Ibid. P.4.

(٣) Ibid.P. 283.

جنس وجنس أو لغة ولغة، أو قومية وأخرى (١) فكان كل مؤمن يشعر أنه عضو في هذه الأسرة الكبيرة، وتدريجياً كان يقتنع أنه يمثل هذه الأسرة فيجب أن يسلك وفقاً لمبادئها».

على أن الكنيسة لم تقف عند حد الجو الروحي، وتوجيه أعضائها إلى حياة الفضيلة المسيحية، من جانبها الروحي فقط، وإنما كانت لها إلى جانب ذلك «ايديولوجيتها» الإجتماعية ونحن نرى فيها الميدان التطبيقي «للأيديولوجية الروحية» ولتوضيح ذلك نقول إن الكنيسة علمت مثلاً عن المحبة والتسامح والأخوة بين الناس دون تفرقة، وعلمت عن الرحمة والتراحم، وعن الطهارة والتعفف. فهل طبقت ذلك عملياً؟ وكيف ؟ هذا ما نريد توضيحه.

ثانياً — وسائل التربية الإجتماعية: كانت حماية الأسرة والطفولة في مقدمة التأثيرات الإجتماعية التي انفردت بها المسيحية وسط الآراء المتنافرة التي كانت منتشرة وقت ظهورها. فقد دعت إلى رباط زوجي من نوع جديد، رباط يقوم على أساس إلهي، ولا يمكن فصمه إلا بالموت أو بالخيانة، ومن هنا منعت الطلاق، وتعدد الزوجات، وإتخاذ السراري. وفي عهد قسطنطين صدر تشريع بتحديد الطلاق، والعمل على تقوية رابطة الزواج، واعتبار خطيئة الزنا جريمة كبرى.

وعملت المسيحية على حماية الطفولة، فمنعت قتل الأطفال، بل واتجهت الدولة إلى صرف إعانات للآباء الفقراء ليمكنهم أن يعولوا أبناءهم.

وكان موقف الكنيسة من الاسترقاق هو موقف المعارضة، ودعت إلى أن الله — كما يقول القديس أوغسطين — لم يخلق الإنسان العاقل ليسود على إخوته العقلاء أو يتحكم فيهم (٢) ، وأن الإنسان عبداً كان أو حراً، قادر على أن يكون إنساناً روحياً مؤمناً. وإذ رافقت هذه المباديء الكرازة بالمسيحية، فإن الذين كانوا يعتنقون المسيحية كانوا يطلقون سراح الرقيق الذين يعملون في خدمتهم. وكانت الكنيسة تنتهز فرص الأعياد — وخاصة عيد القيامة — للحث

---

(١) راجع الجزء الأخير من قانون الإيمان، وقد جاء فيه «وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية» وراجع أيضاً : القديس لوقا الفصل العاشر، مثال السامرى الصالح: ٢٥—٣٧ وسفر أعمال الرسل، فصل ٣٤:٤،٣٥، وراجع أيضاً:

Lossky, (Vladimir) The mystical Theology of the Eastern Church, Lond. 1957 p.165

(٢) Latourette, Op. Cit. p.262

على إطلاق سراح العبيد وعتقهم من قيودهم. بل لقد اتجهت الكنيسة إتجاهاً عملياً رائعاً إذ كانت تدفع من أموالها في سبيل عتقهم وخاصة للسادة الوثنيين الذين يملكون عبيداً مسيحيين.

ونلاحظ أن الكنيسة لم تتجه إزاء هذه المشكلة إتجاهاً ثورياً (١) وإنما عالجتها بطريقتها الخاصة: بتغيير الفكر الداخلي للإنسان، وتحويله من نزعات حب السيادة والقسوة والسيطرة إلى المحبة واللطف والرحمة، بل إن القديس بولس دعا العبيد المسيحيين إلى طاعة سادتهم، ولما لجأ إليه أحد العبيد هارباً طلب إليه أن يرجع إلى سيده ومعه رسالة إليه أن يقبله، وأن يحسب ديونه عليه هو شخصياً (٢) .

وارتبطت فلسفة الكنيسة إزاء مشكلة الاسترقاق بوضع حلول حاسمة لمضاعفاتها، فقد قاطعت الملاهي الرومانية التي كان يقتتل فيها المصارعون، ولم تقبل أحد هؤلاء المصارعين ضمن عضويتها ما لم يتعهد أولا بأن لا يعود إلى هذا العمل مرة أخرى، بل وحرمت من عضويتها كل من كانوا يحضرون هذه المباريات(٣) . لكنها — في الوقت نفسه — كانت تساعد من يترك هذه المهنة بأن توجد له عملاً آخر يرتزق منه. وكان لا بد للكنيسة وهي رسالة المحبة والرحمة — أن تقف هذا الموقف، فهذه المحافل والمباريات — كما قال أكليمندس — كانت تقام في ظل العبادات الوثنية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنها أبعد ما تكون عما يجب أن يتسم به المسيحي من وداعة ولطف وقداسة وحب للسلام. ففي هذه المجالات لم يكن يكتفي بإرتكاب جرائم القتل بطرق بشعة، وإنما يتعلم القتل والتدريب عليه!! وقد جاء في تعاليم الرسل «انتهوا عن جميع محافل الأمم، وأصنامهم وأعيادهم وصلواتهم» (٤).

وانتقلت هذه المبادىء تدريجياً إلى الدولة، فقد منع الإمبراطور قسطين ألعاب المصارعات ومعارك المصارعين وألغى العقوبة التي كانت تفرض أحياناً على المجرمين والمذنبين بأن يكونوا مصارعين. ولما بنى عاصمته الجديدة

---

(١) راجع رسائل القديس بولس إلى كنيسة أفسس فصل ٦:٥ وكنيسة كولوسي فصل٤:١، وإلى تلميذه تيموثاوس فصل ٦:١،٢

(٢)راجع رسالة القديس بولس إلى فليمون.

(٣) Lat. Op.Cit p. 269

(٤) الدسقولية: الباب ١١ ص١١٢.

«القسطنطينية» لم يكن لهذه الملاهي مكان بها. كذلك منعت المسيحية «المراهنات وقاومت بشدة استخدام العهر في المعابد تحت ستار العبادات».

ودعت المسيحية الأغنياء إلى خدمة الله بأموالهم، بل واتبعت مثال السيد المسيح ووصيته القائلة «من كان له ثوبان فليعط من ليس له» بأن أوصت القادر أن يعطى المعوز من ماله، وأن يعين المتعلم الجاهل بعلمه، وأن يساعد القوى الضعيف بقوته ونفوذه. وكعادتها، كانت الكنيسة المصرية هي حاملة لواء هذا التوجيه بطريقة تربوية، على لسان أحد روادها: أكلميندس الذي كتب رسالة بعنوان «من هو الغني الذي سيخلص» وجه فيها نظر الأغنياء إلى أن امتلاك المال في حد ذاته ليس خطأ ولا خطيئة وإنما سوء التصرف فيه وتبذيره فيما لا ينفع هو الخطيئة. ولئن كان بعض المفكرين المسيحيين دعا إلى التناهي في ترك المال، وإلى حياة التجرد حتى أنه حرم الملكية الخاصة: وهي الدعوة التى وصلت إلى قمتها في الدعوة إلى الرهبانية إلا أن الجميع ــ سواء من هذا الرأى أو ذاك ــ اتفقوا على ضرورة اتباع الأمانة في استخدام المال، وحسن استغلاله فيما يفيد الكنيسة أي جماعة المؤمنين. ونستطيع أن نرى هنا البذور الأولى للإشتراكية.

وكان من نتائج هذا التوجيه أن كثرت أعمال الخير، خاصة وأن الكنيسة لم تكتف بأن تعلم الأغنياء القادرين هذا التعليم، بل وعلمت به الفقراء أيضاً ونبهتهم إلى أن العطاء واجب لأنه جزء من العبادة. أى أن الكنيسة تسامت بالدافع إلى العطاء، فلم يعد الدافع تفضلاً من قادر على غير قادر، ولا امتناناً من غنى على فقير، ولكنه أصبح حباً ورحمة ومشاركة، بل ودليل صداقة شخصية للمسيح نفسه.

وتدريجياً ارتقت وسائل الخير فتحولت إلى أعمال تدر دخلاً منتظماً وتعالج مشكلات الفقر والفاقة والعوز والحاجة علاجاً جذرياً صحيحاً. وبذلك أخذت الوصية المسيحية شكلاً عملياً إيجابياً. يقول مؤرخو التربية «لقد اتجهت الكنيسة إلى تطبيق فضيلة المحبة لله والناس بطريقة عملية» (١) .

ومما يؤكد ذلك أن المؤمنين كانوا يسارعون إلى نجدة إخوتهم الشهداء، وخدمة المفصولين من وظائفهم بسبب إيمانهم، وإلى العناية بالأيتام والأرامل

---

(١) Eby and Arr. op. cit. P.P. 578 - 584

والمرضى والمجرمين، والعناية بدفن أجساد الشهداء الفقراء. وفي سنة ٣٧٠م أقيم في روما مستشفى لعلاج المرضى، وتبعه إنشاء عدد آخر في مدن أخرى وكان المسيحيون يعالجون فيه غير المسيحيين.

هكذا اتخذت الوصية المسيحية شكلاً عملياً تطبيقياً كان أعظم ميدان لتأكيد الإتجاهات التربوية الجديدة التي نادت بها المسيحية والتي عملت الكنيسة على وضعها موضع التنفيذ.

لذلك اقترن انتشار المسيحية في العالم اليوناني ـــ الروماني بتغييرات عميقة امتدت إلى أساسيات المجتمع نفسه، ومما أكد حدوث هذه التغييرات انضمام أقوى العناصر من الفلاسفة وقادة الفكر إلى الديانة الجديدة (١) فلم يكد القرن الرابع ينتصف حتى كان قادة الكنيسة، سواء في الشرق أو في الغرب قد أصبحوا من أعاظم رجال عصرهم.

ولكي نختتم هذا الفصل ـــ وقبل أن ندرس المدرسة كمؤسسة تربوية في العصر القبطي ـــ نرى أن نشير إلى إتجاهات الكنيسة في التربية السياسية. لقد اتبعت الكنيسة الوصية المسيحية بحذافيرها: طاعة الحاكم والولاء للدولة، والصلاة من أجل ولى الأمر (٢) . ففي تعليم المسيح «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وكذلك في تعاليم الرسل وقادة الكنيسة الأوائل، فالحاكم ـــ في نظر المسيحية ـــ لا يحمل السيف عبثاً، وإنما هو مقام بسماح من الله. وليس عندنا دليل أو شاهد واحد على أن الكنيسة المسيحية ـــ ككنيسة ـــ دعت يوماً إلى العنف أو وقفت من الحاكم المضطهد موقف المقاومة رغم موجات الاضطهاد العنيفة التي مرت بها، وخاصة في الكنيسة المصرية، اللهم إلا في مواقف الدفاع عن العقيدة، وهذه كانت أحياناً تأخذ شكل الحركات القومية وإنما بلونها السلمي، كما في عهد شنودة في القرن ٥، وعلى العكس لقد رأينا ـــ في رسالة البابا ثاؤنا ـــ إلى لوسيانوس ـــ كبير موظفي بلاط دقلديانوس في أواخر القرن الثالث ـــ أنه يوصيه بأداء واجباته بأمانة تامة.

وفي رسائل دفاع كتاب المسيحية كأثيناغوراس، وبوستيينوس، وغيرهما نجدهم يدافعون عن إيمانهم بالحجة، ويشيدون بسلوك المسيحيين وأمانتهم

---

(١) Taylor, The medievel mind, p.50

(٢) رسالة القديس بولس إلى كنيسة روما فصل ١٣:١ــ٧

وتعففهم، ثم يطلبون من الحاكم أن يقدر هذا كله فيوقف الاضطهاد ... وكان هذا اتجاهاً طبيعياً متوقعاً من الكنيسة التي ترى رسالتها في تغيير القلوب وتجديد الضمائر، وتعتبر الحياة الأبدية، وتوليها قدراً كبيراً من الاهتمام، وتنظر إلى الحياة الأرضية أنها حياة مؤقتة عابرة، وإلى الموت أنه وسيلة الإنتقال إلى الحياة الأفضل(١) ، ولذلك فهي تطلب على لسان القديس بولس أن يصلى المؤمنون ـــ لأجل الولاة والحكام ـــ لكي يقضي المسيحيون حياة مطمئنة هادئة بكل تقوى ووقار. (٢)

---

(١) رسالة القديس بولس إلى كنيسة فيلبي فصل ١:٢١

(٢) الرسالة الأولى للقديس بولس إلى تلميذه تيموثاوس فصل ٢:٢

ثالثاً: المدرسة ومراحل التعليم في العصر القبطى

مراحلها : التعليم الأولى ـــ التعليم العالى ـــ خطة إعداد المعلم .

درسنا فى الفصلين الأول والثانى من هذه الرسالة مراحل التعليم فى مصر القديمة ، وفى العصر اليونانى ـــ الرومانى ، وعالجنا ـــ بقدر ما أمدتنا المعلومات والمراجع المحدودة عن هذا العصر ـــ مناهج التعليم ، وأنواعه ، وألمحنا إلى أن المدرسة الوطنية المصرية أى مدرسة المعبد ظلت تؤدى رسالتها متصلة بالمعبد واعتبرناها لذلك معقل الثقافة القومية . فلما جاءت المسيحية جرت عادة الرسل الأوائل أن يقيموا مدارس للتعليم المقدس ، وبانتشار المسيحية انتشرت هذه المدارس ، وكان طبيعيا أن يهتم المصريون ـــ وهم أصحاب التراث العلمى والتربوى العريض ـــ بإنشاء المدارس ، وتعليم حقائق الدين الجديد إلى جانب دراساتهم التقليدية فى اللغة والرياضيات . ومن دراسة بعض البرديات التى عثر عليها بالفيوم أخيرا وجد أن المسيحية وصلت فى نهاية القرن الأول إلى مصر الوسطى ، وامتدت فى منتصف القرن الثانى إلى الصعيد . وفى هذه الفترة انتشرت الآداب المسيحية ، وكان ذلك ولا شك عن طريق المدرسة الملحقة بالكنيسة إلى جانب التعليم فى المنزل وفى الكنيسة ذاتها . وقد استدل المؤرخون على ذلك من البرديات الكثيرة التى عثر عليها[١] ، ومن قطع ونصوص الانجيل ، بل وترجمات لهذه النصوص ولكتابات الرسل بلهجات مصرية مختلفة ، وبلهجات يونانية[٢] .

---

(١) فى سنة ١٩٤٦ عثر بقرية الدباخ ـــ مركز نجع حمادى على ١٣ قدرا وجد فيها ١٣ بردية أنارت لنا المعلومات عن المسيحية فى مصر فى سنواتها الاولى .
(المرجع : دورية الثقافة : ١٩٥٦ : ص ١٠٠) .

(٢) وتعتبر هذه الملفات من أثمن الكنوز الادبية القبطية التى يحتويها المتحف القبطى ، وهى مكتوبة إما باللهجة الصعيدية أو الأخميمية . ولها أساس فلسفى روحى بعضه عن اليونان وبعضه عن التفكير الشرق وخاصة المصرى القديم .

Latourette . op . cit . p .91

ولقد جاءت إقامة المدرسة إلى جوار الكنيسة فى العصر المسيحى نتيجة طبيعية لرعاية الكنيسة للأطفال والطفولة . وبالنسبة للتربية القبطية يمكن أن يضاف إلى هذا العامل تأثير التراث التربوى لمصر القديمة ، ويمكن بالتالى اعتبار المدرسة فى العصر القبطى امتدادا لمدرسة المعبد القديمة فى الأزمنة القديمة .

وهنا نريد أن نقف قليلا لندرس الخطة التعليمية بهذه المدرسة ومظاهر تطورها فى العصر القبطى ، وانعكاس ثقافة العصر عليها ، وتأثيرها بالتالى فى مد هذه الثقافة بعناصر جديدة ، ثم ندرس شيئا عن مناهجها ومعلميها وخطة إعداد هؤلاء المعلمين .

مراحل التعليم :

لما دخلت المسيحية الاسكندرية نحو سنة ٦٠ م(١) ، أنشأ القديس مارمرقس أول مدرسة مسيحية بالمدينة لتقوم بتعليم المصريين المسيحيين حقائق الدين الجديد ، وفى مبدأ الأمر كان يلتحق بها الكبار والصغار جميعا إلى أن ازداد عدد المؤمنين بالدين الجديد ، وتبلورت خدمة التعليم فتميز تعليم الكبار فى مدارس الموعوظين ــ التى سنشير إليها بعد قليل ــ عن تعليم الصغار الذين كانوا يلحقون بالمدارس الملحقة بالكنيسة . ومن كتابات المؤرخين نرى أن التعليم طوال القرنين الأول والثانى لم يتخذ شكلا نظاميا مرتبا كما هو الحال عندنا فى الوقت الحاضر(٢) ، وإنما حيث وجد المدرس وجد التعليم أى وجدت المدرسة فى أبسط صورها ، وإن كان إلحاق الأطفال بالمدارس قد شكل اتجاها عاماً اقترب إلى الإلزام من قبل الكنيسة . ومن دراسة سير بعض البطاركة وعلماء القرون المسيحية الأولى ، يتضح لنا أن التعليم كانت تنظمه مرحلتان بارزتان :

---

(١) لم تكن المسيحية مجهولة لدى بعض المصريين بالاسكندرية وبعين شمس حيث كان يقطن عدد من اليهود الذين اعتادوا ، وفقا لطقوسهم الدينية ــ أن يعيدوا عيد الفصح بأورشليم والذين أتيحت لهم الفرصة أن يشهدوا بزوغ المسيحية وبدء انتشارها ببلادهم (راجع سفر الاعمال فصل ٢ عدد ١٠) وقد ذكر فيه أن يهود مصر كانوا موجودين بأورشليم فى تلك المناسبة . ومن المرجح أنهم حكموا عما رأوا وسمعوا من حقائق الدين الجديد عند عودتهم إلى مصر . كذلك وجد أشخاص من أمثال أبولس السكندرى الذى يشهد عنه سفر الأعمال أنه كان رجلا مقتدرا فى الكتب وبعد إيمانه بالمسيحية كان يقنع اليهود بها (أعمال الرسل فصل ١٨) .

(٢) د . جورجى صبحى : بحث التعليم عند القبط ــ مجلة جمعية الآثار القبطية ــ مجلد ٣ ــ سنة ١٩٣٨ .

المرحلة الاولى : وهى مرحلة التعليم الأولى ، وكان ميدانها الأول المنزل ثم المدرسة الأولية الملحقة بالكنيسة أو بالدير القريب .

ونكرر هنا ما سبق أن ذكرناه أن الكنيسة قامت ـــ بالنسبة لهذه المرحلة ـــ برسالة التربية الروحية والاجتماعية ، فقد كانت نظمها وطقوسها وألحانها وعباداتها وقراءاتها ـــ والمثل التى فيها ـــ رسالة تربوية مستمرة تشارك بطريقة فعالة فى صون التراث الروحى التعليمى من ناحية ، وفى اعداد النشء لمجتمع تسوده ظاهرة الاستشهاد من ناحية أخرى .

أما المرحلة الثانية : فهى مرحلة التخصص وكانت تقوم أساسا على التلمذة لمعلم خاص ، إلى جانب الدراسة بالمدرسة اللاهوتية ، كما سيأتى فى الحديث ، لتنتهى بصاحبها إلى وظيفة الشموسية أو الكهنوت بمختلف درجاته (القسوسية والأسقفية) ومن سير بعض الآباء البطاركة مثل البابا ١٧ ، والبابا ٢٠ نعرف أنهم كانوا يتلمذون لهم بعض التلاميذ ليخلفوهم على الكرسى البطريركى (١) فكانوا يزيدون فى وصيتهم للقيام بأمانة على هذه المسئولية أو التدريس بالمدرسة اللاهوتية .

وبينما نرى أن المرحلة الأولى كانت إجبارية ، مجانية ، إذ كانت ملحقة بالكنيسة أو الدير وقد جرى التقليد الكنسى على أن تتقاضى الكنيسة احتياجاتها من أبنائها عن رغبة واختيار ولم يكن ثمة مانع أن تكون هذه العطايا عينية أحيانا .

راجع القديس بولس فى رسائله إلى كنيسة غلاطية فصل ٦ : ٦ ، ورسالته الثانية إلى كنيسة كورنثوس فصل ٨ ، ٩ ، وإلى كنيسة كولوسى ص ١ : ١٦ ، وإلى كنيسة فيلبى ص ٤ : ١٥ ، ١٦ . فى رسالته إلى غلاطية مثلا يقول : « ليشارك الذى يتعلم الكلمة المعلم فى جميع الخيرات » . وراجع أيضا الدسقولية : الباب السادس : ص ٦٤ .

أما مرحلة التخصص فكان مركزها مدينة الاسكندرية وكانت الإقامة بها تحتاج إلى نفقات .

---

(١) راجع : Patrologia Orientals Tom I p. 209, 210, 427, 428

ونفصل الحديث عن المرحلتين فيما يلى : —

مدرسة المرحلة الاولى : من دراسة بعض تراجم ذلك العصر ، نرى أنه لم توجد حواجز بين مرحلتى التعليم ، كما لم يحدد سن معين للالتحاق بالمدرسة ، أما مدة الدراسة فلم تكن محددة أيضا وإنما سارت وفق استعدادات كل تلميذ ، وأغلب الظن أن المصرى المسيحى ظل محافظا على عادة إلحاق ابنه بالمدرسة فى سن مبكرة (راجع الفصل الأول ص ٢٩ ، ص ٣٠) . وأهم مراجعنا فى دراسة هذه التراجم تاريخ البطاركة ، وسنهتم بطبيعة الحال بتراجم بعض بطاركة العصر القبطى بصفة خاصة .

ففى سيرة القديس بطرس خاتم الشهداء وهو الباب السابع عشر (+٣٠٣) أن أباه كان كاهنا بالاسكندرية ، وفى سن ٥ سنوات دفعه للتعليم ، فلما بلغ سن السابعة ارتقى إلى رتبة الغنسطية (الشماس القارىء) ، فلما صار له من العمر ١٢ سنة أكمله البابا شماسا حتى اذا ما بلغ ١٦ سنة قدمه قسيسا « لما رآه من عفافه وعلمه ونسكه وملازمته خدمة الكنيسة نهارا وليلا » . ولما ظهرت الرهبانية أصبح الدير مركزا للتخصص فى العلوم اللاهوتية ، وللتدرب على الفضائل التقوية ، ففى سيرة البابا كيرلس — البابا الرابع والعشرين (+ ٤٣٥ م) نرى خاله — البابا تاوفيلس — البابا الثالث والعشرين — أى السابق له — يعلمه ويربيه أحسن تربية ثم « يأخذه إلى جبل النطرون إلى برية أبى مقار ليقيم هناك خمس سنوات يقرأ الكتب العتيقة والحديثة أى أسفار العهد القديم والعهد الجديد » .

فى هذه المرحلة كان التلميذ يدرس اللغة ، وتعاليم الكتاب المقدس ، ويستظهر بعض المزامير والألحان الكنسية . أى أن تعليم أدوات المعرفة كان يأتى فى مقدمة مناهج التعليم تضاف إليها دراسة الرياضيات التقليدية والمعروفة لدى المصريين منذ الأزمنة القديمة : حساب المساحات ، والموازين ، والمكاييل ... الخ . وحتى منتصف القرن الثانى كانت اللغة الأساسية التى تعلم للأطفال هى اللغة اليونانية ، إلى أن وضع بنتينوس الأبجدية القبطية ، وأصبحت اللغة القبطية تعلم بدورها فى المرحلة الأولى . وحتى القرن الخامس — وبالتحديد سنة ٤٥١ وهى السنة التى حدث فيها الانشقاق الكبير بين الكنيسة القبطية ، والكنائس الغربية — كان آباء الكنيسة ومعلموها يتقنون اللغة الإغريقية كتابة وقراءة ، دليل دراستهم لها وهم صغار . ذلك أنها كانت لغة

العصر ، ولغة الثقافة السائدة بما فيها المعاملات الرسمية والعقود والخطابات فى العالم الهيلينى[1] . ولتمكن هؤلاء الآباء من اللغة اختلط الأمر على بعض الكتاب فاعتبروهم اغريقا ووقعوا بذلك فى خطأ تاريخى جسيم . فقد فات أصحاب هذا الرأى أن وصايا هؤلاء الآباء – من أساقفة ومعلمين – كانت تكتب أولا بالقبطية ثم تترجم إلى اليونانية[2] ، كما فاتهم أن أسماء هؤلاء الآباء وإن كانت اغريقية إلا انهم مواطنون مصريون فاوريجانوس وإثناسيوس مثلا مولودان بالاسكندرية ونستدل بهذين الاسمين على سبيل المثال فقط ، ولأنهما فى المقدمة من زعماء المسيحية والمدافعين عنها . وبعد حدوث الانشقاق ، عمل المصريون على متابعة محاربة هذه اللغة وأدبياتها ، وخاصة فى أديرة الصعيد الأعلى : أديرة شنودة الذى عمل بقوة وصرامة على تخليص الصلوات والألحان القبطية من كل المؤثرات .

والسؤال الآن : هل بقيت المدارس المدنية الحكومية والخاصة التى سبق الحديث عنها فى فصل سابق ، يجيب Butts عن هذا السؤال بالايجاب[3] وإن كان هذا لم يمنع أن تتولى المدرسة الكنسية تعليم اللغة والحساب . أى أنها قامت بدور التعليم الدينى والمدنى على أنه من الواضح أن المدارس الكنسية كانت أقل عددا من المدارس المدنية إلى أن كانت الفترة بين القرنين الخامس والثامن حين أصبحت السيطرة على التعليم للكنيسة فقط ، أى على عهد الامبراطور تاؤدوسيوس الكبير الذى يسميه مؤرخ البطاركة « الملك المحب لله » .

ومما يؤكد أن الكنيسة كانت مركزا لتعليم ما جاء فى سيرة البابا ديونيسيوس البابا ١٤ فى تعداد بابوات الاسكندرية ــ والذى كان قبل اعتناقه المسيحية وثنيا على رأى الصائبة وكان حكيما « فعبرت به عجوز أرملة ومعه كراس مكتوبة من رسائل القديس بولس فاشتراها منها . فلما قرأها أراد أن يستزيد منها فسألها أن وجدت بقية هذا الكتاب دفعت لك ٦ دنانير فقالت له العجوز لما رأت إيمانه واجتهاده « امض إلى البيعة واطلب الكتاب كاملا » ومضى ديونيسيوس إلى أحد خدام البيعة وسأله فأعطاه رسائل القديس بولس كاملة

---

(١) روستوفتزف : تاريخ الدولة الرومانية الاجتماعى والاقتصادى .

(٢) Hardy. Christian eg. p. 172

(٣) Butts: Cultural Hist. of Education. N. York. 1947 p. 119, p. p. 127- 132

فقرأها وحفظها ومضى إلى الأنبا ديمتريوس وطلب أن يعتمد . ثم لازم البيعة وصار له تلاميذ كثيرون[1] ومن كلمة « لازم البيعة وصار له تلاميذ كثيرون » نستنتج أن عمليتى التعلم والتعليم ظلتا مستمرتين مما يقطع بصلة المدرسة بالكنيسة ، وبتطورها حتى أصبحت مركزا للتخصص . فالواقع أن ديونيسيوس تتلمذ لأوريجانوس . وفى سنة ٢٣٢ م أصبح عميدا للمدرسة اللاهوتية . ونفى فى اضطهاد فاليريان سنة ٢٥٧ م .

Ante- Nicene- Fathers : Vol II pp . 77 , 78

وينبغى أن نلفت النظر إلى أن الكنيسة هنا يقصد بها كنيسة الأسكندرية التى كانت مركز البابوية ، وبالاسكندرية — كما سنرى — تطورت مدرسة مارمرقس حتى أصبحت مركزا للتعليم العالمى .

مدارس الموعوظين Schools of Catechumens

لما ازداد انتشار المسيحية فى القرن الثانى ظهرت الحاجة إلى ضرورة وضع نظام تعليمى للراغبين فى الدخول فى الإيمان ، فنشأت مدارس الموعوظين[2] ، وفى مبدأ الأمر كانت الفترة التى يقضيها المؤمنون الجدد قصيرة لا تتجاوز فترة الصوم الكبير كما سبق الذكر ، لكن بمرور الوقت ، إمتدت هذه الفترة إلى عامين أو ثلاثة ، كان الطالب يتدرج خلالها بمراحل ثلاثة هى : —

المرحلة الاولى : مرحلة الاستفسار ، ويستمع فيها الطالب إلى فكرة عامة عن المسيحية عن طريق التعليم الفردى ، وتقوم طريقتها على أساس السؤال والجواب ، أى الحوار والمناقشة .

Chauleur (S .) Hist . des Coptes : p . 13 D’Eg . Paris 1957

المرحلة الثانية : مرحلة الاستماع : وفيها يسمح للطالب أن يدخل الكنيسة ، ويستمع إلى القراءات الكنسية وتفسيرها والبقاء حتى نهاية قداس الموعوظين ، أى عقب القراءات .

---

(١)ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة — مخطوط بالمكتبة البطريركية — تاريخ رقم ٩٢ — ص ٤٢ .

(٢)مكارى السريانى : بحث « التربية المسيحية فى الكنيسة القبطية الاولى » — مجلة معهد الدراسات القبطية — السنة الاولى — العدد الاول — سنة ١٩٥٨ — ص ٦٦ .

المرحلة الثالثة : مرحلة التأهل للعماد وكان الطلاب يعدون للعماد ، ويحضرون بقية القداس[١] .

هذا النظام كان يتبع مع الكبار الراغبين فى الدخول إلى المسيحية ليصبحوا أعضاء فى الكنيسة ، فقد كان تعريف الموعوظين بحقائق الايمان المسيحى من أهم المهام التى تضعها الكنيسة فى أعتبارها الأول بين واجباتها ، وكان هؤلاء من طبقات ووظائف ومهن مختلفة ، أطباء ، ضباط ، أعضاء من السناتو (فى روما نفسها) . موظفون قضاة حتى حكام الولايات ومعهم زوجاتهم وأولادهم[٢] . وقد يظن البعض أن فترة عامين أو ثلاثة فترة طويلة ، ولكن لا يستبعد أن الكنيسة حددت هذه الفترة من واقع تعليم الكتاب المقدس : فالقديس بولس حال تغيره إلى المسيحية قضى بصحراء العربية قرب دمشق ثلاث سنوات معتزلا عن العالم ومشاغله[٣] ، مختبرا حقائق الدين الجديد فى حياته . وسنرى أنها المدة نفسها التى حددها القديس باخوميوس لاختبار طالبى الرهبنة للتأكد من صلاحيتهم . وخلال فترة الاعداد هذه يوضع المؤمنون الجدد تحت رعاية روحية مقصودة تستهدف تنقية أفكارهم وأنفسهم الباطنية من شوائب العبادات الوثنية وما أرتبط بها من مجون وشرور .

وكانت مهمة تعليم الموعوظين موكولة إلى المسيحيين المتقدمين فى السن والحكمة . وعن إكرام هؤلاء المعلمين تحدث القديس بولس فى إحدى رسائله قائلا أما الشيوخ المدبرون حسنا فليحسبوا أهلا لكرامة مضاعفة ولاسيما الذين يتعبون فى الكلمة والتعليم[٤] وكان القيام على تعليمهم فى بادىء الأمر سهلا لأن أعدادهم كانت قليلة . فلما جاء القرن الثانى المسيحى وزاد عددهم أصبح من الضرورى إنشاء مدرسة لهم . وكلمة Catechumens أى موعوظون مأخوذة عن الأصل اليونانى Katechesis ومعناها تعليم . ولما انتظم التعليم بالمدرسة وحددت فترته بثلاثة أعوام تخصص لها رجال الدين من كهنة

---

(١) Butts: op. cit. p. 120.

(٢)وراجع أيضا : لبيب حبشى ، وزكى تاوضروس : فى صحراء العرب والاديرة الشرقية القاهرة ١٩٢٩ ص ٢١ .

(٣)القديس بولس فى رسالته إلى كنيسة غلاطية : ص ١ ، : ١٧ ، ١٨ .

(٤)القديس بولس فى رسالته الاولى إلى تلميذه تيموثاوس فصل ٥ : ١٧ .

وشمامسة وعرف معلموها بلقب Catechists[١] .

وانحصر منهج هذه المدرسة أساسا فى تعريف الموعوظين بحقائق الايمان بالدين الجديد ، وطقوس العبادة ، وظلت هذه المدارس تقوم بمهمتها فى التعليم الروحى حتى القرن الخامس حين ثبتت الديانة المسيحية ودالت دولة الوثنية من المجتمع الرومانى وثبتت أيضا عادة عماد الأطفال ، وأصبحت مبادىء المسيحية تسلم للصغار بطريقة طبيعية فانتفت بذلك الحاجة إلى وجود مدارس الموعوظين .[٢]

ونخلص من هذا أن التعليم الأولى انتظم نوعين متميزين من المدارس :

النوع الاول : مدارس الصغار .

النوع الثانى : مدارس الموعوظين للكبار .

وكلا النوعين كان ملحقا بالكنيسة . ويقوم بالتعليم فيه معلمو الكنيسة . وقد بقيت حتى القرن الخامس . وكانوا فى أول الأمر ـــ بالنسبة للموعوظين ـــ من المتقدمين سنا وحكمة . وبتطور انتشار المسيحية وزيادة الحاجة إلى التعليم النظامى بالمدرسة ، أوكل الأمر لخدام الكنيسة أنفسهم . وكانوا يختارون بعد فحص وتدقيق ليقوموا بخدمة التعليم فى دقة وأمانة . وهؤلاء كان عليهم أن يجتازوا أولا مراحل إعداد وتلمذة واختبارات طويلة تؤهلهم لهذه المهمة الخطيرة : مهمة التعليم[٣] .

وفى الوقت الذى كان فيه مدرسو المرحلة الأولية بمدارس الدولة الرومانية يختارون من العبيد[٤] ، من أسرى البلاد التى أخضعتها روما ، كانت الكنيسة تولى إعداد المعلم الكنسى عناية خاصة . وفى نهاية هذا الفصل سنتحدث عن خطة إعداد المعلم الكنسى ـــ بوجه عام أولا ـــ ثم نخص بالبحث إعداد المربى المصرى . وإنما ـــ استكمالا لبحث التربية فى المدرسة القبطية فى المرحلة الأولى ـــ نقف قليلا عند نصيب البنت فى التعليم فى العصرالقبطى .

---

(١)مكارى السريانى : مجلة معهد الدراسات ـــ ص ٦٦

(٢) Butts : op . cit . p . 608

(٣)راجع القديس بولس فى رسائله إلى تلميذه تيموثاوس (الرسالة الاولى فصل ٣) ، (إلى تلميذه تيطس) .

(٤) Butts : op . cit . p . 121 .

تعليم البنت فى العصر القبطى

من النصوص التى عثر عليها فى دراسة تاريخ مصر القديمة ، نصوص تذكر أن التعليم كان مباحا للجنسين . بل لقد عثر المؤرخون على وثيقة من الأسرة الخامسة عن امرأة تفتخر أنها تستطيع القراءة بسرعة [١] . ويذكر مؤلف كتاب « إرث مصر » أن التعليم لم يكن ممنوعا بالنسبة للمرأة فى العصر البطلمى . أما ادريس بل فيذكر عن خطاب لتلميذ يطلب فيه شراء كتاب المطالعة من أجل زميلته هيرايدوس . وقد عثر على هذا الخطاب أوائل القرن الثانى قبل الميلاد [٢] .

فلما جاءت المسيحية لم تعترض على تعليم البنت بل دعت إلى اشراكها فى الخدمة وجعلت منها شماسة أى معاونة للراعى فى خدمة السيدات ، والكرازة بينهن بالمسيحية فى عهد الوثنية . ويذكر القديس بولس فى رسالته إلى كنيسة روما عددا من أسماء الشماسات مثل فيبى وبرنيس وبريسكلا وغيرهن [٣] أما الدسقولية فقد أوصت بخدمة الشمامسة بين النساء [٤] . وقد جرت على الشماسة البنت الشروط نفسها التى اشترطت بالنسبة للشماس [٥] كما أوصى مختلف الرسل أن تكون الشماسة محترمة وجليلة .

ولذلك كانت تقضى فترة تحت الاختبار تتعلم خلالها مبادىء المسيحية وتحفظ المزامير وإن كان هذا لم يمنع ــ بالنسبة للبنت ــ متابعة التقليد المصرى الثابت فى التعليم للقراءة والكتابة أوليات الحساب .

ولما انشئت الأديرة لم تتأخر المرأة القبطية عن الرهبنة ، وفى سيرة القديس أنطونيوس أنه سلم أخته لأحد أديرة العذارى المنتشرة بجوار الكنائس وأن أديرة باخوميوس اشتملت على ديرين للراهبات [٦] كن يتعلمن ويدرسن وتسرى عليهن فرقتين ديرية باخوميوس أب الشركة .

---

(١) د . عبد المنعم أبو بكر : التعليم وأهدافه فى مصر القديمة : القاهرة ١٩٥٤ ــ ص ٥ .

(٢) Leg . of Eg . p . 267 .

(٣) راجع رسائله إلى : ا . روما : فصل ١٦ .

(٤) الدسقولية : ص ٦٦ .

(٥) القديس بولس فى رسالته الاولى إلى تلميذه تيموثاوس فصل ٣ : ١٠ .

(٦) Eusebius: op. cit. p. 49.

مدرسة الاسكندرية اللاهوتية
مرحلة التعليم العالى فى العصر القبطى

كان طبيعيا أن تتطور الكنيسة المصرية بنوع التعليم ، خاصة وأن الاسكندرية كانت مركزا للبابا ، وقد رأينا أنها كانت مركز الحياة العقلية والعلمية فى العالم الهيلينى . وقد رأينا فى الفصل الخامس كيف عمل علماء مدرسة الاسكندرية المسيحية أو اللاهوتية — كما تسمى أحيانا — على أن يكونوا أندادا للفلاسفة الوثنيين الذين كانت تضمهم مدرسة الاسكندرية البطلمية ، والتى عرضنا لأنواع دراساتها ومناهجها فى الفصل الثانى . ولقد نجح المفكرون المسيحيون فى أن يطوروا التعليم المسيحى ويصلوا بدراساتهم إلى مستوى عال جدا يقف جنبا إلى جنب مع تعليم وآراء الفلاسفة الوثنيين[١] ، وبذلك أضافت الاسكندرية إلى أمجادها وإلى تراثها تراثا جديدا ، وأصبحت الاسكندرية المسيحية من حيث خدماتها للفكر والحق لا تقل تأثيرا عن اسكندرية اليونان أو اسكندرية الرومان حتى اعتبرها المؤرخون عقل العالم المسيحى ، وقاعدة الفكر فيه[٢] ، ذلك أن قادة المجامع المسكونية من بابوات وعلماء الاسكندرية كانوا من خريجى مدرستها اللاهوتية العريقة .

ويرجع الفضل فيما وصلت إليه الاسكندرية المسيحية من مقام عال فى العالم المسيحى إلى الرعيل الأول من الأساتذة وفى مقدمتهم أثيناغوراس ، ونيتينوس ، واكليمنضس وأوريجانس وديونيسيوس ، وأثناسيوس ، وكيرلس وغيرهم ، وإنما نكتفى بهؤلاء على سبيل المثال ، باعتبار أن فيهم يتمثل الفكر المسيحى فى العصر القبطى .

وأصل هذه المدرسة — كما هو معروف — يرجع إلى القديس مرقس الذى كرز بالمسيحية فى الاسكندرية وأقام — كما جرى التقليد وقتذاك — هذه المدرسة لتعليم المؤمنين والموعوظين حقائق الايمان . وتدريجيا أخذت المدرسة

---

(١) Bardenhewer : Les Péres de L'eglise : 1898 p . 236 .

(٢) The Ante- Nicene Fathers : op . cit . Introduction- Notice .

تنمو ، خاصة على أيدى نتينوس وأكليمنضس وأوريجانس الذين إهتموا بتفسير الكتب المقدسة ، والرد على البدع التى كانت تظهر بين وقت وآخر ضد المسيحية كما سبق القول ، فتجمع حولهم الشباب وطلاب المعرفة ، من الاسكندرية وغيرها من أقطار البحر المتوسط . ولقد جذب هؤلاء الأساتذة بقدرتهم وعلمهم عددا كبيرا من أفراد الطبقة الغنية المثقفة بالاسكندرية[١] ، صار كثيرون منهم باباوات للاسكندرية ذاتها . يؤكد ذلك أن فى سير هؤلاء الباباوات عبارة تكاد تكون مشتركة فى سيرة كل منهم « أنه كان عالما فاضلا » وأنه « لم يفتر عن التعليم »[٢] وفى سيرة البابا الحادى عشر « أن المؤمنين أجتمعوا مع الآباء الاساقفة وتشاوروا فيمن يجلسونه على الكرسى الرسولى فوقع أختيارهم على قس حكيم عالم فاضل » أما البابا الثانى عشر ، فقد كان فى شيخوخته يحمل إلى البيعة فى محفة وهو « لم يفتر عن التعليم[٣] » وكان هؤلاء البابوات عادة ينتقون بعض تلاميذ لهم يقومون بتعليمهم وإعدادهم إعدادا فرديا خاصا ، ويشركونهم معهم فى إدارة أمور الكنيسة تمهيدا لأن يتولوا منصب البابوية من بعدهم . وذلك إلى جانب تخصصهم ودراساتهم اللاهوتية والفلسفية التى لم تلبث أن أزدادت وتطورت للرد على ما ظهر من البدع والانحرافات التى نسميها أحيانا هرطقات .

بدأت الجامعة اللاهوتية كمدرسة صغيرة فى بيت أنيانوس اليهودى الذى كان أول من قبل المسيحية فى الاسكندرية والذى أصبح بيته أول كنيسة يجتمع فيها العدد القليل من أوائل المسيحيين بمصر . وحتى القرن الثانى — كما سبق القول — لم يتخذ التعليم بهذه المدرسة شكلا نظاميا إلى أن زاد أنتشار المسيحية ، وزادت بالتالى الحاجة إلى وجود تعليم منظم ، وأعداد خاص للوثنيين الذين ينضمون إلى المسيحية من ناحية ، وتثبيت للمؤمنين الذين أنضموا للدين الجديد من ناحية أخرى ، فتفرعت عن هذه المدرسة ، مدرسة الموعوظين التى ألحقت بالكنيسة . أما المدرسة اللاهوتية نفسها فقد أصبحت بالتدريج « قوة المسيحية الفكرية » بمن انضم إليها من أهل الفكر والفلسفة

---

(١) Oulton: Alex. Christianity p. 173.

(٢) كتاب تاريخ البطاركة المخطوط بالبطريركية — تحت رقم ٩٢ تاريخ ص ٣١

(٣) ذكر عن هذا البابا أنه كان فلاحا واختير بطريركا لفرط تقواه فعكف على التعلم رغم كبر سنه . (راجع المرجع نفسه ص ٣٩)

الوثنيين الذين لم يلبثوا أن اعتنقوا المسيحية ، وتطوروا بالدراسة بها[١] حتى أصبحت من أهم معالم اسكندرية القرن الثانى [٢]

وكانت طريقة التعليم بهذه المدرسة هى طريقة الحوار أو السؤال والجواب ، أى الطريقة القديمة التى عرفت فى تاريخ التربية بالطريقة السقراطية أو « فن توليد الافكار » وهى الطريقة التى كانت سائدة على مدارس ذلك العصر وبخاصة الاغريقية .

أما مناهجها الأولى فكانت حفظ أجزاء من الكتاب المقدس ، والتدريب على التسبيح والترتيل ، ودراسة تعاليم الرسل أى الدسقولية . ويقول القديس أثناسيوس (أواخر القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع) لقد وضع الآباء أن يدرس الدسقولية القادمون إلى المسيحية الراغبون أن يتثقفوا فى طريق الايمان » .

وكان من علامات نمو هذه المدرسة أنها تعرضت لنقد فلاسفة الوثنية من أمثال Celsus وتلميذه Prophyrus وقد أنصبت محاولاتهم على نقض صحة العهد القديم علميا ، والعمل على إيجاد متناقضات فى العهد الجديد ، فوضح أمام معلمى الكنيسة أنه لابد لهم من دراسة علوم المدرسة الفلسفية حتى يتمكنوا من الرد على علمائها الذين هاجموا المسيحية والإنجيل . بذلك تعددت الأهداف التى أصبحت لزاما على هذه المدرسة أن تحققها ، وأنتهت إلى أنه إلى جانب العلوم اللاهوتية والعقائدية يجب أن تدرس الفلسفة والأخلاق والشعر والادب والمنطق والخطابة والقانون بل والطب والرياضة وعلم وظائف الأعضاء . ظهر هذا الاتجاه فى الأربعة عمد الأول الذين قامت عليهم رسالة هذه الجامعة وهم : « اثيناغوراس ، بنتيونوس ، اكليمنضس ، اوريجانوس »

---

(١) Charles Bigg: op. cit. p.p. 69- 72

(٢) Butts: op. cit. p. 66

ومن السجال الفكرى بين المدرستين ظهرت الفلسفة الغنوسية[1] التى تتلخص فى أن بلوغ الايمان ونوال الحياة الابدية لا يتوقف على العمل بالوصايا الروحية فقط وانما تدخل فيه المعرفة . فالمعرفة يمكن أن تكون طريقا للخلاص وليس الايمان وحده » .

مظاهر الحياة الجامعية فى العصر القبطى :

على أن جامعات اللاهوت لم توجد بالاسكندرية فقط ، وإنما وجدت فى أنحاء العالم المسيحى ، فى أنطاكية ، وبيروت بلبنان ، وفى نصيبين بالعراق ، ورودس وطرسوس وانطاكية وسميرنا وبرجامون بآسيا الصغرى التى كانت بها مكتبة تحوى نحو ٢٠٠٫٠٠٠ مجلد[2] ثم قيصرية التى أنشأها العلامة اوريجانوس عقب حرمه نحو سنة ٢٢٠م . أما فى الغرب فكانت فى روما وميلان بايطاليا ، ثم فى مرسيليا وبوردو بفرنسا وأثينا باليونان . لكننا نستطيع الجزم بأن مدرسة الاسكندرية بصفة خاصة قد فاقت هذه المدارس جميعا حتى سميت معلمة المسكونة . ولا عجب فقد كان لمصر من ماضيها العلمى المعروف ما يميزها عن غيرها من الأقطار .

ولتوفر الجامعات فى أمكنة متعددة كان « الطالب المتجول » أحد المظاهر المميزة للقرنين الثالث والرابع ، فهو لا يزال يرحل من جامعة إلى أخرى طلبا للعلم ، حتى يحط رحاله مستقرا باحدى الجامعات التى يشعر أنها أشبعت بعلومها وأساتذتها تعطشه العلمى والتحصيلى . كذلك كان الأساتذة يتنقلون

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ـــ الطبعة الثالثة ١٩٤٦ ص ٢٥٥ ـــ٢٥٨ .
هذا المذهب لايزال حتى الآن رهن البحث والدراسة فقد وصلتنا أوراق بردى مكتوبة باللغة القبطية تتناول هذا المذهب بالشرح . وقد عرف هذا المذهب فى اللغة العربية باسم « مذهب العرفين بالله » (راجع باهور لبيب ـــ صفحة من تاريخ القبط ص ١١٤) . ولفظ غنوسيس يونانى ومعناه معرفة . والايمان فى نظر أصحاب هذا المذهب لا يكفى للخلاص وانما يجب أن يقترن بالمعرفة (راجع Hardy Christian Egypt . p . 15) ومن أشهر علمائه افلاطونيون وباسيليدس ، وثالنتينوس وقد سبقت الاشارة إلى أن ما عرف حتى الآن عن هذا المذهب مأخو عن كتابات مفكرين مسيحيين يعتبرون غنسطيين حقيقيين (راجع ايضا صفحة من تاريخ القبط ص ٤٥) إذ أن مؤرخى الفلسفة قد ميزوا بين اغنسطسيين منحرفين وآخرين حقيقيين مثل اكليمنضس (يوسف كرم ـــ ص ٣٧٣) .

(٢) Eby & Arto Wood - op. cit. p. 476.

بين جامعة وأخرى ، وقد كتب عدد منهم عن سياحاته ورحلاته . ومع تنقل الأساتذة والطلاب كانت تنتقل الثقافات المختلفة بين الشرق والغرب . واحتلت آراء الوجود والروح اهتماما خاصا بين هذه المدارس ، ودارت المناقشات العلمية واللاهوتية بين أساتذتها وطلابها .

مكان الدراسة

ولم تكن للمدرسة مبان خاصة قائمة بذاتها . فالأستاذ يستقبل طلابه بمنزله وأوضح مثال لذلك « العلامة أوريجانوس » الذى كان يأتيه طلابه من الجنسين ، من أعمار وطبقات مختلفة — إذ لم تميز التربية المصرية — على مدى العصور القديمة — بين الطبقات أو الأعمار . فالمرأة أعتبرت عنصرا هاما فى المجتمع .

تطور المناهج :

ولم تكن هناك مناهج مقررة وإن لم يخل الأمر من عموميات يشترك فى تدريسها الأساتذة . وتركت للأستاذ الحرية فى اختيار الخطة التى يتبعها فى تدريس هذه المناهج . وقد عرفنا — لحسن الحظ — الكثير من التفاصيل الدقيقة عن مناهج التعليم العالى بالمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية[١] ، لقد اشتملت هذه المناهج على تعليم أصول العقيدة مع تفسيرها وشرحها . أما تنمية قوى التفكير والملاحظة فكانت وسيلتها الدراسات العلمية البحتة كالهندسة وعلم وظائف الأعضاء والفلك ثم الفلسفة والشعر والأخلاق .

وكان الأستاذ يعرض موضوعه ويتناوله بالمناقشة مع طلابه . وقد احترم أساتذة هذه المدرسة من أمثال بنتينوس واكليمنضس الفكر اليونانى ونظروا إلى أساتذة الهلينية نظرة الاعجاب ، بل وعملوا على أن ينقلوا هذا الاتجاه إلى تلاميذهم .

وكان التدريب على الحوار أحد الطرق الهامة التى يستخدمها الأساتذة فى تدريسهم . فكان الطالب يسأل عن التعريف المناسب لمعنى من المعانى ، معنى الخير مثلاً أو الشر أو الفضيلة . . . الخ . فإذا أعطى الطالب تعريفا كان هذا

---

(١) Charles Bigg: op. cit. p. 70

التعريف مدار بحث ومناقشة مركزة على هيئة السؤال والجواب . وفى ظل هذه المحاورات حل الكثير من المشكلات الفكرية والدينية .

هكذا نجد أن مناهج الدراسة بالمدرسة اللاهوتية — أو بجامعة الاسكندرية المسيحية — لم تختلف — من ناحية العلوم الزمنية — عن زميلتها المدرسة البطلمية . أما من الناحية الروحية فقد تميز طلاب هذه المدرسة بفضائلهم الروحية العملية إذ كانوا يمارسون الصوم والصلاة والعبادات . بل وكانت تدرس لهم طرق الصلاة وشروطها وأغراضها والتأملات الروحية وتفاسير الكتاب المقدس وسير الآباء والشهداء ، وكان أساتذة المدرسة خير قدوة لطلابهم بسلوكهم المسيحى الممتاز .(١)

اساتذة الرعيل الأول : ورغم أن الأستاذ الأول لهذه المدرسة هو أثيناغوراس إلا أن الفضل الأكبر يعزى لبنتينوس وأكليمنضس فى إبراز رسالتها حتى أن بعض المؤرخين يرى أن هذه المدرسة إنما دخلت التاريخ بفضلهما ، وإن كان أساتذتها جميعا فى الواقع قد ساهموا فى تدعيم رسالتها حتى كانوا كأفراد أسرة يتتابعون إذ ما أقرب التشابه — كما يقول المؤرخون — بين اكليمنضس القرن الثانى واثناسيوس القرن الرابع .

المدرسة اللاهوتية والاضطهاد : ولم تنج المدرسة من شواظ الاضطهاد الحامية ، بل وصلت إليها فى قسوة وعنف حين كان الأباطرة الوثنيون يقبضون على أساتذتها ويشردون تلاميذهم باعتبارهم معلمى الإيمان فى الكنيسة . وأخطر الهزات التى مرت بالمدرسة كانت فى عهد يوليانس (فى سنة ٣٦٠ م) فقد أمر بمصادرة أملاك الكنيسة ، وقطع مكافآت الكهنة والفقراء من الدولة ، كما منع الأطفال المسيحيين من التعليم فى المدارس .

وكان الاضطهاد يشتت الطلاب والأساتذة جميعا كما حدث فى اضطهاد سيفيروس Severus سنة ٢٠٢ م . وكما حدث على عهد البابا ديونيسيوس البابا ١٤ سنة ٢٥٠ حين نفاه الامبراطور ديسيوس Decius الى Toposiris

---

(١) The A. Nicene Fathers: op. cit. Vol. II Michigan 1953- Introduction. Notice.

التى تقع بين الاسكندرية وكانوب .[1]

وتظهر هذه واضحة فى قضية تلاميذ أوريجين والقبض على سبعة منهم وتقديمهم إلى الاستشهاد فى أواخر القرن الثانى .

لكن رغم هذه الاضطهادات ورغم هرب عدد كبير من أساتذتها وطلابها إلى دير القديس مقاريوس بوادى النطرون فى القرن الخامس ، إلا أن الاسكندرية بقيت مقصدا لطلاب العلم إلى حوالى سنة ٦٨٠ ، أى إلى قرب انتهاء العصر القبطى ، فكان بعض هؤلاء الطلاب يذهب إلى الاسكندرية ليتم تحصيله بعد أن يدرس اللغة اليونانية والكتاب المقدس بأحد أديرة الشام . ويبين ذلك عن توفر الأساتذة والمكتبات بالمدينة وبالأديرة المجاورة . وهذا ينفى أنه كان بالاسكندرية مكتبة عامة قبل الفتح أحرقها العرب عند فتحهم لها . ولو حدث هذا لما أغفل ذكر هذا الحادث رجل كيوحنا النقيوس وهو كاتب قريب العهد بالفتح وقد أفاض فى ذكر الاسكندرية وفصل فى وصف فتحها[2] .

هل اقتصرت الدراسات العليا على الاسكندرية ؟

على أن دراسات التخصص لم تقتصر على الاسكندرية ، وإنما وجدت بالصعيد أيضا ، ومنذ عصور مصر القديمة والصعيد الأعلى مركز دراسة وتدريس ، فطيبة فى عهد الدولة الحديثة كانت مركزا لمدرسة الأمراء على عهد تحتمس الثالث ، وبتوليميس فى عصر البطالسة ثم أديرة باخوميوس عند طابنا وأديرة شنودة عند أخميم وسوهاج فى العصر المسيحى . وكانت مركزا للدراسات الأدبية القبطية . فلا ندهش إذا كانت هذه المدن وغيرها كإدفو والبدارى ونجع حمادى وقنا أمكنة للوثائق البردية التى سجلت بها ألوان العلوم المختلفة وفى مقدمتها الطب الذى ضرب المصريون القدماء فيه بسهم وافر حتى طبقت شهرتهم الآفاق ، وانتقلت هذه الشهرة بالتالى إلى احفادهم فى العصر القبطى .[3]

---

(١) Hardy: Christian Eg. p. 14

(٢) بتلر — فتح العرب لمصر — الترجمة العربية — ص ٣٦٨ .

(٣) Un Papyrus Medical Copte: Pablié et Traduit par M. Emile Chassinat Le Caire 1921

وقد كشف اللثام عن إهتمام القبط بالدراسات الطبية حين عثرBouriant سنة ١٨٨٧ على بردية قبطية فى الدير الأبيض ـــ وهو من أديرة الأنبا شنودة عند سوهاج ، ثم على بردية أخرى عثر عليها بقرية « الشيخة » بمديرية جرجا ، وقد نشرها « اميل تشاسينا » سنة ١٩٢١[١] مترجمة إلى الفرنسية . ويقول المترجم « إنه من الواضح أن موضوع البردية قد كتب بعد طول مثابرة فى البحث والدراسة والتجريب . وواضح أيضا أنه ثمرة جهد انتقل مع الزمن من معابد مصر الفرعونية إلى أديرة المسيحية . ويستدل على أن زمن كتابتها يرجع إلى القرن ٩ أو ١٠ م بدليل وجود بعض اصطلاحات عربية مما يرجح أنها كتبت فى زمن بدأت فيه لغة الفاتحين تحل محل لغة السكان الأصليين ، فى ذلك الوقت كان الأطباء المسيحيون موضع ثقة ولاة المسلمين حتى أن خالد ابن يزيد قام بنقل كتاب الفهرست إلى العربية .

ومن دراسة البردية ـــ هكذا يقول المترجم ـــ يتضح أن القبط فى دراساتهم العلمية لم يركنوا إلى الركود أو الجمود وإنما كانت علومهم متطورة . فقد قرنوا دراساتهم النظرية بالتجارب العملية ، وليس هذا غريبا لأنه امتداد طبيعى لما كان يقوم به الأطباء المصريون القدماء .

والوثيقة موضوع الدراسة مكتوبة بالقبطية الصعيدية . والطبيب الكاتب لا يتعرض لممارسات العلاج المعروفة فى وقت ، وإنما يعرض أنواع شتى من اللزقات[٢] تختلف عن الوصفات المعروفة التى اعتاد الأطباء استخلاصها من النباتات أو من المواد المعدنية .

وتميزت الوثيقة إلى جانب ذلك بغرابة بعض اصطلاحاتها وذكر أسماء أمراض كثيرة وأدوية ووصفات للأمراض المختلفة وأغلبها غريب لم يكن مألوفا

---

(١) لم يترك كاتب البردية اسمه عليها لكن يتضح أنه كان طبيبا وليس مجرد جامع معلومات طبية . وكان يشتغل مع والده الذى كان طبيبا أيضا . ويحدد المترجم زمن كتابتها القرن ٩ أو القرن ١٠ وطولها ٢٫٤٨ سم وعرضها ٢٧ سم . ومكتوبة بأعلى أسطر بطريقة رأسية . والبرديتان بمكتبة الفاتيكان الآن . (المرجع السابق ص ٧ ، ٨).

(٢) Emplâtres

مما يدل على أنه نتيجة تجارب جديدة[1] .

ومن تحديدنا للعصر القبطى ذكرنا أنه يمتد فى تأثيره الثقافى حتى القرن العاشر حين أخذت مميزات الفن الاسلامى تتضح وأصبح لهذا الفن كيانه الخاص وساد وصيغ بعض المنتجات الفنية بألوانه[2] .

ونحن نرى فى هذه الوثيقة الطبية[3] مصداقاً لهذا الرأى . فهى مكتوبة بالقبطية فى القرن ٩ أو ١٠ وبها بعض مصطلحات عربية مما يؤكد استخدام القبطية حتى ذلك العصر .

ولئن كان التعليم قد شمل المدينة والقرية ، إلا أن الصحراء أيضا قامت بدورها وشاركت بنصيب وافر فى التعليم ، فقد جاءت الاديرة وسطاً جديداً للتربية شارك فى حفظ التراث الروحى المسيحى ومعالمه خلال العصور الوسطى .

فما الدور الذى قامت به الاديرة فى خدمة التربية القبطية ؟ ذلك هو موضوع الفصل التالى ، ولكننا قبل ذلك نختتم هذا الفصل بدراسة لخطة إعداد المعلم .

اعداد المعلم فى العصر القبطى

منذ فجر المسيحية ، والكنيسة تولى إعداد المعلم اهتماماً خاصاً ، فحددت الشروط التى ينبغى أن تتوفر فيه من النواحى الروحية والنفسية والاجتماعية مع ضرورة قدرته على التعليم والرعاية .(١) وكان المعلم الكنسى يمنح درجة كهنوتية تبدأ بالشموسية ثم القسوسية وقد تنتهى إلى الأسقفية ، بشرط أن يكون قد مر بمرحلة تلمذة وإعداد يختبر خلالها اختباراً دقيقاً ، فاذا ثبت أنه « بلا لوم » .(٢) وأنه قد وصل إلى درجة من النضج الروحى والنفسى يطمأن إليها عهد إليه بمسئولية التعليم . أما من كان يعد ليكون اسقفاً فغالباً كان يتتلمذ للآب الأسقف او لأب شيخ فى احد الاديرة يتعلم منه ويتسلم عنه التقليد المسيحى .(٣)

وضماناً للاطمئنان على مستقبل الخدمة ، اشترطت الكنيسة أن من يختار للتعليم يجب أن لا يقام بعجلة وانما يختبر اولا ثم يتشمس – اى يقام شماسا – ان كان بلا لوم .(٤)

واشترطت الكنيسة فى المعلم أن يكون طاهراً نقياً لا يشارك فى الكلام الباطل الدنس وأن يكون مدققا فى سلوكه فيلاحظ نفسه والتعليم ، أى يلتزم بتوجيهات مرشده الروحى ، ونصائحه ، ويواظب على الدرس والتحصيل ، ليكون نموه ظاهراً مستمراً فى النعمة والحكمة . ونص الكتاب المقدس على أن المعلم يجب أن يكون قدوة فى الكلام والتصرف والايمان ، وأن يكون امينا لرسالة التعليم فلا يألو جهداً فى خدمتها . كذلك أوصى القديس بولس بأن المعلم يجب أن يكون متحرراً من الخرافات ثابتاً ، صبوراً ، قادراً على تكوين العلاقات الإجتماعية السليمة مع مختلف الطبقات ، والأعمار ، فى رفق وحزم . ولكى تقبله الكنيسة بين معلميها ، يجب أن يكون قد أثبت كفاءة فى تدبير بيته ورعاية أسرته ، وتربية أولاده . هذه الشروط نص عليها الكتاب

---

(١) لم يكن التعليم مجرد وظيفة وإنما كان رسالة وفلسفة Eby An . op . cit . p . 606

(٢) القديس بولس فى رسالته الأولى إلى تيموثاوس فصل ٣ : ٢

(٣) ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة . مخطوط ٩٢ ــ المكتبة البطريركية ،
P. Orientalis: Tome 1 : p . 209

(٤) الرسالة الأولى إلى تيموثاوس فصل ٥ : ٢٢

المقدس ،[1] ونصت عليها أيضا قوانين وتعاليم الأباء الرسل ،[2] ونلاحظ أنها تتضمن الصفات الأساسية للشخصية كالصبر وغلبة الهوى والتعفف والتدقيق فى السلوك والطاعة للمعلم ، وهذه الصفات التزم بها الشماس والقس والأسقف جميعا لأنها شروط المعلم الصالح سواء كان فى أول الطريق أو فى نهايته .

أما من ناحية اعداده للقيام بالتعليم : فكان على المعلم أن يعكف على القراءة ويداوم عليها[3] ، ليكون قادراً على التمييز بين العلم الكاذب والعلم الحقيقى[4] ، وليكون لديه الاستعداد أن يواجه المنحرفين والمضلين ليفحمهم أو يتجنبهم . وكان الشماس يتكفل عادة بتعليم الموعوظين أما القس والأسقف فبأعمال الرعاية الأخرى وخاصة تثبيت المؤمنين والرد على الهرطقات .

وكان اكتشاف المواهب الشخصية [4] أو بمعنى أدق اكتشاف النفس وتوجيه الاستعدادات الخاصة للفضائل الروحية من توجيهات الكنيسة الهامة لمعلميها ليكون نموهم فى رسالتهم ، وفى فضائلهم الشخصية ظاهراً[5] ليس أمام المسيحيين فقط ، بل وأمام غير المسيحيين (الوثنيين)[6] حتى لا تلام الكنيسة فى شخصه من أحد . ولذلك أوصت الكنيسة بصراحة أن لا يكون المعلم حديث الإيمان[7] .

بل أن يكون قد وصل إلى مستوى رفيع من النضج الروحى والنفسى والاجتماعى فحددت سن الاسقف بأربعين عاما وسن الكاهن ثلاثين والشماس خمس وعشرين باستثناء الناضجين قبل بلوغهم هذا السن .[8]

وقد أثبت نجاح الكنيسة فى رسالتها التبشيرية ــ وبخاصة فى القرون

---

(١) راجع رسالتى القديس بولس إلى تلميذه تيموثاوس : الأولى فصول ٤ ، ٥ ، ٦ والثانية فصل ٢

(٢) الدسقولية ــ الترجمة العربية . الطبعة الثانية ــ الباب الثالث .

(٣) القديس بولس فى رسالته الثانية إلى تيموثاوس فصل ١ : ١٣ وفصل ٣ : ١١

(٤) المرجع نفسه فصل ٤ : ١٢ وراجع الدسقولية الباب ٣ ص ٢٨

(٥) المرجع نفسه فصل ٦ : ٢٠ ، الفصل نفسه : ٣ فصل ٦ : ٣ ــ ٥

(٦) المرجع نفسه فصل ٤ : ١٤

(٧) المرجع نفسه فصل ٤ : ١٥

(٨) الدسقولية : الباب الثالث : ص ٢٤ ، ٢٥

الأولى ـــ أنها نجحت فى تطبيق هذه الشروط وبمعنى أوضح فى اختيار معلميها الذين تتوفر فيهم شروط الكمال الروحى والنفسى والإجتماعى .

وللتدليل على دقة الكنيسة فى اختيار المعلم ، نذكر أنها رتبت فى إقامة الاغنسطس أى الشماس القارىء وهى أدنى رتبة ـــ صلاة طويلة ، وتوجيهات مستفيضة تبدأ بسؤال الأسقف لمن قدموه[١] « أتشهدون أنه مستحق لهذه الرتبة بالحقيقة » فيقولون « شاهدون نعم يا أبانا هو مستحق » .

ويتابع الأسقف صلاته فيدعو الله « أن يملأه من كل حكمة ، ومن كل فهم ، ليتلو الأقوال الإلهية » ويكرز بها للشعب ، ويعلمهم الكلام الطاهر الذى يخلص نفوسهم[٢] .

وبعد ذلك يقرأ رئيس الشمامسة عليه وصية مطولة « يابنى هذه أول درجة تدعى إليها ، فيجب عليك أن تتعلم فصول الكتب المقدسة التى اؤتمنت عليها كى تعظ بها الشعب ، لأن هذا أمر عظيم يحتاج من ينتصب له أن يكون كالمصباح المضىء على المنارة لكى تملأ سامعيك مما تقرأ عليهم . وأذكر فى كل حين كلام الرب ونموك الحسن وتقدمك فى هذه الدرجة لكى ينظر نجاحك الذين يزكونك فيقدمونك إلى الدرجة التالية الأفضل ـــ وحتى يفخروا بك ... الخ[٣]

فلئن كانت هذه الوصية وهذا التدقيق لأدنى درجات وظائف التعليم فكم يكون الاهتمام بالرتب التالية ؟

وفى الجامعة اللاهوتية كان الشمامسة يتابعون دراساتهم الدينية والزمنية بينما هم فى الوقت نفسه يمارسون الخدمة كما جاء فى ترجمة حياة البابا بطرس خاتم الشهداء[٤] ، والبابا أثناسيوس ، فلما أغلقت هذه المدرسة وانتقل أساتذتها إلى

---

(١) مخطوط « ترتيب قسمة رتب الكهنوت من الاغنسطس إلى القمص » ـــ بالمكتبة البطريركية طقس ـــ رقم ٤١٣ ص ٧ ، ٨

(٢) المرجع نفسه ص ٩ ، ١٠

(٣) المرجع نفسه ـــ وهذه ترجمة للنص القبطى ص ١٠ ، ١١ راجع أيضا ابن كبر : مصباح الظلمة فى ايضاح الخدمة القاهرة ١٩٣٠ ـــ ص ٤٨

(٤) ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ـــ مخطوط رقم ٩٢ تاريخ بالمكتبة البطريركية ـــ ص ٤٩

دير الأنبا مقار بوادى النطرون ، أصبح مركز إعداد المعلمين ، ولذلك أختير منه نحو ٥٢ بطريركا .

لذلك أقترنت سير هؤلاء الباباوات بعبارات معينة تكشف عن تمكنهم من الدراسة والعلم . فى رسامة البابا مرقيانوس — الثامن فى تعداد الباباوات — أنه كان عالماً فاضلاً ... لايفتر عن التعليم [١] ، وفى سيرة كيرلس الكبير البابا ٢٥ أنه لم يفتر عن وضع الميامر والمقالات[٢] .

ولهذا السبب يرى بعض الباحثين أن بابا الكرسى المرقسى بالاسكندرية كان عادة يختار من عمداء أو أساتذة الجامعة اللاهوتية ، ففى سيرة البابا يوليانوس — الحادى عشر فى تعداد الباباوات — نقرأ أن الأساقفة اختاروه لأنه كان قساً حكيما درس الكتب المقدسة[٣] .

ومن الأدلة التى تكشف عن مدى تعمق هؤلاء المعلمين وسعة إطلاعهم وقوة أمانتهم لرسالتهم ما ذكره كاتب سير البطاركة فى ترجمة البابا ثاؤنا البابا السادس عشر . فقد حدث أن جاء للبيعة — أى للكنيسة بالاسكندرية — أحد المبتدعين وأسمه سابليوس ، جمع شعباً غفيراً وتوجه للكنيسة فى يوم عيد ، وأرسل سابليوس للبطريرك قائلا « أخرج ناظرنى فى هذا اليوم » فأرسل البطريرك القس بطرس تلميذه لمحاجة سابليوس حتى أفحمه[٤]

أما البابا اثناثيوس — العشرون فى تعداد الباباوات — فكان تلميذاً للبابا الكسندروس — البابا التاسع عشر — فرباه بوداعة فحفظ الاناجيل ، وقرأ الكتب المقدسة ، فلما كبر قسمه شماساً ، وجعله كاتباً له وصار « كأنه ترجمان » الأب المذكور وخادماً للكلام الذى يريد أن يقوله[٥]

أما كيرلس البابا ٢٥ فقد تتلمذ بدير الانبا مقار بوادى النطرون على يد سيرابيون الراهب الحكيم . فدرس علوم الآباء وأقوال معلمى البيعة الأرثوذكسية : أثناسيوس وديونيسيوس وباسيليوس[٦] . وبعد أن صار

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٧ .

(٣) ساويرس بن المقفع — تاريخ البطاركة — مخطوط ٩٢ تاريخ ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٤) P. Orientalis T. 1. p. 20

(٥) المرجع نفسه ص ٤٠٨

(٦) المرجع نفسه ص ٤٢٩ .

بطريركاً كان لا يفتر من وضع الميامر والمقالات بقوة[1] .

وواضح من هذه السير أن التعليم كان يتم أحيانا عن طريق التلمذة والاتصال الشخصى . ولا شك أن الاسكندرية وكانت مركز البابا ، وفى الوقت نفسه ، مركز الجامعة اللاهوتية ، ساعدت على الاتصال بين البابا وأساتذة الجامعة ، وتبادل الرأى بينهم ، وتنظيم جلسات البحث لدراسة المشكلات اللاهوتية والعلمية ، وللرد على المبتدعين ، وكتابة الرسائل للكراسى الاخرى : أورشليم . أنطاكية . القسطنطينية . روما ، وغيرها . فقد جرت العادة أن يحرر بابا الاسكندرية رسالة دورية فى مناسبة عيد الفصح من كل عام تلخص الرد على أهم البدع التى ظهرت ويرسلها إلى بقية الكراسى الرسولية وحكمة ذلك واضحة : فالاسكندرية مركز الجامعة اللاهوتية ربيبة جامعة عين شمس وجامعة البطالمة ، وهى مدينة المدن — كما سميت فى عهد البطالمة ، وهى عقل العالم المسيحى ، كما عرفت فى العصر القبطى . ومن الاسكندرية صدر قانون الإيمان الذى حدد إطار العقيدة المسيحية ودفع عنها خطر البدع والمبتدعين .

وكان المدرسون المسيحيون يعانون من الاضطهاد لأن الدولة نظرت إلى جماعة المسيحيين أنهم شيعة خطرة ، فلما أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للدولة انقلب الوضع ، فأصبح وضع المدرسين الوثنيين فى خطر وضيق وخاصة فى عهد جستنيان الذى أغلق مدارس الوثنية سنة ٥٦٥ م وكان التعليم جانباً من وظيفة الكاهن والأسقف وقادة الكنيسة ، أى أنه لم تكن هناك هيئة قائمة بالتدريس أو مختصة به .

ولم يكن المدرس ليعين بشهادة أو بالحصول على درجة جامعية أو باجتياز امتحانات معينة عقب مناهج نظامية ، وإنما كانت تكفى شهادة بأنه درس على معلم معروف وأنه قادر على تعليم غيره ، فاعداد المعلم وتخريجه كان أساساً قائماً على فكرة التلمذة[2] فلما أن ظهرت الرهبانية وتطورت إلى الديرية

---

(١) مخطوط تاريخ البطاركة ص ٦٨ وفى سنة ١٩٤٤ وبمناسبة مرور ١٥٠٠ سنة على ذكرى وفاة هذا القديس العظيم نشرت الاكليريكية الفرنسسكانية بمصر مجموعة دراسات عنه أطلقت عليها اسم Kyrilliana(راجع : فايق ميخائيل : كيرلس الكبير — ضمن مجموعة أبحاث صور من تاريخ القبط — نشرته جماعة مار مينا بالاسكندرية — سنة ١٩٥٠ — ص ١٠٩) .

(٢) Butts: op. cit. p. 122

أصبحت الصحراء مجالا جديدا لإعداد المعلم والخادم الراعى ، وهذا هو موضوع فصلنا التالى .

الفصل السادس

الجانب التربوى
فى حياة الدير

الجانب التربوى فى حياة الدير
التعليم فى الاديرة

على ضفاف النيل ، نشأت أصول الرهبنة التوحدية الأولى[١] فى أواسط القرن الثالث . وكان طبيعياً أن تتطور إلى نظام ديرية الشركة ، لأنه أقرب إلى الطبيعة الانسانية من قسوة التوحد . والنظام الديرى هو الذى عرف باسم نظام الشركة Coenobitism أو الجماعة داخل الدير . وهو النظام الذى حققه الانبا باخوميوس (٢٩٤ — ٣٥٦ م) . ويرجع هذا النظام فى أساسه إلى عوامل انسانية طبيعية لعل أهمها الظروف الطبيعية القاسية التى كانت تحيط بالمتوحدين كأخطار الصحراء ، والأزمات النفسية ، والحاجة إلى أب مرشد ، فضلاً عن الافتقار للعناية أثناء المرض أو الخطر المفاجىء . وبين النظامين : الرهبنة التوحدية ، وديرية الشركة ، وجدت مرحلة وسط : هى مرحلة الرهبنة التوحدية الاجتماعية . وفى القرن الرابع بلغت أعداد الرهبان فى جماعات الصحراء الشرقية والغربية نحو المليون راهب وراهبة . وهذه الحركة الديرية تعتبر من أينع ثمار الفكر المصرى ومن أنقى آثاره فى تاريخ الحضارة[٢] . ففى الاسكندرية وجدت جماعات ديرية قرب مدينة كانوب شرق الاسكندرية وجماعات أخرى غربها . وكان وادى النطرون يضم ثلاث جماعات : الأولى جماعة القديس آمون (+٣٥٦) بجبال نتريا ، والثانية جماعة القديس مقاريوس المصرى (+٣٩٣) تلميذ أنطونيوس — بوادى الاسقيط . وإلى هذا « المقار » ينسب الكثير من الحكم والرسائل المملوءة بالعظات الدينية[٣] والثالثة : جماعة القديس مقاريوس السكندرى (+٤٠٥) بالقلالة شمال جبال نتريا .

---

(١) ليس هنا مجال تتبع منشأ الرهبنة والاسباب التى دعت إليها ، ويمكن الرجوع فى بحث هذا الموضوع إلى بحث الاستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية فى مؤلف « الرهبنة القبطية » الذى نشرته جماعة مارمينا بالاسكندرية سنة ١٩٤٨ وعنوان البحث « منشأ الرهبنة القبطية وتطورها » وراجع أيضا : لبيب حبشى ، وزكى تاوضروس : فى صحراء العرب — القاهرة ١٩٢٩ والاديرة الشرقية ص ٢١ .

(٢) كفاحنا ضد الغزاة ص ١٩٢ — ١٩٦

(٣) راجع سير الثلاث مقارات فى ضوء مخطوطات دير السريان — الناشر دير السريان وادى النطرون — ابريل سنة ١٩٦٢ .

وفى مصر الوسطى وجدت جماعات بسقارة — وبابلون — والفيوم واهناسيا . أما فى الصعيد فقد وصلت إلى قرب أسيوط وأخميم ثم قنا وطيبة . وفى الصحراء الشرقية على ساحل البحر الأحمر ....

الرهبنة نظام تربوى مقصود :

وحياة الراهب الحقيقى هى سلسلة من التدريبات للارادة وقمع أهواء النفس واتباع لمنهج معين فى السلوك الروحى ، وتوجيه للفكر والعاطفة إلى الحياة التأملية[1] والاستغراق فى الالهيات ، وانكار الذات ، وخدمة الآخرين . فهى فى صميمها نظام تربوى من نوع فريد . وقد بدأ هذا النظام فردياً ثم تطور فأصبح جماعياً .

وأبسط صور التربية فى هذا النظام النسكى اجتماع مجموعة من الباحثين عن الفضيلة حول معلم قديس يتلقون عن قدوته العملية صورة التقوى ، ويفزعون إليه اذا ألمت بهم المشاكل الروحية أو النفسية أو حتى الصحية . أحياناً يستنصحونه ويطلبون رأيه وتوجيهه[2] .

أول معلم فى الرهبانية :

وأول معلم فى الرهبانية هو القديس أنطونيوس (٢٥٠ — ٣٥٦) . وينتمى إلى أسرة مصرية غنية من قمن العروس أو كوما مركز أهناسيا (هرقليوبوليس) بمصر الوسطى . وتمثل المرحلة الأولى من نشأته طبيعة التربية المسيحية فى المنزل القبطى فى القرن الثالث . فقد كان أبوه يشتغل بالفلاحة ، ويبدو أنه كان مزارعاً غنياً يملك « مزرعة تبلغ مساحتها ثلاثمائة فدان »[3] وعن والديه تعلم أنطونيوس قواعد الدين المسيحى ، ومع أنه لم يحصل على نصيب واف من التعليم الزمنى فقد ظل أمياً لا يعرف القراءة أو الكتابة لآخر أيامه ، لكن عرف عنه استخفافه بزخرف هذه الدنيا وزهده فيها .

وذات يوم ، بين كان بالكنيسة ، سمع الفصل الخاص بانجيل القداس فاذا به يقول « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب بع كل أملاكك ووزعها على

---

(١) Butte. Op. cit. p.121

(٢) Legacy of Eg. p. 317

(٣) سوريال : حب رهبنة : ص ١٥٣ .

الفقراء وتعال اتبعنى .. وكأن أنطونيوس كان ينتظر هذه الكلمة اذ اعتبرها دعوة مباشرة له فباع أملاكه التى تركها له أبوه ثم وزعها على المحتاجين وسلم أخته لدير من أديرة العذارى التى انتشرت إلى جوار الكنائس فى ذلك الوقت وتضم عدداً من العذارى اللواتى كن يتدربن على التعبد والتأمل ثم توجه إلى سفوح الجبال الشرقية المتاخمة لحافة الوادى بعد أن عبر النهر . وهنالك بنى لنفسه صومعة اعتكف بها نحو ٢٠ عاماً بين سنة ٢٦٩ ـــ سنة ٢٨٩ م . ومن وقت إلى آخر كان يخرج من صومعته باحثا عمن سبقوه إلى حياة العزلة والتعبد وفى احدى جولاته التقى بالأنبا بولا وكان فى سن المائة والثلاثة عشر عاماً . ويخبرنا بالاديوس أن انطونيوس تحدث إليه وعرف نظام حياته الروحية[1] ، ويرى المؤرخون أن بولا أو بولس يمثل تلك الطائفة من النسّاك الذين اعتزلوا الحياة إلى الصحراء وتوغلوا فيها دون أن يشعر بهم أحد ، أو يسجل عنهم أحد شيئا . وعلم كثيرون من طالبى الرهبنة والتبتل عن أنطونيوس فهرعوا إليه ، ويذكر أثناسيوس أنه رفض أن يفتح لهم صومعته ولكنهم ألحوا عليه ، ومازالوا يلحون ، وهو يرفض حتى انتهى بهم الامر إلى رفع بابها فرأوه فى هدوئه ووداعته ، وقد جعلت منه الخلوة انساناً صافى النفس مستنير العقل والفكر . وانهالوا عليه بأسئلتهم ومشاكلهم ، يطلبون منه ان يعلمهم ، ويصلى من أجلهم ، وزاد البعض على ذلك فعزم على البقاء معه ليعيش الحياة نفسها التى عاشها أنطونيوس ، ويتتلمذ له فى مدرسة الصحراء . وفى سنة ٣٠٥ م قام أول دير يضم هؤلاء التلاميذ حول معلمهم الكبير الذى لم يشأ أن يتخلى عن خلوته فتوغل فى جبال الهضبة الشرقية حتى وصل إلى جبال البحر الأحمر حيث يوجد الدير المعروف باسمه الآن ، ويعتبر أقدم الأديرة المصرية . وبين الفِنة والفِنة كان يلتقى بتلاميذه يعلمهم ويوجههم إلى فلسفة الحياة النسكية ، وأصول العبادة وأعمال إماتة الجسد وشهواته ، بل أنه ترك قانوناً بالقبطية لتوجيه تلاميذه إلى هذا النوع الشاق من الحياة ، وقد ترجمه البابا اثناسيوس إلى اليونانية . وعاش انطونيوس حوالى ١٠٥ سنة فلما حضرته المنية طلب إلى تلاميذه ألا يحنطوا جسده على طريقة أسلافه من المصريين وأن يدفنوه فى مغارته .

---

(١) راجع الأنبا اثناسيوس : سيرة القديس أنطونيوس : الترجمة العربية .

ونحن نرى من هذه الصورة أن الرهبنة فى جوهرها « اجتماع مشترك حول معلم » ومنهجها يقوم أساسا على « النسكيات » وقهر أهواء الجسد وشهواته . فكان تلاميذها يبالغون فى الصوم والسهر ولا يزيد طعامهم عن الخبز المجفف ، وبعض الملح ولا يشربون غير الماء . وكان بعضهم يمضى ثلاثة أو أربعة أيام منقطعاً عن الطعام ، ويقضى لياليه ساهرا مصلياً فاذا نام كان نومه على حصيرة من سعف النخيل .

من الرهبانية إلى الديرية : لكن هذا « المنهج » لم يلبث أن تطور ليكون أكثر « انسانية » ، فكان الدور الثانى فى تطور الأنظمة الرهبانية المصرية وهو الدور المعروف « بالرهبنة الاجتماعية » Collective Eremiticism اذ أثبتت التجربة أن أولئك النسّاك المتوحدين تعرضوا للكثير من المخاوف والأخطار التى لا تخفى على العارفين بالصحراء . فاذا تركنا الاخطار المادية واجهتنا المتاعب الروحية والنفسية لمن يعيش مثل هذه الحياة دون مرشد — أى دون مرب — فيتعرض — كما حدث للبعض — للضيق النفسى وربما لما هو أكثر من ذلك . فكان طبيعياً أن يسعى هؤلاء المتوحدون إلى الخروج عن عزلتهم ، والبحث عن الآباء الروحيين يلتفون من حولهم ويتتلمذون عليهم فيتعلموا منهم اصول الحكمة الروحية وتفسير الكتب المقدسة إلى جانب أنهم يسترشدون بجهادهم الروحى ، ويقتدون بسلوكهم فى الفضيلة . ومن الناحية السياسية كانت الحكومة الرومانية تثير بين وقت واخر اضطهاداتها ضد المسيحيين فكان اجتماع المتوحدين مما يساعد على احتمائهم من خطر الاضطهاد .

وإلى هنا ولم تكن قد وضعت بعد قواعد ثابتة مكتوبة لخطة التربية الرهبانية ، وانما « اتجاهات » مستوحاة من الآباء الروحيين ، اعتبرت أساساً للاجتهاد فى ميدان النسك وتأتى فى مقدمة هذه الاتجاهات : « الهروب من وجه الناس إلى التوحد والبتولة ، وحياة الفقر المطلق ، والطاعة ، وتدريب النفس على الاحتمال والصبر ، والمحبة ، والصدق فى المعاملة » .

ورغم اجتماعهم فى دير واحد ، إلا أن كلا منهم كان يمارس العبادة بطريقته الخاصة مستقلاً عن الآخرين . ولم تكن القراءة أو العمل اليدوى من القواعد المحترمة لديهم : وإنما كان استغراقهم الروحى ، واستلهامهم الوحى والارشاد من الله مباشرة هو المبدأ الذى ساروا عليه .

لذلك كان من الطبيعى أن تتطور هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر ارتباطاً

بالانسانية وبالحياة الاجتماعية الاشراكية ، وقد حقق باخوميوس هذا الدور من أطوار الحياة الرهبانية ، وفى هذا الطور تبلورت التربية الروحية فى الدير ، وعلى ما يذكر بالاديوس الذى زار مصر فى تلك الفترة نرى أن عدد أديرة باخوميوس وصلت إلى ٨ للرهبان ، وديرين للراهبات[١] .

التعليم فى أديرة باخوميوس

نشأة الديرية : إن قانون باخوميوس الديرى — الذى أخذ عنه القديس بنديكت فى القرن السادس نظام الديرية ونقله إلى أواسط أوربا[٢] — يعتبر فى الواقع ثورة هادئة ناضجة[٣] على أعمال الإماتة وتعذيب الجسد التى كانت سائدة على الرهبنة فى المراحل السابقة له . وأن خففت منها المرحلة الثانية من مراحل تطور الرهبنة وهى التى أسميناها « المرحلة التوحدية الاجتماعية » كما يعتبر نظاماً تربوياً يقوم فى بعض أساسه على الاهتمام بالتعليم .

ولان باخوميوس كان جندياً فى جيش قنسطنطين فقد طبع نظامه الديرى بطابع عسكرى[٤] وهو من أصل مصرى صعيدى فقد ولد ببلدة كفر الصياد بمنطقة طيبة[٥] وكان ميلاده على وجه التقريب سنة ٢٩٠م من أبوين وثنيين أى أنه قضى سنيه الأولى وسط التقاليد الوثنية . فلما وصل إلى مرحلة الشباب ، التحق بالجيش ، واشترك فى حرب قنسطنطين ضد كلسيميانوس سنة ٣١٠ م وهى الحرب التى انهزم فيها الأخير . وبينما كانت كتيبته تمر بمدينة اسنا (Latopolis) اذ بأهلها المسيحيين يقابلون جندها باكرام وحفاوة

---

(١) Palladius The Lausiac History : -1898 -Vol II . p . 231

(٢) ان أديرة مونت كاسينو Monte Cassino التى أسسها القديس بنديكت فى وسط ايطاليا لا تكاد تختلف فى نظمها عن أديرة قنا فى الصعيد الأعلى . والمعروف أن قوانين باخوميوس قد ترجمت إلى اللاتينية سنة ٤٠٤ م بواسطة القديس جيروم (راجع عزيز سوريال : صفحة من تاريخ القبط منقحة ١٧٨) . والدليل أن فى مقدمة نظم أديرة أوربا : طاعة النظام والعمل اليدوى والعقلى وتثقيف الرهبان إلى جانب شروط العفة والفقر الاختيارى (المرجع نفسه ص ١٧٩) . ومن هذه الأديرة انبثقت حركات التعليم والتثقيف فى أوربا : حركات الفرنسيسكان الودومينيكان التعليمية والتبشيرية وهى فى أصولها ومنابعها ترجع إلى نظم باخوميوس المصرى (راجع Butts : p . p . 143 , 144)

(٣) سوريال : صفحة من تاريخ القبط ص ١٦٥

(٤) Hardy: p. 70

(٥) هى الآن بلدة قصر الصياد بمديرية قنا

فيقدمون لهم الطعام فى دعة ودماثة . وعرف باخوميوس أن هؤلاء الناس يستوحون مبادىء مسيحيتهم فى هذه المعاملة . فما انصرف من الجندية حتى عكف على دراسة قواعد هذا الدين وانتهى الأمر به إلى اعتناقه سنة ٣١٤ م ثم تطورت نظرته إلى الحياة فى ضوء هذه القواعد فآثر ترك العالم واعتناق الرهبانية .

وبدأ باخوميوس رهبنته بأن تتلمذ على القديس بليمون Palaemon ولم يطل الوقت بمعلمه ليتأكد من استعداده لاحتمال مشاق الحياة الجديدة ، وان لم تقل فترة تلمذته عن السبع سنوات ، انصرف بعدها باخوميوس إلى جهة طابنا بالقرب من قنا فى مواجهة دندرة ليواصل بها حياة التقشف والتوحد ليدرك بعدها أن التقرب إلى الله لا يحتم التزام الراهب بضروب عنيفة من التقشف وتعذيب الجسد .

واتصل بباخوميوس عدد من طالبى حياة الفضيلة واعتزال العالم يتتلمذون له ، ويهتدون بقدوته . وزاد عددهم بعض الوقت حتى ضمتهم تسعة أديرة ، واتسعت حركته أكثر لتضم عدداً من العذارى اللائى انتظمهن ديران أخران[1] وعمرت هذه الاديرة منطقتى طيبة وقنا فى ظل قوانين ونظم جديدة اقتربت فى جوهرها إلى الحياة الاجتماعية الانسانية . وكان التحاق هذه الأعداد الكبيرة بأديرته دليل نجاح النظام الديرى الجديد . وقد عرفت الجماعات الباخومية باسم Tabennèsiotes نسبة إلى تانبا (طيبة) .

نصيب التعليم فى ديرية باخوميوس : ويعنينا بصفة خاصة فى قانون باخوميوس[2] أن نتحدث عن نصيب التعليم ومدى ما ناله من اهتمام فى النظام الجديد .

---

(١) راجع هنا أيضا: Patrologia Orientalis Tome IV : Hist . de st . p . 429 Pacome Texte Grec de Manuscripts .

كتب بعض مؤرخى الرهبنة أن تلاميذ باخوميوس بلغوا فى حياته (أى حتى سنة ٣٥٦ وهى سنة وفاته) نحو ٣٠٠٠ راهب زادوا سنة ٤٢٠ م حتى بلغوا ٧٠٠٠ (راجع سوريال ص ١٦٥) بل أن الجماعات الأخرى التى كانت تتبع النظام الانطوانى (الجماعات مقار وامون بوادى النطرون) اثبتت عناصر هذا النظام تدريجيا (راجع سوريال ص ١٧٥ ، ١٧٦) ،Leg . of Eg . p . p . 320 , 321

(٢) كتب باخوميوس قانون بالقبطية ، وإن كانت النسخة القبطية الاصلية قد فقدت وبقيت الترجمات اليونانية واللاتينية والاثيوبية .

(راجع :. Barden Homer : Les péres de l'eglise : Paris 1888- Vol p . 54

(١) **اشتراط الالمام بالقراءة والكتابة للالتحاق بالدير** : لأول مرة يحدد باخوميوس « فترة اعدادية » لطالب الرهبنة الجديد يقضيها الطالب فى التلمذة « لأحد شيوخ الدير ليختبر مدى استعداده للحياة الجديدة » . وحددت هذه الفترة بثلاث سنوات ، كان يتحتم فيها على الطالب أن يتعلم القراءة والكتابة ، وأن يحفظ عن ظهر قلب عشرين مزموراً ورسالتين من رسائل العهد الجديد . فكان النظام الجديد يعمل على نشر التعليم بين الرهبان . ولا شك أن وراء هذه المحاولة فكرة هادفة ، فالراهب يلزمه أن يطلّع على الكتب المقدسة فضلا عن سير الآباء ، وهذا يتطلب معرفته بالقراءة . كذلك كان نظام الصلاة يحتم أن يقرأ الراهب عددا من المزامير وصلوات القديسين . وكانت هذه القراءات والصلوات منذ أواخر القرن الثالث قد كتبت باللغة القبطية : أى باللغة القومية . إلى جانب ذلك فالقراءة أداة الاستنارة ، والاستنارة تساعد على تفهم أوامر الرؤساء ، وتقارب الاتجاهات بينهم وبين مرؤوسيهم ، مما يؤدى فى النهاية إلى حسن استتباب النظام ، وإلى تحقيق الأهداف الاجتماعية من تعاون بين أعضاء الدير ، وخدمة بعضهم لبعض ، عن فهم ووعى واقتناع .

ونلاحظ أن فترة التعليم امتدت إلى ثلاث سنوات وهى فترة كافية للطالب لإتقان القراءة والكتابة ، فلم يكن إذن ثمة خوف أن ينتكس الراهب إلى الأمية ، وبخاصة أنه سيواصل الاطلاع ، والاستزادة من الدراسة والتحصيل كما سنرى . وواضح أن هذا القانون جديد على فكرة الرهبنة فى مرحلتيها التوحدية ، والتوحدية الاجتماعية حين كان الرهبان لا يهتمون بتعلم القراءة والكتابة ، اذ اعتبروها أمرا ثانوياً بالنسبة إلى العبادات المتوارثة التى استهدفت قهر الجسد لتصفية النفس وإعدادها لحياة الملكوت .

جدول الدراسة فى أديرة باخوميوس : نظم باخوميوس ثلاثة دروس يومية ، فى الساعات الأولى والثالثة والسادسة[1] من النهار للمبتدئين ، ودروس أخرى عامة يومى الاربعاء والجمعة لتفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية . وكان حضور هذه الدروس اجبارياً لكن هل اقتصرت الدراسة على

---

(١) هذه الساعات وفق التوقيت اليهودى الذى يبدأ يومه من غروب الشمس حتى الغروب التالى . وساعات الفجر الأولى تسمى الأولى ، ثم الساعة ٨ صباحا تسمى الثالثة ثم الساعة ١٢ ظهرا تسمى السادسة والثالثة بعد الظهر التاسعة ، والغروب الحادية عشر ، أما نصف الليل فيسمى الثانية عشر . راجع الأجبية : أو صلوات الساعات وفق نظام الكنيسة الارثوذكسية .

النواحى الدينية ؟ نعم وإن كان التعليم فى حد ذاته قد عمل كما هو منتظر على رفع مستوى الأديرة الباخومية ، فأصبح الكثير منها مركزاً للعلم والتعليم ، وبالتالى مراكز لحفظ التراث الثقافى القبطى .

ولما كثر الرهبان ، قسموا إلى أسر تضم كل أسرة رهبان أمة معينة ، إذ كانت حياة الشركة فى أديرة باخوميوس قد اجتذبت رهبان كثيرين من أمم متباينة مثل السريان واليونان واللاتين والاثيوبيين وغيرهم . وخصص لكل أسرة معلم من جنسها للتفاهم مع أبناء جلدته وإرشادهم[١] .

المكتبة ودورها فى التعليم : يقول بتلر : وكان لكل دير مكتبته وقصّاده من أجل العلم . وكان الرهبان يكتبون فى صوامعهم باللغة القبطية : رسائل فى الخلافات العقائدية ، وتراجم لسير بطاركتهم (بتلر : فتح العرب لمصر — ص ٨٥) .

كان الكتّاب والنساخ يمثلون طائفة هامة من طوائف الأعمال التى انتظمها دير باخوميوس ، وقد انحصرت مهمتهم فى كتابة الكتب ، ونسخ المخطوطات بمكتبة الدير[٢] . وكان للمكتبة خازن من النساخ يفتح بابها لطلاب البحث والقراءة . وقد اشتملت الكنيسة على : أجزاء الكتاب المقدس ، أقوال الآباء وأعمال الشهداء وقوانين وشرائع ، كتب الصلوات الكنسية مدونة بالقبطية[٣] ، وأضيف إليها أحياناً بعض كتب القصص والتاريخ والأدب وقواعد اللغة القبطية .

أما مواد نسخ الكتب ، فقد استعمل الرهبان فيها ألياف البردى ، وكانت الكتب تزخرف فى أعلاها على شكل صليب . وكانت أعواد الغاب والحبر الأسود هى أداة الكتابة . وكان الرهبان يقضون وقتهم بين المطالعة والنسخ والتأليف فقد كانت من بين مسئوليات ديرية الشركة مسئولية نسخ الكتب لاستخدامها فى التعليم والدراسة Leg. of Eg. p. p. 326, 327 ولذلك كانت مجلدات المكتبة تزداد بسرعة ولولا أن يد الدمار والنهب امتدت لمكاتب هذه

---

(١) سوريال : المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٢) فهارس المخطوطات القبطية والعربية — يسى عبد المسيح ص ٤٤ ، ص ٢١٧ .

(٣) المرجع نفسه ص ٢٥ ، وراجع أيضا Leg . of Eg . p .p . 326 , 327.

— ويجب أن نشير هنا إلى أن أنطونيوس وباخوميوس قطبى الرهبنة لم يدرسا اليونانية اذ كان طابعهما العام هو الطابع المصرى الوطنى .

الأديرة والأديرة الأخرى ، لكانت منها للكنيسة المصرية ذخيرة جبارة من المعرفة(١) .

ومن أدلة الاهتمام بالقراءة أن قانون باخوميوس رتب أنه فى أثناء تناول الأخوة لطعامهم يجلس واحد منهم فى أعلى قاعة الطعام يقرأ فصولاً من الكتب المقدسة(٢) .

وقد نفذت أديرة الراهبات هذه القوانين بحذافيرها ، فقد بلغ عددهن فى الديرين ٤٠٠ راهبة كن يجتمعن كل مساء للتعليم . أى أن الرهبنة لم تكن نسكاً وعبادة فحسب وإنما كانت وسيلة هامة من وسائل تحصيل العلم وسبيلا للدرس والبحث فخدمت العلوم والآداب خدمات جليلة فترة كبيرة من الزمن .

(صفحة من تاريخ القبط ـــ بحث عن جهود القبط فى خدمة العلوم ص ١٠٠) للدكتور صابر جبرة .

التعليم فى اديرة شنوده وأثره فى تدعيم الروح القومية : لئن كان نظام باخوميوس قد برز « بانسانيته » فى أديرة طيبة وقنا ، إلا أن من الخطاء أن نظن أن نظامه هو الوحيد الذى كان معروفاً فى تلك الحقبة من العصر القبطى ، ونعنى بها القرن الرابع . فالحركة الديرية هى ربيبة الحركة الرهبانية التى كانت قد انتشرت فى أنحاء الوادى والدلتا والصحراء الشرقية باشكال متنوعة . ومن هذه الأشكال ديرية الانبا شنوده (+ ٤٥١) فوفاته جاءت بعد وفاة باخوميوس بحوالى القرن .

---

(١) تحولت مكتبات برمتها من أديرة مصر إلى مكتبات الفاتيكان ، أو المكتبة الاهلية بباريس والمتحف البريطانى بلندن والمكتبة الملكية ببرلين عدا مكتبات امريكا .. ولذلك فان هذه المكتبات تشمل قسماً خاصاً بالمخطوطات القبطية . وقد حولت محتويات هذه المكتبات فى عصور الجهل والفقر (راجع فهرست المخطوطات العربية والقبطية ص ١٠ ، وراجع أيضا : الاديرة الشرقية ص ٩٤) .

وراجع J. Bell : Cults & Creeds in Graeco - Roman Eg. Liverpool p. 100, 1953.

(٢) لازال هناك دليل ملموس فى الاديرة الباخومية الموجودة بمصر فى وقتنا الحاضر ـــ فمن بين وحدات مبنى الدير الكنيسة والحصن ثم قاعة الاجتماعات المخصصة لعقد اجتماعات الرهبان لتلقى الدروس العامة . أما غرفة المائدة فيرى بها المقعد والمنجلية (أى مكان وضع الانجيل أثناء القراءة) (راجع سوريال ـــ المرجع نفسه ص ١٧٥)

وكانت أديرته غرب سوهاج (بانوبوليس)[1] وبهذه الأديرة أقام الأنبا شنوده نظاماً للشركة يشبه فى جوهره نظام باخوميوس لكنه فى بعض نواحيه يعود إلى بعض عنف الرهبانية التوحدية وشدتها فى أخذ الجسد بالمزيد من الزهد والتقشف والتعذيب .

ولم يقل شنوده عن باخوميوس فى إهتمامه بتعليم رهبانه ، فان رهبان الدير الأبيض كانوا وحدهم هم المتعلمون ومن بين طبقات الفلاحين كانوا جميعاً يعرفون القراءة[2] .

وهنا تبرز أمامنا ملاحظة هامة : فرغم أن شنوده حاول أن يعود برهبانه إلى لون الحياة التقشفية التى تميزت بها الرهبانية التوحدية ، إلا ان هذا لم ينسه أهمية التعليم . ومعنى ذلك أن التعليم منذ القرن الرابع أصبح عنصراً هاماً من عناصر الحياة فى الدير : دير الرجال والنساء على السواء ، لكن أديرة شنوده كانت مركزاً للآداب القبطية والتى سجلت بصفة خاصة باللهجة الصعيدية . وعرف شنوده بأنه أعظم كتَّاب الأدب القبطى بل والمؤسس الحقيقى للكنيسة القبطية[3] ، فقد عمل على تهذيب اللغة القبطية وآدابها الدينية وتخليصها من التأثيرات البيزنطية . ويرى بعض المؤرخين أن هذه الحركة هى فى الواقع « جزء من حركة أوسع استهدفت ايقاظ الوعى القومى المصرى ، وتحقيق استقلال مصر من الناحيتين الدينية والسياسية وفصلها عن القسطنطينية » وقد وضح أثر هذا الاتجاه فى نوع الرهبان الذين كانت تقبلهم أديرة شنوده : فبينما كان باخوميوس يقبل رهباناً بيزنطيين ولاتين وسريان ، وفلسطينيين وليبيين ، أى انه لم يميز بين الأجناس إذ بشنوده يقتصر فى قبول رهبانه على المصريين فقط . فأديرة باخوميوس إذن كانت ذات طابع دولى بينما اتخذت أديرة شنوده طابعاً مصرياً بحتاً .

وكان حماس شنوده الروحى عاملاً قوياً فى مقاومته لبقايا الوثنية وخرافاتها

---

(١) غرب النيل فى ديرين : أحدهما عرف بالدير الأبيض ، والاخر عرف بالدير الاحمر

(٢) W . Worrell : A Short Account of The Copts الترجمة العربية ضمن كتاب صفحة من تاريخ القبط الاسكندرية ١٩٥٤ ص ١٥٤

(٣) المرجع نفسه : ص ١٥٢

من سحر وتعاويذ ودجل طبى وبدع اجتماعية مختلفة فى الأعياد وذكرى القديسين والشهداء . وكان أسلوب شنوده أسلوباً أدبياً رفيعا استهدفت منه أن يرفع مستوى المصريين الاجتماعى والفكرى ، وأن يقضى على معالم الوثنية القديمة . فى ذلك الوقت شهدت الاسكندرية تحطيم معبد السيرابيوم سنة ٤١٢ م الذى كان رمزاً للنشاط الوثنى السياسى فى مصر ، ورجم الفيلسوفة اليونانية هيبيشيا سنة ٤١٥ م ومقاومة حركة النسطورية التى ظهرت بالقسطنطينية سنة ٤٣١ م والتى نادت بفصل طبيعة اللاهوت عن طبيعة الناسوت فى شخصية السيد المسيح .

ونستدل من هذه الوقائع أن أديرة شنوده كانت أديرة علم ودراسة : فالتعمق فى دراسة قواعد اللغة القبطية بلهجتها الصعيدية ، ووضع الأدبيات القبطية المتصلة بمقاومة الاتجاهات الوثنية والانحرافات الاجتماعية المتصلة بها ، فمواعظه وخطبه تعتبر قطعاً أدبية رائعة ، ثم مقاومة البدع التى ظهرت فى ذلك الوقت وأهمها بدعة نسطور بطريرك القسطنطينية ، فهذه كلها تشير إلى الاهتمام بالعلم والدراسة .

عوامل التربية الاجتماعية بالاديرة

أولا ــ التعليم المهنى بأديرة الشركة وأهميته فى التربية الاجتماعية :

قامت الشركة على أساس الاكتفاء الذاتى من النواحى المادية[1] ، ولذلك لم يقتصر واجب الراهب بها على مجرد أداء العبادات والقراءات والواجبات الروحية المختلفة ، وإنما إمتدت إلى ضرورة مساهمته فى خدمة الدير مادياً . فكان العمل اليدوى أو المهنى ، ضرورة يحتمها قانون باخوميوس . وقد حقق ذلك غرضين : أحدهما : الغرض الروحى ، فإنشغال الراهب بعمل يلهيه عن التفكير فى أمور الدنيا وشرورها . والغرض الثانى : خدمة الدير نفسه أى خدمة الجماعة . وكانت أعمال الرهبان وانتاجهم عاملاً من عوامل كسب القوت . فقد كانوا يبيعون انتاجهم للبلاد القريبة ، ثم يكفون احتياجاتهم وما تبقى يعطونه للمعوزين . ونلاحظ أن هذا النظام أبرز فلسفة « التربية الاجتماعية » وانتاج الفرد فى سبيل الجماعة بمعنى آخر أن الراهب لم يكن عالة على الدير ، وإنما كان عضواً منتجاً به .

وأهم الأعمال المهنية التى كان يقوم بها رهبان أديرة الشركة ــ أديرة باخوميوس وأديرة شنوده ــ صناعة الحصر ، والمقاطف من سعف النخيل ، وفتل الحبال من الليف ، والحدادة والنجارة والحياكة ، والفلاحة ، والطهى ، وأعمال العجن والخبز والبناء ، فضلا عن أعمال النسخ ، والكتابة . ويذكر بالاديوس أنه رأى بأحد الاديرة المجاورة لمدينة بانوبوليس (اسنا) ١٥ حائكاً ، ٧ حدادين ، وأربعة نجارين ، واثنى عشر راعياً للابل ، ولا نستبعد أنه فى فترة الإعداد التى حددها قانون باخوميوس كان الطالب ، على الاقل فى نهايتها ــ يختار عملاً من هذه الأعمال ليساهم به فى خدمة الدير . وواضح أن هذه الأعمال مما لا يستلزم فناً أو أصولاً خاصة إذ يكفيها بعض التدريب والممارسة ليصبح الراهب قادراً على الانتاج فيها . وقد تمثلت أديرة شنوده بقول القديس بولس « من لا يشتغل لا يأكل » فكان الرهبان بها يسيرون على مبدأ « الاكتفاء الذاتى » والاهتمام بالاعمال اليدوية .

---

(١) Butts : p . 144

ثانياً ــ انتخاب هيئة ادارة الدير : رغم الطابع العسكرى الذى ساد أديرة الشركة إلا أن باخوميوس لم يكن مستبداً فى ادارته ، فقد ترك لجامعته حرية انتخاب من يرونه صالحاً لزعامتهم[1] حقيقة كانت أديرة باخوميوس يسودها النظام المركزى ، لكن كانت لكل دير إدارته المحلية . فلكل مهنة رئيس يشرف على عملها . ولكل دير رئيس ، ونائب رئيس يختاران بالانتخاب . وكل ثلاثة أو أربعة أديرة متجاورة ، يكونون قبيلة ، ورؤساء هذه الأديرة يشتركون فى انتخاب رئيس القبيلة . ومن وقت لآخر يجتمعون للتشاور فى مشكلات أديرتهم وإدارتهم . وفى كل عام يعقد اجتماعان يحضرهما جميع الرؤساء والرهبان . وتحدد للاجتماع الأول موسم القيامة ، والثانى فى صوم العذراء (شهرى مسرى ــ أغسطس) وذلك لدراسة أحوال الأديرة ، ومحاسبة الرؤساء ، ثم عقد صلاة جامعة فى جلسة ختامية يحضرها الرهبان جميعا .

وواضح من هذا التنظيم أن الراهب فى أديرة الشركة كان له رأى فى تنفيذ خطة العمل الديرى ، وكان مبدأ انتخاب الرؤساء ــ من ناحية ــ نتيجة طبيعية لفلسفة التعليم التى اهتمت بها هذه الأديرة ، فالتعليم يرفع من مستوى تفكير الفرد ، ويهيىء له القدرة على التمييز بين الرئيس الصالح وغير الصالح ، ومن ناحية أخرى تمثلت فيه صورة الحياة الديمقراطية التى تسود الكنيسة بوجه عام من حيث اشتراك الشعب فى انتخاب رعاته من الأب القس إلى البطريرك .

الآثار الثقافية والتربوية لأديرة الشركة

١ــ حفظ التراث العلمى والثقافى المصرى : كانت قوانين باخوميوس ، وأديرته الأساس القوى الذى « بنى عليه الخلف الصالح تلك الانظمة الديرية التى كانت الوسيلة الوحيدة الناهضة للاحتفاظ بنور المدنية والحضارة فى عصور الظلام الأولى بعد انهيار الدولة الرومانية ونزول جحافل المتبربرين فى أكنافها من الغرب والشرق ، وكانت مكتبات الأديرة وأعمال الرهبان الدينية والأدبية[2] من أهم عناصر هذا التراث . ذلك أن الأديرة الباخومية كانت تعيش فى أمن وسلام وسط عالم منهار ملىء بالفزع والفوضى . كانت الدراسة

---

(١) سوريال ــ بحث الرهبنة ــ ص ١٦٦

(٢) Idris Bell : Cults / Creeds p . 100

والتأليف من أهم أعمال الرهبان . ويرى بعض المؤرخين أن جامعات العصور الوسطى سارت على نمط النظام التعليمى بأديرة باخوميوس ، فقد قسّم الرهبان فى أديرة باخوميوس ـــ كما عرفنا ـــ إلى أسر يقوم على تعليم كل أسرة منها معلم من جنسها . ترى هل يشبه هذا النظام نظام الأروقة فى جامعة باريس مثلاً التى انتشر فى رحباتها نظام الأمم فكان فيها خمس أمم تشمل الفرنسيين والانجليز والزمنديين والبريطان[1]

ولأن الأديرة كانت هى الوحيدة فى تلك الحقبة مجال الدراسة الدينية والروحية ، فقد جاء للأديرة المصرية عدد كبير من الطلاب من الأقطار الخارجية وبخاصة البحر المتوسط . فقد جاء إلى زيارتها القديسون بالاديوس ، وجيروم ، وهيلاريون ، وايرنيموس ، ويوحنا كاسيان : هؤلاء وغيرهم وضعوا كتباً كثيرة عن الرهبنة وتعاليمها ، وأدابها ، أصبحت فيما بعد عماد الرهبنة فى العالم وكانت تقرأ فى العصور الوسطى بأديرة أوربا . وكان هؤلاء الكتّاب حين يشيرون إلى الرهبان المصريين ينعتونهم « بالأباء الأطهار » .

ومن أصدق الادلة على ذلك أن عددا كبيراً من سياح أوربا أو رهبانها كانوا يحجون إلى الأديرة المصرية ليروا عن كثب ما سمعوه عن قدسية تلك الحياة النسكية التى فاح أريجها حتى وصل إلى أصقاع الأرض البعيدة . وفى مقدمة هؤلاء :

١ـــ القديس باسيليوس الكبير مؤسس الديرية اليونانية
٢ـــ هيلاريون الذى نقل الرهبنة إلى فلسطين
٣ـــ روفسينوس الذى قضى بمصر سنة ٣٧٣ م ستة أشهر
٤ـــ ثم جاء القديس جيروم سنة ٣٨٦ م لزيارة أديرة مصر
٥ـــ أما بالاديوس فقد قضى من سنة ٣٨٨ م حتى سنة ٣٩٩ م فى طيبة ثم من سنة ٤٠٦ م ـــ سنة ٤١٢ م فى وادى النطرون .

ولولا أنه وجد نظام الرهبنة ثقيلاً مرهقاً عليه بالنسبة لسنه وصحته لانضم إلى جماعتهم وأصبح عضواً منهم ، لكنه مع ذلك ترك لنا دراسة عن زياراته فى مؤلفه المعروف Historia Lausioca ويظهر من مؤلفاته ، أنه لم يزر أديرة شنوده إذ لم يكن فيها من يعرف اليونانية .

---

(١) سوريال : ص ١٧٢ .

٦ـ وجون كاسيان الذى جاء إلى مصر بين سنة ٣٩٠ م ـ سنة ٤٠٠ م وزار الأديرة حتى طيبة وترك لنا مؤلفين .

وهذه المؤلفات وصفت نماذج الرهبنة الحقيقية أمام الراغبين فى هذا النوع من الحياة فى مختلف الأقطار . وظلت هذه السير تقرأ فى أديرة بنديكت ولاتزال تقرأ حتى الآن .

ومن هنا نشأت دراسة أدبيات الرهبنة التى لم تقتصر على مجرد ذكر سير الآباء الرهبان وانما سجلت أقوالهم وتعاليمهم واختباراتهم وتوجيهاتهم منها مثلاً تعاليم مار اسحق وبستان الرهبان وغيره . وكانت هذه الأقوال والاختبارات تسلم من الرهبان الشيوخ للرهبان الشباب كتراث روحى تركه الآباء ذخيرة روحية تفوق الوصف .

وقد أصبحت مصدراً هاماً من مصادر التعليم وجمعت فى كتاب Historia Monachorum[1]

٢ـ الرهبنة والتبشير : إن صفة « الناسك » أو « زاهد الدنيا » لم تكن هى الصفات الوحيدة التى أطلقت على آباء البرية ، وإنما توفرت لهم صفة أخرى هامة : « الراهب المبشر » والتبشير كما نعلم يقتضى العلم بعناصر الدعوة وتفصيلاتها لكى تتحقق النتائج المرجوة منه . لقد خرج الديرى المصرى إلى أنحاء العالم الخارجى يكرز فيها بالتعاليم المسيحية :

أ ـ فالقديس أوجين ـ ويعرف بمار آيون ـ جاء من الصعيد ، ومعه عدد من الرهبان يقدر بسبعين ، نزلوا بالقرب من نصيبين ، وبنوا الأديرة بالموصل ، وبشروا الأشوريين .

ب ـ وإلى شواطىء فرنسا وجزر البحر المتوسط وصل الرهبان القبط وأقاموا المؤسسات التى جاءها كثيرون من الراغبين فى هذا النوع من الحياة .[2]

ج ـ أما فى ايطاليا فقد وصلت سيرة انطونيوس مع القديس أثناثيوس حين نفى إلى هناك سنة ٣٣٩ م . وقد صحب القديس أثناسيوس معه راهبين

---

(١) راجع Hardy Christian Eg. p. 96

(٢) Leg. of Eg. : p. 324

من دير باخوميوس فكانت فرصة أن يبشر بمبادىء الرهبنة وفضائلها . ولا شك أن هذا العمل كان من أعظم العوامل التى أدت إلى قيام نظام الرهبنة بأوربا .

د ــ وإلى أيرلندا : سافر المجتهدون من الرهبان المبشرين بالدين المسيحى من مصر . والدليل أنه رغم عدم وجود صحراوات بهذه الجزيرة ، إلا أن الرهبان الأيرلنديين نقلوا عن رهبان مصر أسماء أديرتهم Disert Ulidh [1] ورغم بعد المسافة بين جزيرتهم ومصر ، فإن الصلة الروحية بينهما لم تنقطع حتى أنه يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس دليل لمنفعة الرهبان الايرلنديين إذا رغبوا فى الرحيل إلى مصر لزيارة آباء البرية .

بأحد هذه الأديرة ظهر القديس Patrick الذى تتلمذ بفرنسا ، ثم أنشأ الكنائس والأديرة فى القرن الخامس بأيرلندا ، وجعل من رئيس الدير رئيساً لهيئة الاكليروس Klergy فى الكنائس الواقعة بمنطقة الدير . واتسعت رقعة الكرازة فى القرن السادس على يد St- Columba الذى نقل النظام الديرى ، إلى الجزر البريطانية ، ثم خرج إلى القارة مع تلاميذه الاثنى عشر وأسس معهم أديرة كثيرة بسويسرا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا [2] حتى وصل إلى جنوب ايطاليا . واصبحت هذه الأديرة مراكز للدراسات اليونانية والدراسات الروحية .

هـ ــ وأخيراً إلى أفريقيا حيث وصل الراهب المصرى إلى أثيوبيا ، وحيث قام هناك نظام ديرى من نوع فريد إذ أصبحت أديرة أثيوبيا مركز النشاط الدينى وترجمة الكتب .

٣ ــ **الأديرة وإعداد رعاة الكنيسة** : كانت الأديرة معمل إعداد رعاة الكنيسة الذين سبق أن ذكرنا الشروط التى ينبغى توفرها فيهم . ولعل أهم شرطين توفرا فيهم فى الديرين : التقوى وزهد الدنيا ، ثم حب الدرس والدأب على تحصيل العلم : أى شرط التقوى والعلم وهما الشرطان الأساسيان للراعى فى الكنيسة المسيحية . ويذكر بعض الكتَّاب أن قانون باخوميوس اشترط فيمن يرقى إلى درجات الكهنوت « أن يكون قد وصل فى العلم إلى درجة تؤهله

---

(١) لين بول : سيرة القاهرة ــ الترجمة العربية ــ الطبعة الثانية ــ القاهرة سنة ١٩٤٩ ــ ص ٦٩ .

(٢) Butts A. op. cit: p. 143

للارتقاء إلى إحداها » وحين أغلقت جامعة الاسكندرية اللاهوتية فى القرن الخامس ، هاجر أساتذتها بكتبهم وأبحاثهم إلى دير القديس أبو مقار بوادى النطرون ومنذ ذلك الوقت وأغلب البابوات يختارون منه حتى بلغ عددهم حوالى ٥٢ من ١١٦ بابا اختيروا لرعاية كرسى مار مرقس حتى الآن . ونلاحظ أن اختيار البابا المصرى كان يتم عن طريق الانتخاب تماماً كما كان يتم اختيار رئيس الدير فى مؤسسات باخوميوس .

٤ ــ **الأديرة ومقاومة البدع** : فعند استفحال هرطقة أريوس الكاهن السكندرى فى أثناء حكم الامبراطور قسطنطين الكبير فى القرن الرابع جاء القديس أنطونيوس من صحرائه ليساعد القديس أثناسيوس فى كفاحه ضد هذه الهرطقة . ولا شك أن شخصيته كانت إحدى الدعامات فى رد المصريين إلى حظيرة الايمان المسيحى وكبت هذه الضلالة .(١)

كذلك ذهب الأنبا شنوده مع القديس البابا كيرلس الكبير ومعه بعض رهبانه إلى مجمع أفسس الاول سنة ٤٣١ م لمقاومة بدعة نسطور .

ولا شك أن خروج هؤلاء الرهبان دليل جديد على مدى تمكنهم من الدراسات اللاهوتية ، وامتلاكهم لناصية الحجة فى الرد على أهل البدع ....

الأديرة وحركة استقلال مصر : وقد ظهرت هذه الحركة فى حجر أديرة الأنبا شنوده قرب أخميم . ومنها انتقلت إلى سائر ربوع الوادى . وكان موقفه من بدع نسطور أحد مظاهر مقاومته للنفوذ البيزنطى ، كذلك كانت محاولاته فى تخليص الآداب الدينية القبطية من كل ما هو بيزنطى مظهراً آخر لهذه الحركة ، بل أن تجمع الرهبان فى أصله يرجع فى بعض أسبابه إلى رغبتهم فى حماية أنفسهم ومقاومة الاضطهاد الرومانى حتى عصر قسطنطين .

لقد كان الدير بمثابة جامعة شعبية من نوع فريد نزح إليها طالبو المعرفة والفضيلة ، والباحثون عن التأمل والخلوة ، فلم يكن غريباً أن يتخرج فيها عدد كبير من العلماء والفلاسفة حملوا عبء حفظ تراث الانسانية الثقافى والعلمى خلال عصور الجهل والظلام .

---

(١) سوريال : ص ١٥٤ .

ملحق الكتاب

نصوص قبطية

Ⲛⲑⲟⲕ ⲟⲛ ϯⲛⲟⲩ ⲁⲕⲥⲱⲧⲡ ⲙ̀ⲡⲉⲕⲃⲱⲕ
(ⲛ̅ⲓ̅ⲙ̅) ⲫⲁⲓ ⲉⲧⲟⲩⲑⲱϣ ⲙ̀ⲙⲟϥ ⲉⲟⲩⲁⲛⲁ
ⲅⲛⲱⲥⲧⲏⲥ ⲙⲟⲓ ⲛⲁϥ ⲛ̀ⲟⲩⲥⲟⲫⲓⲁ ⲛⲉⲙ
ⲟⲩ ⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲙ̀ⲡⲣⲟⲥ ⲫⲏⲧⲓⲁ ⲑⲣⲉϥⲓⲣⲓ ⲛ̀ⲧ-
ⲙⲉⲗⲉⲧⲏ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲉⲕⲥⲁϫⲓ ⲉ̅ⲑ̅ⲩ̅ ⲉⲡⲉⲕ
ⲗⲁⲟⲥ ϧⲉⲛ ⲟⲩⲡⲟⲗⲏⲧⲓⲁ ⲛ̀ⲁⲧⲁⲣⲓⲕⲓ

نص باللغة القبطية لصلاة تقال في سيامة الشماس وترجمته:

أنت الآن اصطفيت عبدك (فلان) هذا الذي يُسام قارئاً، فأعطه حكمة، وامنحه روح النبوة (أي العتليم والتبشير) ليتلو أقوالك المقدسة لشعبك بسيرة لا لوم فيها.

Ⲁⲛϫⲟⲛⲧⲥ ⲅⲁⲣ ⲁⲛϭⲏⲛⲧⲥ ⲙ̄ⲙⲉ ⲝⲣⲟⲛ
ⲉϥϫⲟⲛⲧ ⲅⲁⲣ ⲛ̀ⲧⲟⲧⲉⲛ ⲁⲛⲇⲟⲕⲓⲙⲁⲝⲉ
ⲙ̀ⲙⲟϥ ⲁⲛϭⲛⲧϥ ⲉⲣⲛⲟϥⲣⲉ ⲉϣⲱⲛⲉ
ⲡⲓⲙ ⲉⲧϩⲛ̀ ⲛ̄ⲃⲁⲗ ⲝⲩⲣⲟⲛ ⲁⲓⲧⲟⲕⲙⲁⲝⲉ
ⲙ̀ⲙⲟⲥ ⲁⲓϭⲏⲛⲧϥ ⲙ̄ⲙⲉ ⲙⲛⲟⲩⲟⲛ

نص قبطى يرجع إلى القرن العاشر الميلادى نستدل منه على أن أحد الأطباء القبط قد جرب بعض الأدوية في علاج أمراض العيون وترجمته:

جربناها فوجدناها حقيقة شافية نافعة — دواء مجربا، لأننا بأيدينا اختبرناه. فوجدناه نافعاً لكل أمراض العيون: دواء مجربا وحقيقة جربته مع كل مريض

في إقامة الشماس (ويشغل وظيفة التعليم في الكنيسة)

يسأل الأسقف أراخنة الشعب:

أتشهدون أنه مستحق لهذه الرتبة بالحقيقة؟

ϫⲉ ⲧⲉⲧⲉⲛ ⲉⲣⲙⲉⲑⲣⲉ ; ϫⲉ ϥⲉⲙ ⲡ̀ϣ-
ⲁⲛⲧⲁⲓ ⲧⲁⲝⲓⲥ ϧⲉⲛⲟⲩⲙⲉⲑⲙⲏⲓ

Ⲛ̀ⲑⲱⲟⲩ ϫⲉ ⲉⲩⲉ̀ ⲉ̀ⲣⲟⲩⲱ̀ ⲟⲩⲟϩⲉⲩⲉ̀ⲣⲙⲉⲑⲣⲉ
ϫⲉ ⲁ̀ϩⲁ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ϥⲉⲙ ⲡ̀ϣⲁ

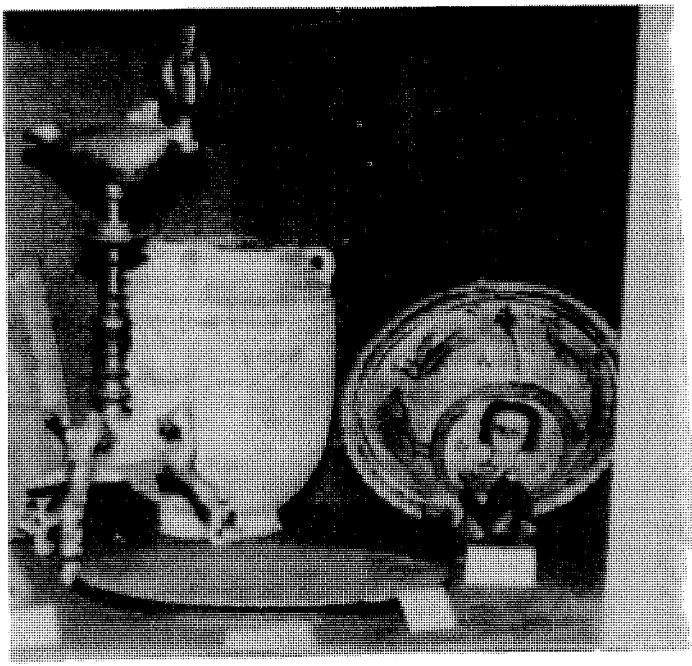
فيقولون شاهدين، نعم ياأبانا هو مستحق

نصوص قبطية عن مخطوط «ترتيب قسمة رتب الكهنوت» من الأغنسطس إلى القمص» ــ بالمكتبة البطريكية ــ طقس ــ رقم ٥١٣ ــ ص ٨،٧.

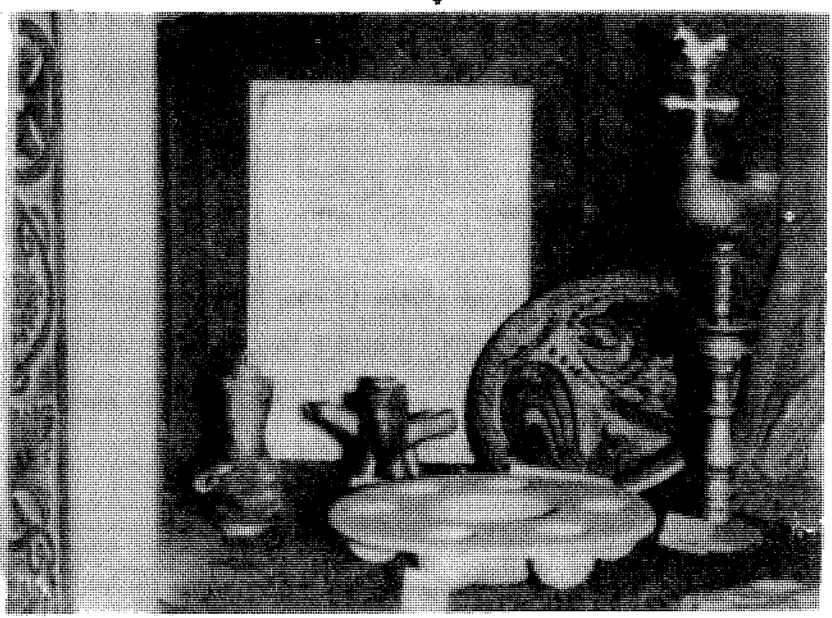
Ⲟⲩⲝⲩⲣⲟⲛ ⲉⲛⲁⲛⲟⲩϥ ⲉⲧⲃⲉ ⲧⲙⲏϩⲉ ϣⲁϥⲕ-
ⲁⲑⲁⲣⲓⲍⲉ ⲙ̀ⲙⲟⲟⲩ

وهذا نص آخر يقول فيه الطبيب إنه مارس علاج الخراج بنوع من المساحيق ونجح فيه وترجمته:

«إنه دواء شاف للخراج يطهره»



آنية من العصر القبطي
ويلاحظ أثر الفن المصري القديم دليلاً على تواصل التراث التعليمي والفني



تحف قبطية تدل على مهارة الصانع القبطي وأثر التعليم الفني والتراث المصري في إتقان المهارات الفنية

المراجع

أولاً : المراجع العربية

أولاً : مخطوطات :

ــ تاريخ البطاركة ــ مخطوط رقم ٩٢ تاريخ ــ المكتبة البطريركية .
ــ ترتيب قسمة رتب الكهنوت ــ مخطوط رقم ٤١٣ طقس ــ المكتبة البطريركية .

ثانياً : مراجع كنسية :

الخولاجى المقدس ــ كتاب الثلاثة قداسات .
الدسقولية أو تعاليم الرسل ــ الترجمة العربية ــ حافظ داود ــ الطبعة الثانية ــ سنة ١٩٤٠
الكتاب المقدس ــ العهد القديم والعهد الجديد ــ طبعة جمعية التوراة ــ المعمودية المقدسة ــ القاهرة ــ طبعة سنة ١٩٢١ .
ترتيب رتبة الاكليل الجليل ــ القاهرة ــ الطبعة الثانية ــ سنة ١٩٢١ .

ثالثاً : مراجع غير مطبوعة :

د . عبد العزيز صالح :التربية والتعليم فى مصر القديمة ــ رسالة دكتوراه فى الاثار والحضارة المصرية القديمة ــ يوليه سنة ١٩٥٦ ــ مخطوط رقم ٢٠٨٨ ــ تاريخ بمكتبة وزارة التربية والتعليم .

د . وهيب عطالله : وكيل الكلية الاكليريكية :
اكليمنضس ــ اوريجانوس ــ مذكرات فى الفلسفة القبطية ــ منشورات الكلية الاكليريكية ــ سنة ١٩٦١ .

رابعاً : **مجموعات أبحاث لمؤلفين مختلفين :**

ـــ الرهبنة القبطية : لجماعة مار مينا ـــ الاسكندرية ـــ سنة ١٩٤٨ .

ـــ المجمل فى التاريخ المصرى : الناشر د . حسن ابراهيم ـــ القاهرة ـــ سنة ١٩٤٢ .

ـــ تراث مصر القديمة : أصدرته مجلة المقتطف ـــ لم تذكر سنة الطبع .

ـــ صفحة من تاريخ القبط : لجماعة مار مينا ـــ اسكندرية ـــ سنة ١٩٥٤ .

ـــ صور من تاريخ القبط : لجماعة مار مينا ـــ اسكندرية ـــ سنة ١٩٥١ .

ـــ كفاحنا ضد الغزاة : ضمن مجموعة الألف كتاب ـــ سنة ١٩٥٧ .

خامساً : كتب حققت علمياً :

ـــ التعليم عند القابسى : تحقيق د . أحمد فؤاد الأهوانى ـــ القاهرة ـــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـــ سنة ١٩٤٥ .

ـــ مصباح الظلمة فى ايضاح الخدمة : ابن كبر ـــ الطبعة العربية ـــ الناشر : جرجس فيلوثاؤس عوض سنة ١٩٣٠ .

سادساً : المؤلفات :

ـــ د . ابراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ـــ ج١ ، ج٢ ـــ القاهرة ـــ مكتبة النهضة ـــ سنة ١٩٤٦ .

ـــ د . أحمد بدوى : فى موكب الشمس ـــ ج٢ ـــ القاهرة ـــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـــ سنة ١٩٥٠ .

ـــ د . أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ـــ القاهرة ـــ مكتبة النهضة ـــ سنة ١٩٣٨ .

تاريخ التعليم من عصر عباس حتى عصر توفيق ج١ : عصر عباس وسعيد . ج٢ : عصر اسماعيل وتوفيق ـــ طبعة وزارة المعارف ـــ سنة ١٩٤٥ .

ـــ السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

المقريزى : أ ــ الخطط : عجائب الأخبار فى ذكر الخطط والاثار ج١ ، ج٢
ب ــ السلوك : فى معرفة الدول والملوك .

باهور لبيب : ــ لمحات فى الدراسات المصرية القديمة ــ القاهرة ــ سنة ١٩٤٧ .
ــ مختصر دليل المتحف القبطى ــ القاهرة ــ مطبعة دار الكتب سنة ١٩٥٩ .

حبيب جرجس : أسرار الكنيسة السبعة : القاهرة ــ سنة ١٩٣٤ .

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة ــ سنة ١٩٤٨ .
مصر والحضارة الاسلامية ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة ــ سنة ١٩٤٨ .

جورج شحاته قنواتى : الأدوية والعقاقير فى مصر القديمة ــ القاهرة ــ دار المعارف ــ سنة ١٩٥٩ .

د . سعيد عبد الفتاح عاشور : ــ الجامعات الاوربية فى العصور الوسطى ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة ــ سنة ١٩٥٩ .
ــ أوربا فى العصور الوسطى ــ ج٢ ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة الطبعة الأولى ــ سنة ١٩٥٨ .

سليم سليمان الفيومى : مختصر تاريخ الامة القبطية : القاهرة ــ سنة ١٩١٤ .

د . سيدة اسماعيل الكاشف : مصر فى فجر الاسلام ــ القاهرة ــ سنة ١٩٤٧ .

عبد الرحمن زكى : تراث مصر فى الحضارة الاسلامية ــ القاهرة ــ دار النيل للطباعة ــ سنة ١٩٥١ .

د . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى العصرين الايوبى والمملوكى ــ القاهرة ــ دار الفكر العربى ــ سنة ١٩٤٧ .

د . عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية ــ القاهرة ــ دار النهضة العربية ــ سنة ١٩٦٠ .

د . عبد اللطيف على ، ود . عواد حسين :	مصر من فتح الاسكندر حتى الفتح العربى ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة ــ سنة ١٩٥٤ .
د . عبد المنعم أبو بكر :	التعليم وأهدافه عند قدماء المصريين : محاضرة نشرتها اللجنة الاجتماعية لأسبوع شباب الجامعات ــ سنة ١٩٥٤ .
د . على ابراهيم حسن :	مصر فى العصور الوسطى ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة ــ سنة ١٩٤٧ .
د . فتحية سليمان :	التربية عند اليونان والرومان . ــ القاهرة ــ مكتبة النهضة ــ سنة ١٩٥٨ .
محمد أحمد حسين :	مكتبة الاسكندرية فى العالم القديم ــ القاهرة ــ سنة ١٩٤٣ .
محمد خطاب عطية :	التعليم فى العصر الفاطمى الاول ــ القاهرة ــ سنة ١٩٤٧ .
مرقس سميكة :	ــ دليل المتحف القبطى : ج١ و ج٢ ، القاهرة ــ سنة ١٩٣٠ . ــ فهارس المخطوطات القبطية والعربية ــ ثلاثة أجزاء ــ القاهرة ــ سنة ١٩٣٩ .
د . نجيب ميخائيل :	مصر والشرق الأدنى القديم ــ الطبعة الثانية ــ يناير سنة ١٩٥٧ .
د . يحيى الخشاب :	تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية : القاهرة ــ سنة ١٩٥٣ .
الآب القمص يسطس الدويرى :	موجز تاريخ المسيحية ــ القاهرة ــ أكتوبر سنة ١٩٤٩ .
يوسف كرم :	تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط ــ دار الكاتب المصرى ــ سنة ١٩٤٦ . تاريخ الفلسفة اليونانية ــ الطبعة الثانية ــ سنة ١٩٤٦ .

سابعا : الكتب المترجمة :

ـــ اتيين دريوتون ، جاك فانديه : مصر ـــ ترجمة عباس بيومى ـــ القاهرة ـــ مكتبة النهضة لم تذكر تاريخ النشر .

ـــ القديس أثناسيوس الرسولى : حياة القديس انطونيوس ـــ الترجمة العربية ـــ رسالة الى الوثنيين ـــ ترجمة حافظ داود ـــ سنة ١٩٤٢ .

ـــ الفرد بتلر : فتح العرب لمصر ـــ ترجمة محمد فريد أبو حديد ـــ القاهرة ـــ طبعة دار الكتب ـــ سنة ١٩٣٣ .

ـــ الن شورتر : الحياة اليومية فى مصر القديمة ـــ ترجمة د . نجيب ميخائيل ـــ القاهرة ـــ مكتبة الانجلو ـــ سنة ١٩٥٦ .

ـــ برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية . ترجمة زكى نجيب محمود ـــ ج١ ـــ القاهرة ـــ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـــ سنة ١٩٥٤ .

ـــ بريستد (ج . هـ) : انتصار الحضارة ـــ ترجمة د . أحمد فخرى ـــ القاهرة ـــ مكتبة الانجلو ـــ سنة ١٩٥٥ .

ـــ جان جاك روسو : اميل أو التربية فى القرن ١٨ . ظهر بفرنسا سنة ١٧٦٢ . ترجمة عادل زعيتر ـــ القاهرة ـــ دار المعارف ـــ سنة ١٩٥٦ .

ـــ جروهمان : الاوراق البردية العربية المحفوظة بدار الكتب ـــ ترجمة توفيق اسكاروس ـــ سنة ١٩٣٠ . وترجمة د . حسن ابراهيم ـــ سنة ١٩٥٥ .

ـــ جورج سارتون : تاريخ العلم : ترجمة كامل حسين ـــ ج١ ـــ القاهرة ـــ دار المعارف ـــ سنة ١٩٥٧ .

ـــ جون ولسون : الحضارة المصرية ـــ ترجمة د . أحمد فخرى ـــ القاهرة ـــ مكتبة النهضة ـــ سنة ١٩٥٥ .

— ديمان (م . ر) : الفنون الاسلامية — ترجمة أحمد محمد عيسى — القاهرة — دار المعارف — سنة ١٩٥٣ .

— روستوفتزف : تاريخ الدولة الرومانية الاجتماعى والاقتصادى — الترجمة العربية : محمد سليم سالم — زكى على — القاهرة — سنة ١٩٥٨ .

— فيشر (هـ . ل) : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى : ترجمة مصطفى زيادة — والباز العرينى — القاهرة — دار المعارف سنة ١٩٥٠ .

— لين بول (س) : سيرة القاهرة — ترجمة — د . حسن ابراهيم — القاهرة — الطبعة الثانية — سنة ١٩٤٩ .

— مرجريت مرى : مصر ومجدها الغابر : ترجمة محرم كمال ، ود . نجيب ميخائيل — القاهرة — لجنة البيان — سنة ١٩٥٧ .

— منرو : تاريخ التربية — ترجمة صالح عبد العزيز — القاهرة — مكتبة النهضة — سنة ١٩٤٩ .

— ول ديورانت : قصة الحضارة : ج١ ، ج٢ . القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر — سنة ١٩٥٠ .

— د . وهيب كامل : هيرودوت فى مصر : عن اليونانية ، سترابون فى مصر : عن اليونانية — القاهرة — دار المعارف — سنة ١٩٤٦ ، ودار المعارف سنة ١٩٥٣ .

ثامنا : الدوريات :

— المجلة التاريخية المصرية : المجلد الثالث — ع ١ — مايو سنة ١٩٥٠ .
المجلد الرابع — مايو سنة ١٩٥١ .

— مجلة جمعية الآثار القبطية : المجلد الثالث — لسنة ١٩٣٧ .
المجلد التاسع ١٩٤٣ .

— مجلة معهد الدراسات القبطية — العدد الأول — السنة الأولى — سنة ١٩٥٨ .

محتويات الكتاب



هذا الكتاب رحلة ذهنية ممتعة ، يقودنا فيها الكاتب عبر فترة من فترات تاريخنا المصرى ، تحتاج إلى ألقاء المزيد من الأضواء عليها ، وهى فترة « العصر القبطى » ، ليستعرض قضية تتصل بأهم قضايانا المعاصرة ، عن دور الشعب المصري فى مختلف العصور في خدمة التعليم وتوجيهه ليكون وعاء نضال قومي ضد الطغاة والمحتلين . ولا شك في أن دور الكنيسة المصرية الروحي والقومي فى « العصر القبطى » يعتبر من أبرز فصول التاريخ المصري العام ، ومن أروع الصفحات التى سجلها المؤرخون من المصريين أو غيرهم .

والكاتب

- أستاذ أصول التربية بجامعتى حلوان والقاهرة سابقاً .
- أستاذ ورئيس قسم الاجتماع بمعهد الدراسات القبطية .
- له مؤلفات عديدة فى موضوعات متعددة .

دار الثقافة

١٠١٠٠١٦٥